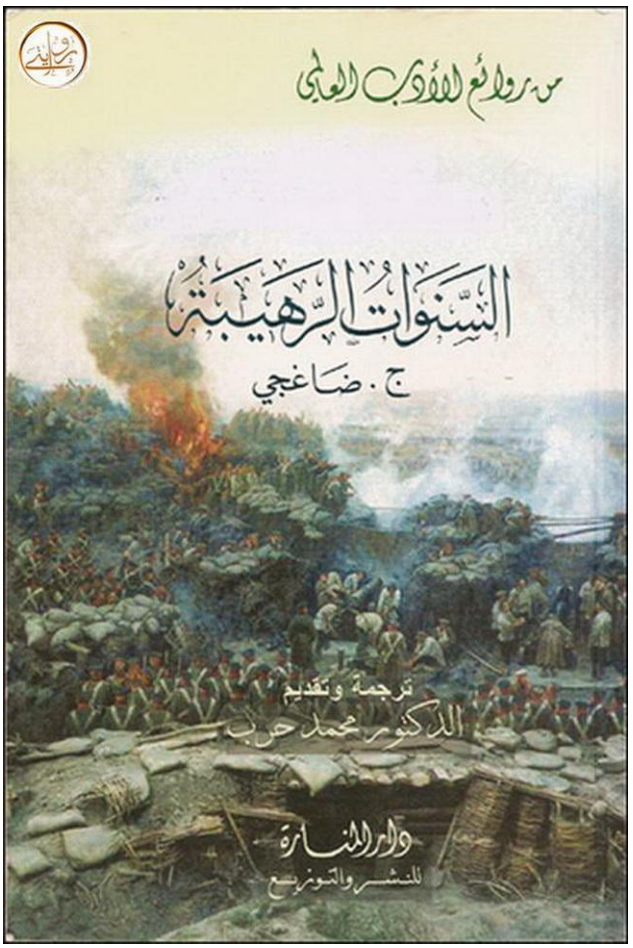

من روائع الأدب العالمي

السنوات الرهيبة

ج. ضاغجي

رواية تصور مأساة المسلمين

في شبه جزيرة القرم السوفيتية

إبان الحرب العالمية الثانية

*إلى الأستاذ التركي الجليل؛

*عالم اللغة العربية القدير؛

*علّامة الدراسات الشرقية الكبير:

نهاد جنتين

*أستاذي الذي أكرم وفادتي عندما كنت أطرق بابه – وما زلت – طالباً التزود من علمه وفضله وأدبه وعرفانه.

*أستاذي الذي حببني في العلم النافع وشجّعني عليه.

أجزل الله ثوابه ونفع به طلاب العلم والفضل والأدب.

الدكتور محمّد حرب

المدينة المنورة

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

جنكيز ضاغجي، وقضيته

شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com

هناك تشابه كبير بين مأساة فلسطين العربية ومأساة القرم التركية: فشعب فلسطين أخذت منه أرضه وطرد من دياره، وشعب القرم أخذت منه أرضه وطرد من دياره.

في فلسطين: حدثت هجرات يهودية إلى فلسطين إلى أن استولى اليهود بالقوة المسلحة على هوية الأرض الفلسطينية وأعلنوا فيها دولة يهودية (عام ١٩٤٨م)، وفي القرم حدثت هجرات يهودية وصقلبية روسية إلى أن استولى الروس بالقوة المسلحة على هوية الأرض القرمية وأعلنوا فيها دولة (عام ١٩٤٦م)[١].

والقرم شبه جزيرة تقع شمال البحر الأسود، يحيط بها بحر القازاق من الشرق ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب. والقرم منطقة تابعة الآن للاتحاد السوفييتي.

وصل الإسلام إلى القرم عن طريق التتار، إذ اعتنقته القبيلة الذهبية عام ١٣٤٠م وكان قد أسس دولتها باطوخان أحد أحفاد جنكيز خان عام ١٢١٨م، واستقر التتار في المنطقة وعمروها[٢].

وعندما دمّر تيمورلنك القبيلة الذهبية، تفرقت دولتها إلى ثلاث "خانيات"، كان القرم واحدة منها. وتولى الحكم فيها عائلة كيراي (منذ ١٤٢٧ إلى ١٧٨٣). وكانت روسيا تشكل في ذلك العهد خطورة ضد القرم لأن روسيا كانت آخذة في التوسع فاضطر محمد كيراي عام ١٥٢١م أن يقود جيوشه لتأديب روسيا، فحاصر

---

[١] محمد حرب، الروائي جنكيز ضاغجي وأحلام المسلمين في القرم، العربي، العدد رقم ٢٦٣، اكتوبر ١٩٨٠.

[٢] محمود شاكر، المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٨- ٦٩.

موسكو وأخضع حكامها له وأجبرهم على دفع الجزية، إلا أن دولت كيراي حاكم القرم قاد جيوشه لفتح موسكو عام ١٥٧١م[٣].

وعندما أصاب الضعف خانية القرم، فَضَّل حكامها أن يكونوا عمَّالاً لإخوانهم العثمانيين بدلاً من أن يخضعوا لخصومهم الروس، خاصة بعد أن قويت روسيا واستطاعت عام ١١٨٥هـ قتل ثلاثمائة وخمسين ألف قرمي[٤].

وفي عام ١٧٨٣م كانت روسيا تحتفل بجلوس كاترينا الثانية على العرش. وكان شاهم كيراي يحكم القرم، وكان هذا تابعاً للدولة العثمانية، إلا أنه كان واقعاً تحت تأثير الروس، وكان هؤلاء يلعبون لعبة مزدوجة في القرم إذ ذاك، فهم من ناحية مع شاهم كيراي يؤيدنه ويظهرون له الود والإخاء، ومن ناحية أخرى كانوا يحرضون معارضيه على الثورة ضده[٥].

قامت كاترينا الثانية بإهداء شاهم كيراي مجموعة من المستشارين الروس قدمتهم قيصرة روسيا لخدمة حاكم القرم، وبتأثيرهم فرض هذا الحاكم على جيشه الزي العسكري الروسي وقام بتطبيق الأسس العسكرية الروسية في بلاده، وسار خطوات واسعة في "تغريب" القرم، وأخذ في إعداد أسطول لكي يسيطر به على البحر الأسود كما صور له المستشارون الروس. ولتحقيق هذا الطموح كان لابد من المال وبالتالي فرض ضرائب فادحة على شعبه ثم ألغى الأوقاف. وأفاد الروس من هذا الجو الذي عملوا هم على ظهوره، فحرضوا معارضي شاهم كيراي على أن يضربوا ضربتهم، فقاموا بثورة وما كان من شاهم كيراي إلا الفرار إلى روسيا[٦].

---

[٣] محمد حرب، المرجع السابق.

[٤] محمود شاكر، المرجع السابق، ص ٦٩.

[٥] محمد حرب، اغتيال مصطفى جميل القرمي وعلاقته بمأساة المسلمين في الاتحاد السوفييتي. البلاغ، الكويت، ١٩ فبراير ١٩٧٨م.

[٦] محمد حرب، المرجع السابق.

قامت القوات الروسية باحتلال القرم بحجة حماية حليفهم شاهم كيراي وإعادته إلى العرش. أما الواقع فقد احتل الروس القرم منذ ذلك الحين وحتى الآن. وكان قائد القوات الروسية إذ ذاك هو الجنرال بوتمكين وبعد أن غزا هذا الجنرال القرم (عام ١٧٨٣م) اتضح أنه يحمل أمر الإمبراطورة كاترينا بإلحاق القرم بالإمبراطورية الروسية. كما كان بوتمكين يحمل الصلاحية الكاملة لطرد شعب القرم والقضاء على دينه وثقافته، وكان عدد القرميين في عام الغزو الروسي هذا يبلغ مليوناً ونصف مليون نسمة، كلهم من الأتراك التتار. وتركزت السياسة الروسية تجاه شبه جزيرة القرم في إجبار أتراك القرم على الهجرة الجماعية "حتى تخلو شبه الجزيرة منهم تماماً"، ويحل العنصر الروسي محلهم.

ونتيجة لتطبيق هذه السياسة قامت الحكومة الروسية بتنفيذ وصية الأمير منشكوف الخاصة بتهجير القرميين إلى داخل روسيا وإلى الولايات الروسية البعيدة، ولا سيما أن الحكومة الروسية كانت - وما تزال - تعمل على الوصول إلى المضايق والمياه الدافئة، وهذه استراتيجية روسية ثابتة.

وظل القرميون وهم تتار أتراك، خاضعين للحكم القيصري، وكان هذا الحكم ينظر إلى القرميين على أنهم "خونة مستعدون للتعاون مع ألد أعداء روسيا وهي الخلافة العثمانية".

"ولذا عندما نشطت الحركة الإصلاحية في روسيا والمطالبة بالحريات الدينية والحريات المدنية، وتكَّون الدوما (البرلمان الروسي عام ١٩٠٥م) نشط المسلمون في كل مناطق روسيا وعلى الأخص في القرم مما جعل الحكام الروس يتخوفون من هذه الحرية ويصدرون أوامرهم إلى وزير الداخلية بالحد من نشاط "المسلمين" وتكميم أفواههم ومنع فتح مساجد جديدة وتشديد الرقابة على زعمائهم".

لهذا وجد فلاديمير ايلتش لينين، عندما قام بثورته البلشفية في أكتوبر ١٩١٧م، المساندة من جميع مسلمي روسيا. ولا سيما أن لينين وعد المسلمين في

كل روسيا، وكرر وعده في خطبه وفي منشوراته بأن المسلمين سيحظون بالحرية الدينية الكاملة بل وبالاستقلال الذاتي في شؤونهم. وأيد قيام دولة القرم الإسلامية باسم جمهورية القرم الشعبية في ١٩١٧/١٢/١٣م، وأجريت في القرم انتخابات عامة لأول مرة لاختيار حكومة وطنية رأسها (جلبي نعمان جهان) في ظل الثورة البلشفية. لكن البلاشفة لم يكونوا جادين في إعطاء القرم الاستقلال، لأن ٣٠٠٠٠ من جنود البحرية والعمال البلاشفة لم يعترفوا بسلطة الحكومة الوطنية، وقام هؤلاء بمساعدة الروس المهجرين إلى القرم من يهود وصقالبة، بإسقاط حكومة القرم وحزبها (ملِّي فرقه) وإعدام رئيس الجمهورية المنتخب وإلقاء جثته في البحر.

أصدر لينين في إبريل ١٩١٨م أمره بالزحف على البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة للقياصرة الروس. وفي إبريل ١٩٢٠ حاصرت القوات البلشفية، بلاد القرم وشدّدت الحصار حتى حدثت مجاعة ضخمة. وفي تقرير مقدم إلى عصبة الأمم أن الذين لقوا حتفهم من جراء تلك المجاعة أكثر من مائة ألف، في حين ذكرت جريدة ازفستيا الصادرة في ١٩٢٢/٧/١٠ أن الذين ماتوا بسبب الجوع من التتار القرميين بلغ أكثر من ستين ألفاً [٧].

وفي عام ١٩٢٨ اعترض ولي إبراهيم رئيس حكومة القرم على قرار جوزيف ستالين الخاص بإقامة دولة يهودية في القرم، واحتج ولي إبراهيم على تدفق الهجرات اليهودية إلى بلاده، فأصدر ستالين الحكم بإعدام ولي إبراهيم وكل أعضاء حكومته.

لكن لم تنفذ فكرة إقامة وطن قومي لليهود في شبه جزيرة القرم، إلا أن الهجرات الروسية إلى القرم كانت قد استقرت في هذه البلاد [٨].

---

[٧] محمد علي البار، المرجع السابق، ص ١٢٣.

[٨] Abdullah Bizden, Gengiz, dagci, Türk dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, C. 2,S. 181-182, Istanbul 1997.

وفي عام ١٩٢٩م أصدر ستالين أمراً بنفي ٤٠٠٠٠ قرمي من بلادهم إلى سيبريا [٩].

ونقص عدد التتار القرميين داخل بلادهم، من مليون ونصف مليون نسمة عام ١٧٨٣ إلى ١٥٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٦.

إلا أن القرار الخطير، قرار طرد شعب من أرضه، أصدره ستالين في ١٨ مايو عام ١٩٤٤ وهو قرار خاص بنفي وطرد كل أتراك القرم من وطنهم الأصلي القرم إلى صحراء آسيا الوسطى وبلادها. وقامت عربات السكة الحديد المخصصة لنقل الحيوانات بنقل تتار القرم إلى المعسكرات التي خصصت لهم في آسيا الوسطى.

وسبب هذا القرار أن القرميين - نتيجة ضيقهم بالروس - تعاونوا مع الألمان عندما احتل هؤلاء القرم في الحرب العالمية الثانية [١٠].

جنكيز ضاغجي

ومؤلف هذه الرواية، كاتب من تتار القرم، وهو تتاري تركي اسمه بالكامل جنكيز أمين حسين ضاغجي، ولد في قرية تسمى قزيل طاش تابعة لـ "يالطا" في القرم. ولد عام ١٩٢٠م، وكان الوقت مجاعة.

كبر جنكيز ضاغجي وبلغ الثانية عشرة من عمره وشاهد بنفسه احتلال الروس لأرض أبيه الفلاح المتوسط الحال، وتحويل أصحاب الأراضي الكبيرة إلى (عبيد) في المزارع التعاونية. وألقي القبض عليه ونفي مع مجموعة كبيرة من أهل قريته، كان بينهم أعمامه. وبموجب قرار حكومي حرم بقية أفراد أسرة جنكيز من العمل [١١].

---

[٩] المرجع السابق.

[١٠] محمد حرب، اغتيال مصطفى جميل القرمي وعلاقته بمأساة مسلمي القرم، مرجع سابق ذكره.

[١١] Osman Koca Kaplan, Gengci, Dagci, nin Siirlerine dair, Hareket, S. 6, Istanbul 1979.

وكان جنكيز قد تلقى تعليمه الابتدائي في قريته قيزيل طاش، ثم تعليمه الإعدادي في مدينة آق مسجد (الجامع الأبيض) والتحق بمعهد التربية ولم يكمل الدراسة به نظراً لتجنيده في القوات المسلحة الروسية عند قيام الحرب العالمية الثانية.

حارب جنكيز في جبهة أوكرانيا ضد الألمان. ثم أدخله الروس مدرسة الضباط في أوديسا وتخرج فيها برتبة ملازم دبابات عام ١٩٤١م. وفي نفس العام أسره الألمان. وفي السنوات الأخيرة من الحرب تخلص من الأسر ولجأ إلى الحلفاء واستقر في انكلتره مع زوجته البولندية وابنته الوحيدة، ثم افتتح مطعماً في لندن.

وتدور روايات جنكيز ضاغجي حول مأساة وطنه السليب، القرم، وأحلام شعبه في العودة إلى بلادهم. وله عشر روايات هي مع تاريخ صدورها:

١- السنوات الرهيبة (١٩٥٦)

٢- الرجل الذي فقد وطنه (١٩٥٧)

٣- هم أيضاً كانوا بشراً (١٩٥٨)

٤- سنوات الموت والرعب (١٩٦٢)

٥- هذه الأرض كانت أرضنا (١٩٦٦)

٦- الحياة في الكولخور (١٩٦٦)

٧- العودة (١٩٦٨)

٨- الشاب تيموجين (١٩٦٩)

٩- الأطفال المشنوقون على أغصان شجر الزيتون (١٩٧٠)

١٠- الشارع المصاب البرد (١٩٧٢)

وقبل أن يكوِّن جنكيز شخصيته الأدبية المستقلة كان متأثراً بكل من: تولستوي، وديستويفسكي ونكرا سوف وتورجنيف من الروس، وبكل من جويس وبروست وشتاينبك من الغرب.

إن في روايات جنكيز ضاغجي "أبعاداً عالمية مثل اكتساب صفة الثورة على الظلم وبحث الإنسان عن نفسه". كما أن الواقع الذي عاشه جنكيز ضاغجي وعبّر عنه في رواياته "يضفي على أعماله الأدبية قوة، ويدفع القارئ دفعاً إلى الإيمان بها"[١٢].

محمد حرب

---

[١٢] عبدالله بزدن، المرجع السابق، نفس الصفحات، وعثمان قوجه قابلان، مرجع سبق ذكره.

القسم الأول

المدخل

- اسمي صادق، صادق طوران، وأنت؟ ما اسمك؟

أجبته بقولي:

- اسمي جنكيز.

كانت شخصيته تماثل اسمه، شخصية ذات أبعاد عريضة ومغزى عميق، كان من السهل قراءة آثار الماضي العميقة مسطورة على وجهه. وفي عينيه مسحة ألم متخلفة من الأعوام الماضية.كان -بمنكبيه العريضين وصدره الفتي- يترك في الإنسان شعوراً بأنه يحمل على كاهله عبء حياة ثقيلة شديدة الوطأة. كان يبدو كمن يبكي بكاءً حاراً وقد ألقى بنفسه على كرسي، أمام باب الشارع وقد أخذ رأسه بين يديه. مشيت لأجلس بجواره. رأيته كمن يفكر في أشياء ويتذكر أشياء، ويفعل هذا بينما يستغرق في التفرج على خطوات السائرين أمامه. فكرت فيما بيني وبين نفسي فيما إذا كنت سأستطيع التوفيق في حمله على التكلم والإفصاح عن ألمه. فإذا فعل هذا فقد يستريح. وبينما كنت أقترب منه، قلت له بصوت في غاية الهدوء:

- يا صادق، هل تذكر أحمد الفلاح؟ زميلنا الذي كان يؤدي الخدمة العسكرية معنا؟ لم يرفع صادق رأسه، لكنه قال:

- أحمد؟ المرحوم أحمد؟ أمن المعقول أن أنساه؟ لا أنسى أيضاً، أننا دفناه بالقرب من برفومايسكي كانت إصابة أحمد بالغة، وجرحه غائراً عميقاً، ولم ينج منه. حملته على الكلام فلقد حدثني طويلاً عن فواجع الحرب ومآسيها. وحدثني عن نفسه وعن عائلته، كما سألني عن أحوالي، وعن أعمالي.

كان المساء قد أخذ في الهبوط، والظلال السوداء المحتمية بأسطح روما تهرب من أفق الغرب المحمر، لتهبط في بطء متجهةً نحو الشوارع.

مدّ يده نحوي وصافحني وقال لي:

- لو تزورني غداً صباحاً، فسأحكي لك ...

شددت على يده قائلًا له بأني سأزوره. افترقنا. عدت إلى الفندق. أنرت مصباح حجرتي الهادئة الموحشة. مددت يدي إلى كتاب مختارات من الشعر التركي، وكان الكتاب فوق المنضدة.ألقيت بجسمي فوق السرير وفتحت الكتاب، وأخذت أقلب أوراقه

ببطء وإذا بعينيَّ تتوقفان أمام بيت من الشعر يقول: "أنا تركي، وأنا عدوك، حتى لو لم يبقَ من أمتي إلا أنا فقط" . أغلقت الكتاب، وأغلقت عيني ورحت أفكر في صادق. كنت أقول

لنفسي: إنّ صادق رجلٌ ملّ دنياه، وخاف البشر. كنت أفكر في صادق بينما كان خياله يتراءى لي أمام ناظريّ. صادق ... هذا الرجل الخائف ماذا يمكن أن يفعله بعد هذا؟! وأنا...؟! ماذا سيكون مصيري؟ لست أنا فقط، بل نحن كلنا ... نحن الذين خرجنا من هذه الحرب، أحياء. كيف كنا؟ وماذا سنكون؟ ما الذي كان في أيدينا أن نعمله؟ وماذا ستكون نهايتنا.

وفي اليوم التالي، ذهبت إلى بيته. فتحت لي الباب امرأة عجوز تبدو في الثمانين من عمرها، بل حتى في المائة. ضحكت هذه المرأة بوجهها المتغضّن، ضَحِكَت وكأنها تخفي عني شيئًا.بادرتها بقولي:

- بون كيورنو سينورينا.

ردّت عليّ قائلة: بون كيورنو.

ثمّ مدّت إليّ يدها بلفافة من الورق كانت تخفيها وراء ظهرها، وقالت لي:

- سينيور صادق ترك لك هذه المجموعة من الأوراق.

- وأين هو؟

- ذهب، ذهب ولن يعود.

- تبادلنا النظرات لحظات دون أن نلفظ بكلمة. ثم مددت يدي وأخذت اللفافة.

- كراسيا سينورينا. آري فيدرسي.

- بريكو، بريكو – آري فيدرسي سينيور.

وأغلقت المرأة الباب. لكن كلماتها كانت في أعماقي واقفة تتردد .. ذهب ولن يعود. ولما ابتعدت عن البيت بمسافة، فتحت اللفافة، فوجدت بداخلها أربعة دفاتر. فتحت الدفتر الأول ونظرت إلى صفحته الأولى. وجدت عليها كلمة (مذكرات) مكتوبة بأحرف كبيرة وتحتها توقيع باسم طوران.

تصفحت أوراق هذا الدفتر على عجل. في صفحة من صفحاته توقفت عيناي على عبارة هزّتني، أرعبتني، أفزعتني. تقول العبارة: "أدركنا يارب فإننا ننتهي، إننا في طريقنا إلى الزوال" . وضعت الدفاتر تحت إبطي، وأخذت طريقي إلى الفندق، سرت بخطوات إنسان هرم متعب أعياه الإجهاد، بحثت في اليوم التالي عن صادق، في كل مكان، لكنني لم أعثر له

على أثر. أين ذهب؟! وماذا حدث؟! طال تفكيري ولم أتوصل إلى حل.

مرت على هذه الحادثة سبع سنوات. كنت في ذلك الوقت في لندن. وفي الخارج كانت منازل المدينة رطبة موحشة مظلمة. في ذلك الوقت أيضاً ساد حجرتي مساء حزين.

دخلت زوجتي عليّ وفي يدها رسالة وهي تقول:

- لك رسالة!

فتحت الظرف، كانت الرسالة من صديقي ميرزا صبرسكي، وهو مسلم من تتار بولندا، وكان المقام قد استقر به بعد الحرب في الأرجنتين. تحدث صبرسكي في خطابه حديثاً طويلاً عن حياته وأحواله ومعيشته، ثم ختم رسالته هذه، بالعبارة الآتية: "تلقيت خبراً من أوروجواي مؤداه أن أحد مسلمي القرم التتار واسمه صادق طوران، وكان يعمل هناك في أعمال الغابات الشاقة، قد توفي إلى رحمة اللّه. ومع أني لا أعرفه ولا أعرف عنه شيئاً، إلا أني أدعو اللّه له بالرحمة، فقد مات غريباً عن بلاده" .

سقطت الرسالة من يدي، ووقعت على الأرض. تدلت يداي إلى جانبي، وأنا بعد، في مقعدي الذي أجلس عليه. أحسست وكأن لكمة سددت إلى حلقي، أحس بالاختناق، لا أستطيع الكلام. ثم أخذت أفيق تدريجياً، ثم تذكرت "صادقاً" بين دموعٍ انهمرت من مآقيَّ فجأة، يا لك من دنيا! صادق طوران! من أين أخذه قدره وإلى أين ألقى به نصيبه.

وها هي ذي مذكرات صادق طوران، أعيد قراءتها باكياً بلوعة وحرقة من أعماقي:

(١)

"غادرت بلادي آخر مرة في خريف عام ١٩٤٢. كان فراق وطني أمراً صعباً ومرًّا. كنت أحس بأنني لن أستطيع العودة إليه مرّة أخرى. في المحطة، كانت أمي، وكان أبي والأقارب قد حضروا لوداعي. وكنت أنظر إليهم من مقصورتي بالقطار، وأفكر في أيامي الحلوة، والمرّة أيضاً. كانت هذه هي المرّة الأخيرة التي أراهم فيها. رفعت أمي يدها اليمنى نحوي، وكان على كتفها شالٌ طويلٌ أطرافه متدلية. تناولت أمي طرفاً من هذا الشال، وأخذت تمسح به دموعها المنهمرة من عينيها. أطلق القطار آخر صفاراته. ثم أخذ دخان أسود يخرج من مقدمة القطار ليحجب الرؤية بيننا. ومن نافذتي بالقطار ألقيت نظرة على أرض الأجداد، التي سلبوها منا. أمعنت النظر إلى الأرض طويلاً. كانت هذه الأرض السليبة - وهي تحت عجلات القطار- تشدو بأنشودة السنين الدامية، استمعت إلى هذه الأنشودة ساعات وساعات. كنت أتضرع إلى الله، داعياً، قائلاً:

- يا رب! لا تحرمنا من هذي الأرض، نريد أن نبقى فيها، ونعيش فيها، حتى لو نحيا فيها جياعاً عراة، حتى إذا متنا أيضاً، فلنمت في هذه الأرض. إنها وطني يا ربنا. إن هذه الأرض هي أرضنا، وهي بلادي، مهما اغتربت في أي بقعة كانت في هذه الدنيا، يا رب! كن معنا طالما أننا نعيش.

* * *

كنا -وقت حلول المساء- نلعب لعبة القباطنة، نرفع عموداً فوق ربوة صخرية كانت بجوار القرية، ونفتح شراعاً، فإذا بصوت أمي من بعيد ينادي، فقلت لأخي الصغير:

- هيا يا بكر، فأمنا مقبلة نحونا، والليل أقبل!

لكن بكراً لم يكن عادةً يستمع إلى كلامي، بأذن صاغية، وكان معروفاً بأنه أكثرنا عناداً. استمرّ بكر في اللعب دون أن يأبه بشيء. وبعد فترة تتراوح ما بين عشر دقائق وربع ساعة، ظهرت أمي على الربوة المقابلة، كانت تهمهم، وكانت تقول بصوتٍ عال:

- يا لكما من ولدين! لا حول ولا قوة إلا بالله، سأضربكما الليلة ضرباً مبرحاً بديلاً عن طعام العشاء. هيّا إلى البيت!

لم يكن بكر يشتهي وليمة العلقة والضرب بالعصا. وسريعاً كان ينطلق من على الربوة جارياً، وكنت بدوري أتبعه جارياً أيضاً. كانت أمنا تصيح من خلفنا قائلة:

- واحد منكما يدخل الأغنام إلى الحظيرة، ويأتي الآخر بالماء إلى أبيكما. وكان بكر يأخذ اتجاهه نحو مجموعة البيوت المقابلة ليأخذ الأغنام، كان يتجه إلى الرعاة. أما أنا فكنت آخذ الإبريق من بيتنا، وأعبر المقابر؛ لكي أذهب إلى عين ماء تسمى "عين محرم الخباز" . كنت اقتربت من العين فإذا بي أرى على بعد مائتي عربة نقل مغلقة سوداء واقفة أمام "التعاونية". صادفت في الطريق عساكر مسلحين بالسونكي، وقد تسبب منظرهم في إدخال فزع غريب في نفسي. ملأت الإبريق سريعاً من عين الماء. وكان لا بد أن أكون في البيت قبل أن يعود أبي من الحقل. كان من عادتنا أن يكون الماء البارد موضوعاً على مائدة الطعام كل مساء في وجبة العشاء. أدخل أخي بكر الأغنام والماعز إلى الحظيرة، وقامت أمي بكنس البيت وتنظيفه. طبخت أمي الطعام وأعدت المائدة. نحن الآن في انتظار والدنا. يوزع ليل الصيف، من خلال النوافذ المفتوحة، هدوءاً يمزق القلوب، على حجرات البيت. تبدو أمي مهمومة تنظر بيم الفينة والفينة إلى الباب. الملاعق في أيدي الصغار، وكلنا ننتظر الأب. أذكر جيداً أنني كنت قد جعت جوعاً شديداً فمددت يدي نحو طبق الخبز. قضمت لقمة ولكنها في فمي، فإذا بأمي تنظر إليَّ في حدّة، ولكنها لم تنطق

بكلمة. وفي نفس هذه اللحظة بالذات، إذا بشخص ينطق بصوت مهموس كأنه يخاف أن يعكر صفو سكون الغرفة، ويقول:

- يا خالة! ... يا خالة!

ردت عليه أمي قائلة:

- مَن أنت؟! ماذا حدث؟! وماذا تريد؟!

- لا أستطيع أن أقول لك كل هذا من بعيد يا خالة! تعالي! نهضت أمي وسارت نحو النافذة. وبعد دقيقة أو اثنتين اختفى الرجل الذي كان يتحدث من خلف النافذة؟ أما أمي فقد تجمدت في مكانها وكأنها قطعة من حجر لا تستطيع قولًا ولا حراكًا. اقتربت نحوها بخوف مرير، أحسسته لأول مرة في قلبي الطفل، وقلت لها:

- ماذا حدث يا أمي؟ أين أبي؟ لماذا تأخر؟

- أبوك لن يأتي؟ اقتادوه إلى السجن، إنه لن يأ ...

- لم تكمل أمي كلامها، ذلك لأنها اختنقت بالدموع التي ملأت ما بين أهدابها، ثم انهمرت هذه الدموع فجأة، ومرة واحدة، من فوق خديها، إلى أسفلهما.

تحولت اللقمة الوحيدة التي أخذت في مضغها منذ هنيهة، إلى سمٍّ زعاف في أمعائي.

مستحيل أن تغيب من أمامي صورة أمي بشفتيها المرتعشتين وخدّيها اللذين كانت تجري عليهما الدموع. لم تستطع أمي فعل شيء غير ترديد عبارة: "لن يأتي!" وأخذت تجثم على الأرض رويداً رويداً. أما نحن فقد احتضن أحدنا رقبتها، وأخذ الآخر بطرف ردائها. وأخذنا ننظر إلى عينيها الدامعتين. كانوا قد

قبضوا على رَجل البيت وأودعوه السجن ... ولرجل البيت، أولاد وأطفال بالإضافة إلى أمهم المتمزقة القلب.

* * *

أذكر جيداً مبنى المدرسة، وكان مبنى لطيفاً مسوّراً بأسوار من حجر، وله سقف من صفيحٍ أحمر، وهو يأخذ مكانه بين بيوت صغيرة تغطيها أسقف ترابية، وكنا نحن الأطفال نفرح ونلعب ونضحك مثل الطيور التي تزقزق بين أغصان الأشجار وبين الأوراق الخضراء في الربيع. كنا ننسى قسوة الحياة الموجودة في بيوتنا منذ الدقيقة التي ننطلق فيها نحو المدرسة لنعبر عتبتها. كانت معلمتنا صفية: امرأة طويلة القامة ذات وجه أبيض دقيق الملامح، وكانت طيبة القلب، وهذه الطيبة كانت تعكس على وجهها جمالاً روحانياً. وكنت أكنّ لمعلمتي صفية حباً خالصاً. لكن، حدث ذات صباح، أن كانت معلمتنا صفية مختلفة معي تماماً. عندما أقبلت علينا في ذلك اليوم ودخلت علينا الفصل قمنا نحن الأطفال بتحيتها كالعادة في كل مرة، قمنا، وقفنا، ثم جلسنا. لكنها لم تنظر لأحد ولم يكن وجهها يبتسم. اقتربت مني، وبعد أن وقَفَت لحظات لم تتكلم فيها نادتني قائلة:

- يا صادق!

قمت واقفاً، أما هي فقد استمرت في حديثها إليّ وهي تنظر إلى حديقة المدرسة من خلال النافذة المفتوحة، قالت:

- يا صادق، أنت ممنوع من دخول المدرسة بعد اليوم، ذلك لأن ... هل فهمت يا صادق؟

قلت لها:

- فهمت.

أحسست لحظتها أن معلمتنا صفية أيضاً مثل مدرستي، قد انتزعت من قلبي انتزاعاً. جمعت كتبي، وخرجت من الفصل، وأصبحت المدرسة في نظري مكاناً يثير الخوف في نفسي.

وعندما كنت بعد ذلك أريد الذهاب إلى بيت عمتي، كنت آخذ طريقي لفًّا من عند جداول الماء ومن بين الحدائق بدلاً من الطريق الذي يمر بالمدرسة. وبعد أسبوعين من طردي من المدرسة، كنت عائداً من طريق عين ماء محرم الخباز، وإذا بي أسمع صوتاً من خلفي يناديني ويقول:

- صادق! قف! قف يا أخي!

وقفت. كانت معلمتنا صفية هي التي تكلمني. أخذتني رعشة. خطر ببالي أن أرمي الإبريق من يدي وأجري هارباً. ولكن! كان بعضنا يقرب من بعض لدرجة أني كنت أحس بها وبتنفّسها الدافئ في وجهي.

- دقيقة واحدة يا صادق! دع الإبريق على الأرض.

نفذتُ ما أمرتني به معلمتي. قامت بدس مجموعة من الأوراق النقدية في يدي، ثم قالت:

- أعط هذه لأمك يا صادق، ولكن إيّاك أن تضيعها.

ثم تركتني ومشت. ولم أرَ معلمتنا صفية بعد ذلك. وبعد شهرين حلّ بالقرية بعض القازاقيين. وقد أخذوا عند مغادرتهم القرية، نصف أهلها، وكانت معلمتنا صفية من بين

هؤلاء.

حلّ الشتاء فجأة في ذلك العام، كان البرد شديداً مثل السم. نزل البرد وغطّى الجليد الأرض. كانت المنازل تقبع في هدوء عجيب مستمر، وكان الجليد

يتدلى من سقيفتها الخارجة عن مستوى المباني، لكن البحر كان يضرب كالمجنون بموجاته على الصخور. أما النسوة فكنّ يجلسن أمام المدافئ المنطفئة في البيوت الموحشة، وزوجات أبنائهن يشاركهن البكاء، والجميع في انتظار الصباح.

جاء إلى القرية مَنْ يحمل الخبر الآتي: "سيُنقل المسجونون من يالطا إلى آق مسجد" نمت في ذلك المساء، متأخراً. والعاصفة الثلجية في الخارج تعوي بلا توقف. كان إخوتي

الصغار يغطون في نوم عميق. تبكي أمي أمام المدفأة، وعلى عينيها منديل أبيض كنت أنا في السرير أتوسل إلى الله قائلًا: "يا رب! هات لي أبي".

سكنت الريح في الصباح. وقامت أمي من أمام المدفأة، التفعت بشالها القديم وخرجت تمشي في اتجاه شارع آق مسجد وهو شارع يمر بجانب منازلنا. وتبعناها أنا وأخي. النساء يتلفعن بالشالات، الأطفال يرتدون ملابسهم القديمة المرقعة أذرعهم نحيفة كالعصي. كان لون الأطفال بنفسجياً في هذه الليلة المقمرة الندية. والجميع ينتظرون سيارات النقل الكبيرة على الطريق المرصوف! انتظرنا طوال اليوم في جو صعب شديد البرودة. وقبيل المساء، جاء شخص من وسط الطريق متجهاً نحونا وهو يجري ويصيح قائلًا:

- إنهم قادمون!

وإذا بكلمة "قادمون" هذه، تأخذ شكل موجة صوتية انتقلت من شفة إلى شفة ومن فم إلى فم ومن قلب إلى قلب. وأعقب ذلك أدعية وبكاء وعويل وصراخ. زوجة الحاج مصطفى كانت تقف صامتة منذ برهة، وفجأة إذا بها تتمدد على قارعة الطريق المرصوف وأخذت تشد شعرها وهي تصيح وتضرب رأسها بالأرض قائلة:

- يا حبيبي يا حاج مصطفى! يا زوجي الطيب! ماذا اقترفنا من ذنب؟! ما هي جريمتنا؟! ماذا فعلنا؟! يا رب! يا رب!

اندفعت النساء الشابات نحوها. سحبنها من على قارعة الطريق. ظهرت سيارات النقل من بعيد. عجلات بسلاسلها قد غطاها الجليد. كانت السيارات تقترب وهي ترسل إلينا أصوات احتكاك عجلاتها بالطريق. أصوات أخرى اختلطت بصوت زوجة الحاج مصطفى. وصرخات أخرى تداخلت مع صرخاتها ...

- يا زوجي حسين. يا حبيبي أحمد. يا ابني. أيّ ذنبٍ جنيناه ... النجدة!

أما أنا فكنت أبحث عن أبي وسط المسجونين المصفوفين داخل العربات التي تمر من أمامنا لكني لم أره. كانوا كلهم يشبه بعضهم بعضاً. كلهم ملتح. كلهم نحيل ضعيف كما كانوا كلهم مخيفين ... لكني سمعت صوت أحدهم يظهر من بين الأصوات -عندما كانوا يمرون أمامنا- ينادي هذا الصوت باسم أمي ويقول:

- لا تبكِ يا فاطمة! لا تبكِ! ادعي لي! دعواتك يا فاطمة!

كان هذا الصوت - غالباً - صوت أبي، أما أمي التي سمعت هذا الصوت، فقد اختنقت في بكاء متحشرج مختنق وهي تضرب قبضات من يدها على صدرها.

وذهب المسجونون. أما أهاليهم -وقد تركوهم من خلفهم- فقد عادوا إلى منازلهم. هذه المنازل التي أصبحت الآن ولا عائل لها. هؤلاء الأهل يعودون إلى منازلهم يتامى وهم يكنسون جليد الشوارع بأقدامهم الملفوفة بقطع من القماش القديم. عادوا، عادوا بأثوابهم البالية المرقعة. عادوا إلى مدافئهم ومواقدهم المنطفئة.

* * *

سمعنا من السائقين أن أبي قد أخلي سبيله. لكنه لم يعد للقرية. أما نحن فقد خرجنا بدورنا من القرية بعد شهرين ورحلنا إلى آق مسجد. مررت فيما بعد وكان ذلك في شتاء عام ١٩٣٩ بقريتنا، قبل ذهابي إلى الخدمة العسكرية. فوجدت بيتنا في القرية تسكنه عائلة روسية فرونجلية. وقد سقطت أشجار البلوط التي كانت

شامخة أمام بيتنا، والسلم الخشبي قد انكسر. وكانت هذه العائلة الروسية تستخدم عتبة بابنا بديلًا لخشب الوقود.

أخذ والدي بعد خروجه من السجن يطوف عاطلًا عن العمل بالشوارع مدة أسبوعين، وبدأ الجوع يؤثر فيه. رآه أحد المسلمين ذات مرة وهو ينام فوق الحصى والتراب في السوق، فرقَّ لحاله، وأخذه إلى داره، وقدّم له الطعام وأعطاه ملابس. وكانت أسرة هذا الرجل المسلم كثيرة العدد، ولا يكاد منزله يسعهم، لذلك أعطى أبي كوخاً ملاصقاً لداره. فقام أبي بمساعدة هذا الرجل الطيب بتغطية سقف الكوخ بالصفيح، وقاما بفتح نوافذ ونظفاه من الداخل. ثم أرسلا إلينا خطاباً يقولان لنا فيه "أن احضروا" فذهبنا. وقبل أن ندخل منزلنا هذا، جلس أبي وأمي على عتبته وأمسك كل منهما بيد الآخر، وأخذا في بكاء طويل.

وجد أبي عملًا، وقمت أنا طوال الصيف ببيع الماء في السوق، عند مجيء الصيف كنت أبيع اللبن. كانت الحياة صعبة، لكنا لم نكن نريد شيئًا كثيراً. لقمة في الصباح ولقمة في المساء مع كوب من الماء. وأحياناً حساء البقسماط الجاف كان يكفينا. لم نكن نشكو. وعلى فرض أننا أردنا الشكوى: فمن من؟ ولمن؟

هل نحن فقط الذين كنا جياعاً لا نملك الخبز، ولا نملك بيتنا؟! الحمد لله لقد انقضى الصيف. لكن شتاء هذا العام كان بالنسبة لنا مصيبة! الرياح جامحة تأخذ بأغطية سطح الكوخ الصفيحية لتلقي بها. نفد الوقود: لا خشب، لا حطب، لا فحم. أحضر جارنا محمد آغا آخر ما كان عنده من الروث الناشف. أوقدناه طول اليوم. نفد. بل وحتى لم يكف، لأننا لم نستطع أن نسخن عليه كوباً من الماء، للطفل الصغير. لكنه لم يكن يستطيع عمل شيء غير الدعاء لنا. كان يدعو الله لنا فيقول:

- ساعدكم الله وكان في عونكم.

ذهبت ذات يوم مع أخي بكر لنسرق فحماً لنستخدمه وقوداً للتدفئة، وبينما نحن نستل قطع فحم من عربة، أمسكوا ببكر، أما أنا فجريت، هربت. قام حوالي ثلاثة أو أربعة أشخاص وكانوا سائقين بضرب بكر. احمر وجهه احمراراً شديداً. ما أظلم الإنسان يا ربي! في سبيل بعض قطع من الفحم، يضربون طفلًا صغيراً في العاشرة من عمره هذا الضرب الفظيع! دفن بكر رأسه الجريح بين ذراعي أمه. أما والدنا فقد أدار رأسه نحو الحائط، وأخذ كلاهما في البكاء: أبي وأمي. أما الصغار فقد لووا رقابهم واتجهت أنظارهم: مرة نحو أبي، وأخرى نحو أمي.

ليست لدينا القدرة على محاربة عدونا المسلح الذي أسرنا وقذف بنا من بيتنا ووطننا وديارنا، ونحن على هذه الحالة من البرد والجوع. وماذا في أيدينا غير المعاناة والدعاء أن يكون الله في عوننا؟!

في أوائل شهر إبريل، مرض اثنان من إخوتي الصغار، مرة واحدة. ودَفَنَّا (أسماء) المسكينة العزيزة على قلوبنا، وكان ذلك في نهاية إبريل. بعد ذلك بأسبوعين بالضبط، أخذنا (صبري) ذا الوجه الملائكي الصغير، والشعر المجعد لنضعه بجوار أخته (أسماء). وبذلك لم يبقَ في العائلة من الأولاد إلا بكر وأنا.كنت في السادسة عشرة من عمري. وأمي تريد أن تبعث بي إلى بلدة آي واصل. كان لعمدة هذه البلدة واسمه صبري ابنة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت أسرتها تريدني أن أتزوجها، لكن كنت والفتاة، ما زلنا صغيرين، وأمي تريد أن تتعجل هذه المسألة وكان أبي يعارضها في ذلك فقد كان أبي يعقد عليَّ آمالًا كباراً. كان يريدني أن أدرس وأتعلم. أخذني النعاس ذات مساء فجلس أبي يتحدث مع أمي قائلًا:

- لن أرسل صادقاً إلى القرية ... إنه لم يولد ليعمل في الكولخوز.

غيّرت أمي رأيها بعد ذلك عندما جاء الربيع. وقد حصلت على عمل في المدينة، واستطاع أبي الحصول على عمل. وفي أول شهر مايو، أحضر لنا خالي منصور، من القرية، كيساً من الدقيق. فصلح بذلك حالنا.

وذات ليلة من ليالي الصيف الحارّة، كنت عائداً من عملي متجهاً إلى البيت وكنت أشعر بسعادة. قابلت والدي عند أول شارع القنطار، فقال لي والدي:

- تعال يا صادق! تعال ولنبعد من هنا إلى الناحية الأخرى من الشارع، فهي أكثر هدوءاً وخالية من الناس، ولأقول لك شيئاً. وضع يده على كتفي وأخذنا نسير نحو مقهى "جارداق" ، توقف أبي لحظة أمام المقهى ونظر إلى عينيّ، كان والدي في هذه الليلة يبدو وكأنه ازداد حَدَباً قليلًا في ظهره. لكن عينيه كانت تلمعان بالفرحة والفخر.

قلت له:

- ماذا يا والدي؟!

- شيءٌ هام، لكني أريد موافقتك أوّلًا قبل أن أحدثك فيه. موافقتك شرط لكي أتحدث.

واستمر والدي في حديثه مبتسماً.

- هل توافق؟!

قلت له وأنا أضحك:

- أوافق يا والدي.

- كيف حال عملك؟

- لا بأس به يا والدي. قال لي المعلم فاضل إنه سيطلب من صاحب المطعم، رفع مرتبي الشهري من خمسي روبل إلى ستين. باع بالأمس نصف كيس دقيق، فأعطاني نصف المبلغ.

- أنا لا أريد نقوداً بهذا الشكل.

- وأنا أيضًا لم أكن أريد قبولها، لكنه وضعها لي بالقوة في يدي. يقول إن هذا مال الحكومة. إن له فلسفة خاصة يا أبي، إنه يقول ما دامت الحكومة حكومة عمال وفلاحين، إذن فالمال والبضائع لا بد أن تكون للعمال والفلاحين.

- على كل حال، والمهم، أنني أريدك أن تترك هذا العمل.

- أصحيحٌ ما تقوله يا أبي؟!

- نعم صحيح.

- ولكن ماذا عن الستين روبل في الشهر؟! أتمزح يا أبي؟!

- أريدك بالفعل أن تترك عملك هذا.

- يعني لو كانت النقود ... أقصد إذا كان ثمن القمح هو ...

- لا يا صادق، فهناك شيء آخر.

- وماذا بيدي أن أفعله. أليس عملي هذا أفضل من رمي الفحم بالمقذاف إلى العربات في مخازن الفحم؟

- أفضل طبعاً، لكن هناك أعمالاً أفضل.

سكت والدي، نظر إلى وجهي. دمعت عيناه ولمعتا بابتسامة ظهرت على طرفي شفتيه، وقال:

- أريدك أن تتعلم يا صادق. أريدك أن تدرس وتصبح رجلًا. أنت تعلم أنني في حاجة إليك، ولكن لست أنا فقط المحتاج إليك. كل الناس ينظرون إلى الشباب مثلك وكلهم أمل. كل الناس في حاجة إليكم.

سكت والدي مرة أخرى، نظر إلى وجهي ثانية.كنت أدرك أن مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقي. سرنا واستمر أبي في التحدث معي قائلًا:

- المصائب التي حلت بنا، عانى الآخرون منها بدورنا. قاسينا كلنا ألم المحنة شعباً وأمة يا صادق. إذا لم يحرر الأمة شبابها فمن يحررها؟! كل آمالنا معقودة عليكم. إني أدرك أنك متيّمٌ جداً بالتعلم. كنت الأول في كتاب القرية قالت لي السيدة صفية، كثيراً: "اهتم بتعليم صادق" ولكن ماذا كان بيدي، فما أفدح ما مرّ بنا من مصائب في السنتين الأخيرتين. لكن الوضع قد تغير الآن ولله الحمد. أحس بأنني قوي.

- حسناً يا والدي، وهل يقبلونني في المدرسة؟

- نعم. إني ذهبت إلى المدرسة الإعدادية في (قياباش) وتكلمت هناك مع نيازي أفندي البالطاوي ناظر المدرسة. وهو من الجيل القديم، كلمته بصراحة، قلت له إنني كنت محبوساً. نبّه عليَّ بألّا أتحدّث مع أحد في ذلك، وقال لي أن أرسلك إليه في بداية العام الدراسي. سيعقد لك امتحاناً، فإذا نجحت فيه، فسيدخلك الصف السابع، إياك أن ترفض يا صادق، حذار من هذا. نيازي أفندي وافقني كذلك في أن الأمة في حاجة إلى شبابها المثقف. وافق على صحة رأيي.

توقف والدي عن الكلام، ثم قال:

- إيه! ماذا تقول؟!

سكتُّ ولم أنطق بحرف. أما هو فكان دائب النظر في عيني. مسكين والدي! كان واضحاً أنه يرضى بتحمّل كل أثقال الدنيا وآلامها ومصاعبها على كتفيه. لكنه

كان ينتظر موافقتي. وكان عليه بعد ذلك تحمل كل شيء: العمل من الصباح حتى منتصف الليل، يجوع ليؤكلني، يكدّ ليريحني، وذلك في سبيل هدف واحد: أن أكون رجلًا. في تلك الليلة كنت أقرأ هذا في عينيه.

* * *

انتقلت مدرسة قياباش، في صيف عام ١٩٣٧ إلى شارع قراييم في مبنى مكوّن من من ثلاثة طوابق، كان المبنى أبيض اللون، نظيفاً ممتازاً. ومن نافذة الفصل كنا نرى مئذنة مسجد طوقال، وهي مئذنة دقيقة رقيقة ترتفع إلى السماء كما لو كانت تخبئ في داخلها أسرار كل الأسطح المجاورة. لا أدري لذلك سبباً. لكنني كنت أدرك أنني كنت الوحيد تقريباً من بين زملائي في الفصل، الذي يسعد جداً بهذه المئذنة. وأحياناً كنت أثناء الدروس أنظر

إلى المئذنة وأستغرق في التفكير. وأحياناً كنت لا أسمع حتى سؤال معلمنا الذي يسألنيه. في ذلك الوقت كان سليمان -زميلي في نفس المقعد- يلكزني برسغه أن أنتبه. كنت كلما أنظر إلى المئذنة أحس بالإيمان يغمرني، وكانت الحياة تملأ المنازل المجاورة لها. لقد كنت جزءاً من تلك المئذنة، جزءاً منها بروحي، رغم أن دروسنا كانت كلها ضد الدين، ورغم أنهم كانوا يعلموننا في المدرسة الإلحاد والفكر الشيوعي. كان هناك رباط موجود في كل بيت وفي كل سطح وفي كل عتبة منزل، يربط كل الناس والحياة، بل وكل الوجود بتلك المئذنة. هذا ما كان يخيّل إليَّ. كان ذلك في العام الأخير في المدرسة والامتحانات تقترب. وكنت اتفقت مع زميلي سليمان على أن ندخل معهد الطب في مدينة آق مسجد، إذا نجحنا في الامتحان وبمعنى أصح إنني ضغطت على سليمان ليوافق على هذا القرار، لأنه كان يودّ دخول مدرسة الضباط لكن صداقتي المخلصة لسليمان انتصرت على رغبته هذه. أذكر جيّداً أننا كنا ذات يوم دراسي وبالذات في حصة الجبر أن دق الجرس فإذا بمقاعد التلاميذ تطقطق، وكذلك أدراجها. خرج التلاميذ واتجهوا إلى الممر، ورويداً

رويداً أخذ الفصل يخلو من التلاميذ، ولم يبقَ أحدٌ في داخله إلا أنا. وبجانب النافذة، وفي هدوء عميق كنت أنظر إلى مئذنة جامع طوقال، وإذا بصوت بجانبي يقول:

- صادق! صادق!

فالتفتُّ، فإذا بسليمان.

- ماذا هناك؟ وإلى من تنظر في الخارج؟!

- لا أحد. الشمس محرقة لدرجة أن الشوارع خلت من الناس.

- لا، إن أحدهم هناك.

- أين؟!

- على مئذنة مسجد طوقال.

- إن المسجد "مشمع" بالشمع الأحمر منذ أشهر، كما أن أبواب المسجد مغلقة بالمسامير.

قال:

- انظر جيداً.

نظرتُ هناك بعيداً ... نحو مئذنة مسجد طوقال، وهو بين خضرة الحديقة حيث تمتد المئذنة نحو السماء كإبرة دقيقة الصنع.كان سليمان محقًّا. كان في المئذنة شخصان. وبعد ثلاث دقائق تقريباً، اختفيا عن الأنظار. التفتُّ إلى سليمان، وقلت له:

- هذه أول مرة أرى إنساناً في مآذن قرية آق مسجد. إن الأذان ما زال يتردد في القرى حتى الآن، لكن في آق مسجد ...

قال سليمان بصوت غليظ، وقبل أن أتمّ كلامي:

- لا عليك! ... إنهما لم يصعدا المئذنة ليؤذنا!

- إذن فلم؟!

- إنهم سيهدمون المسجد.

انغرست كلمة "سيهدمون" هذه، في قلبي كالسكين. أخذ جسمي كله يرتعد، فأدرت ظهري إلى النافذة كما لو كنت أود التخلص من هذا الخوف الذي سيطر على قلبي فجأة.

- كفاك هراء. هل هدموا مسجداً من قبل حتى يهدموا مسجدنا هذا؟

- نعم يهدمونه، ولم لا؟ عندما كنت قادماً إلى المدرسة صباح اليوم، رأيتهم يربطون المئذنة بسلاسل حديدية، وكانت هناك آلة ضخمة ترابط في حديقة المسجد.

- من هم الذين تتحدث عنهم؟

- الروس.

كان سليمان معلقاً نظره بالمسجد. أما أنا، فلسبب غير معروف، كنت أعاود تصوري للمساجين وهم يمرون أمام منزلنا في شتاء عام ١٩٣٢. كنت وكأنني أسمع كلمات أبي صادرة من عربة النقل التي كانت تقل المساجين. كلماته ترن في أذني قائلة: "ادع لي! ادع لي".

أيقظني من استغراقي هذا، سليمان. قال لي وهو بجانبي:

- انظر يا صادق! إن هذه المئذنة تتهاوى!

نظرت إلى المئذنة فوجدتها تهتز. هذا الشيء الذي كان يتزلزل أمامي، كان شيئاً يحييني! يبعث فيَّ الإحساس بالحياة .. أمسكت سليمان بيديَّ المرتعشتين ..

لم يكن سليمان يفهمني، بل حتى لم يكن ينظر إليّ. كانت عيناه معلقتين بالمئذنة. كان يصيح بانفعال طفل وجد شيئًا غريباً.

- إنها تسقط! تسقط!

ألقيت نظرة أخرى فإذا بمئذنة مسجد طوقال تختفي من أمام ناظري. ومع اختفاء المئذنة، انطفأ بالتالي جمال الحديقة، وارتفع من بين الخضرة دخان عديم اللون نحو السماء كنت بكل كياني ما زلت أسير ذلك الشيء الذي كان يهتز -منذ حين- في نفسي. انهارت المئذنة، وانتهت، أما أنا فلم أكن أستطيع أن أنهار ولا حتى أن أقف على قدَميَّ. كنت أفر، كنت أهرب. إلى أين؟ ولماذا؟ لا أدري. كانت الحياة بالنسبة إليّ، كلمة لا معنى لها: أصبح كل شيء في نظري عدماً. الفصل في المدرسة، سليمان، المنازل في الخارج، الناس، وكل شيء. انهارت المئذنة، ومع انهيارها وانهيار الشيء الذي يحييني، خرجتُ من الفصل ولا أدري كيف خرجت ولا أستطيع أن أتذكر كيف نزلت من على السلم. أكثر ما أذكره هو أنني كنت أجري في شوارع المدينة هلعاً وباندفاع والعرق يتصبب من جبهتي، ومن خدي. وبمجرد أن دخلت منزلي انكفأت على قدمَيْ أمي المسكينة. لم تكن تدري ماذا حدث. كانت تبكي وهي تقبل جبهتي دون توقف قائلة:

- تكلم يا بني! ماذا حدث؟!

أما أنا فلم أكن أستطيع قول شيء ... لم أكن أستطيع حتى أن أبكي. وفي اليوم التالي أخذني أبي إلى الطبيب، ولم أكن مريضاً. أمسك الطبيب بصدري وبكتفي، وقال وهو يضحك:

- اذهب إلى المدرسة يا صادق. لست مريضاً. أنت سليم كالحديد.

ولم أذهب إلى المدرسة. ولم يجبرني أبي أيضاً على الذهاب. كان هذا الرجل يعيش في روحي وفي قلبي. كان عالماً مليئاً بالحياة. كان في الليل يحكي لنا سيرة قوزي قوربيج وجورا باطور.

أخذني في جولة، فوصلنا قرب مسجد طوقال. وعندما اقتربنا من الحديقة بسورها الحديدي حيث كان المسجد -قبل هدمه- يقع في وسطها، بدأت جبهتي تتصبب عرقاً بارداً. لم أكن أود الذهاب إلى هناك. لكني لم أفصح لوالدي عن هذا. كان والدي أحياناً يمسك بيدي عنوة ويمشي ثم يشير إلى بقايا المسجد التي أمام الحديقة ويقول:

- انظر يا صادق. أماكن عبادتنا التي بذل فيها أجدادنا العرق والمال، تراها الآن تحت نعال أحذية أعدائنا!

ولم أنظر إلى حيث أشار، فالعرق البارد ما زال يتصبب من جبهتي. وقلبي في صدري يدق كما لو أنه مطرقة! كنت أريد أن أهرب. كان أبي يفهم هذا غالباً ويدرك كل الأسرار التي تعتلج في نفسي. ولكن لا أدري لماذا لم يكن يترك يدي؟ كان يقول:

- انظر! انظر إلى هذه الأطلال التي تخلفت من هدم المسجد.

أجل لقد منحني القوة والشجاعة عندما قال:

- ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا ولا نخاف، أعداؤنا هم الذين عليهم أن يخافوا، أما كيف؟! إن ظلمهم دليل خوفهم منا. لو لم يخافوا منا لما ظلمونا. إنهم يعملون منذ مائة وخمسين سنة للقضاء علينا. مائة وخمسين سنة، ولهذا فنحن اليوم حفنة قليلة من التتار في هذا الوطن، في القرم. ولأنهم لم يقضوا علينا تماماً فستظل نفوسهم غير هادئة. لكنهم حتى إذا قضوا علينا، فإنهم لا بد سيقفون أمام أرواحنا يرتعشون. انظر جيداً يا صادق إلى هذه الأطلال! أنت قطعة من هذه الأطلال ... إن

هذه الأرض هي التي ولدتك، هذه الأرض غذّتك، ربّتك، واعلم أنك لا تقف وحدك، فمعك تاريخٌ غنيّ لأمّة عظيمة، ومعك أيضاً مستقبلها اللامع، إن مآذننا ترتفع في السماء من مدينة بغجة سراي وحتى مدينة كاشغر. إنهم يسمون بعضنا بالتتار، ويطلقون على البعض الآخر منا: الجراكسة. يسمون بعضنا بالتركمان والبعض الآخر بالقوزاق، بل وبأسماء أخرى: الأوزبك والآذريين والقراقالباق والششن والأويغور والقاباردي والباشقير والقيرغيز. كل هذا كذب يا صادق. إن البحر لا يتجزأ. نحن أتراك - تتار. وكما يعرف قلبك هذا، فقلوب جميع الباشقورد والقيرغيز والقوزاق تعرف هذا. تحرّك يا صادق بحركة قلبك. ولا تنكب على أطماع الدنيا الفارغة.

وبعد أن قال أبي كلماته هذه، ارتاح قلبي وشعرت بالسعادة وتغيّر موقفي . وعدنا إلى منزلي والسعادة العظيمة تغمرني، وأشعر بالفخر غير المتناهي. إذن فأبي ليس أبي فقط، لكنه شيء عظيم أكثر مما هو عظيم، وعزيز أكثر مما هو عزيز.

كان المساء يرخي سدوله عندما كنا ندخل مدينة بغجة سراي. اضطراب لا نهائي يهبط مع المساء على أسطح المنازل الواطئة. كنا نسمع أحياناً أصواتاً من هنا ومن هناك، متقطعة، مبحوحة، مهمومة. كان الضوء في بعض المنازل يحترق وينطفئ، وفي بعضها الآخر كانت المصابيح موقدة وتبدو كأنها تريد أن تفرح ولو قليلًا، وفي ساعات المساء الحزينة. كان هنالك أمام بعض المنازل بعض كبار السن يرتدون السراويل الواسعة الفضفاضة، وعلى رؤوسهم القلانس، وفي أيديهم العصي، وبهدوء يغوصون في الظلام وهم يضربون على الأرض بعصيّهم ورؤوسهم منحنية نحو الأمام. حياة المساء في بغجة سراي كانت تبدو لي في البداية ساكنة منكسرة. لكنها في الواقع لم تكن كذلك. لم يكن الإنسان فقط، بل حتى الطقس والسماء والمياه والمنازل، تبدو كأنها تسمع في صمت تلك السعادة التي كانت موجودة على هذه الأرض قديماً. هذه الأرض التي تحتوي مقابر خاناتنا على مياه جوروك صو.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها بغجة سراي التي لم أقف على سرها إلا في اليوم التالي حين بدت بغجة سراي أمام ناظري كأنها البانوراما الساكنة الحيّة. عندما كنت أنظر إليها في أحلك أيامي سواداً، أحس بأن النيران المشتعلة في نفسي قد تحولت إلى دخان ثم تهدأ. بتنا في تلك الليلة في منزل خالتي، وفي اليوم التالي، تركت والدي، وأخذت أتجول في بغجة سراي بمفردي. تجولت في القلاع المحيطة. أخذت في مشاهدة إحساسات قلبي في أطراف قلعة (جوفوط). لم أشعر في لحظة قط من لحظات حياتي أنني سعيد مثلما كنت سعيداً في تلك اللحظة.

كانت مدينة بغجة سراي تمنحني الأمل وتمنحني القوة، ترفع روحي المعنوية وتقوي إيماني، كان الوقت، وقت ميل إلى الغروب، وأخذت آخر إشعاعات ترسلها الشمس، في النزول من على مآذن جوامع السلاطين الكبيرة؛ لتمشط أبراج الحريم وحدائق قصر الخان وتلاله. ثم تأخذ الأشعة في التراجع نحو الغرب. تفرجت على الأطفال الذين استندوا إلى درابزين الجسر الخشبي ليلعبوا لعبة الحرب ... كنت أنظر إليهم وأفكر في جميع بغجة سراي ثم وبهدوء، أخذت طريقي إلى قصر الخان. وعندما اقتربت من باب القنطرة، أحسست في نفسي بفرحة يشوبها الحزن، ترى كم كيراي (حاكم) وكم آغا (سيد وأمير) مرّ من هنا. دلفتُ إلى فناء القصر: النوافذ الزجاجية الملونة، الشادروانات وقد جفت منها المياه، عيون الماء، أبراج الحريم ... كل هذا بدا وكأنه اختلط بسعادة الماضي ثم غط في سبات عميق. اتجهت في جولتي نحو مقبرة الخان الحاكم، وكانت في مواجهتي. ها هم أولاء حكامنا يرقدون تحت نصب حجرية تعلوها عمائم منحوتة من الحجر! ... هؤلاء الحكام كانوا حتى الأمس القريب حجر عثرة أمام أعداء الوطن وأعداء الشعب والشرف ... دافعوا عنه، من منطقة الإيديل وحتى سواحل نهر الطونة (الدانوب). منعوا من تقدم العدو من على الطرق والمراعي وكل المنطقة. أما الآن فلم يبقَ في قصورهم غير أشباحهم وغيري. سرت نحو الباب الخلفي من القصر فإذا بحديقة واسعة حيث كانت

الحمامات المرمرية تأخذ مكانها هنا أما الآن فالحديقة مهملة. وكل جناح في القصر قد تحول إلى خراب. سقط جسمي إعياءً من التعب، وكذلك حدث لذهني تمددت في ظل شجرة السنط، واستغرقت في التفكير في تاريخي المجيد وتاريخ أجدادي العظام أخرجت قلمي، وفتحت كراستي، وأردت أن أكتب قصيدة بعنوان: "انطقي أيتها الجدران" لكن الجدران لم تنطق بشيء. وسرعان ما أغلقت عيني واستغرقت في ذلك الهدوء الروحي الذي يسود المكان.

أرى هناك بعيداً، منزلًا صغيراً يتوسط الخضرة والأشجار، وثلاثة من كبار السن يجلسون أمام المنزل. البياض الناصع يغطي شعر رؤوسهم ولحاهم. خدودهم حمراء. الثلاثة طوال القامة، سليمو البنية. أما أعمارهم فيعلمها الله ذلك لأنهم يعطون تصوّراً أنهم خُلقوا يوم خلقت الدنيا، يوحي حالهم بأنهم سيعيشون أبد الدهر. وأمام هؤلاء الثلاثة: صَبِيّان صغيران في حوالي الثانية عشرة من عمرهما، يتصارعان. جسمان نحيلان يتصارعان يمسك بعضهما بعضاً. شفاهما مزبدة، والعرق يتصبب من خدودهما يعمل أحدهما على أن يطرح الآخر أرضاً نهضت من مكاني واتجهت إلى هذا الجمع. الكهول الثلاثة رأوني، لكن لم تبدر منهم حركة تشعر باهتمامهم بمقدمي. كل واحد منهم يحمل عصا يلوّح بها كانوا يصيحون بالصبيّين، يشجعون أحدهما على الآخر بقولهم:

- خذه ركبة!

- اطرحه أرضاً!

- اضربه كعباً!

وأخيراً انهزم واحد من الصبيّين. عاد المنتصر منهما ليجلس مع الكهول الثلاثة يقول:

- هيّا يا جدّي نفّذ وعدك.

أما الجد فقد كان يبدو في غاية السرور بنتيجة هذه المصارعة، كما يبدو وكأنه وعد الصبيَّ ليحكي له حكاية، لأن الكهل بدأ كلامه قائلًا: "كان يا ما كان. كان في أول الزمان". تدخلت أنا في الكلام مازحاً بقولي: "ولا يحلو الكلام إلا ...".

أدار العجوز رأسه نحوي ونظر إليَّ بجفاف، لكنه لم ينطق بكلمة، ثم انحنى على زميليه وهمس لهما بشيء. واقترب الثلاثة بعضهم من بعض وأخذوا في التحدث في أمرٍ ما همساً. ثم بدأ العجوز الأول في الكلام وهو الذي كان سيقص القصة على الصبيّ.

- أحب أرسلان بن عَظَمَتْ، فتاة حبًّا ملك عليه شغاف قلبه، فأرسل مَن يطلبها له من أبيها. فقال والد الفتاة لأرسلان:

- أيها الفارس إنّ شعر ابنتي حرير، وعيونها تفاح وجسمها غصن. وأنت شاب يافع لم تنضج تجربتك بعد. سيفك لم يخرج من غمده بعد، فكيف أزوجك من ابنتي؟!

اهتز فتانا الشجاع من هذا الكلام الذي تفوّه به والد الفتاة. التاعت نفسه يا ويلاه! فترك البلاد في نفس اليوم، وساح. مضت أربع سنوات لم يعد فيها إلى بلاده، كما لم يرسل لأحد عنه خبراً.

في ذلك الزمان، كان في (بوجاق) مصارع رهيب طبقت شهرته الآفاق يسمى أرسلان. ترى أكان هذا المصارع المشهور هو فتانا الفارس الشجاع أم غيره؟ لا أحد يعرف هذا لأن كثيراً من هؤلاء المصارعين كان يحمل اسم أرسلان وهم أيضاً كانوا في شهرة واسعة سواء في (جان بولاط) أو في (يداسان) أو في غيرها.

وأخيراً، وفي ذات مساء، دخل المدينة من ناحية القصر فارس وكان كالصاعقة. اقترب من القصر، كان مصارعاً تبدو عليه سمات العظمة والأبهة: قلنسوته كانت كقلنسوة السلطان محلاة بالماس. كان حزامه ومهمازا حصانه وركاب سرجه من

الذهب الخالص. توقف هذا الفارس أمام المقهى التي كنا نجلس فيها. نظرنا بتفرس إلى هذا المصارع الغريب، نظرنا إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. ترى من يكون؟ لم يكن هنا أحد يعرف سرّه.

صاح الفارس المصارع بنا قائلًا:

- ألم تعرفوني!

صاح واحد من بيننا وقال:

- سبحان الله! إن هذا الفارس المصارع إنما هو أرسلان الذي نعرفه.

نعم، كان هو أرسلان بن عظمت، الفارس المقدام، الذي أبدى من ضروب الإقدام والشجاعة الشيء الكثير في جيش بوجاق! كما أغار على قرى ومدن بولندا. لا يستطيع أحد أن يحصي عدد الأسرى الذين وقعوا بين يديه من كثرتهم. إن الجواهر التي يملكها، لا يقوى الحساب عليها. أصبح اسم أرسلان رعباً في قلوب الذين يعيشون في أرض الخان الحاكم. واسمه كان يتردد في كل مكان حتى في القصر، كنا ذات يوم نجلس في المقهى نذكر حروبه، وكان أرسلاننا هذا أيضاً في المقهى. ثم دخل مصارع غريب أكثر طولًا من أرسلان، على رأسه قلنسوة مشغولة من الحديد، يحمل سيفاً في يده وكانت يده مغطاة بقفاز من حديد. توقف هذا المصارع المدجج بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، توقف عند الباب تتقد عيناه شراراً، ركز نظراته على أرسلان المقدام، ثم قال:

- أيها الفارس أرسلان بن عظمت! ما أظلمك!

وقفنا، ووقف كل من في المقهى، ننظر إلى المصارع الأجنبي الذي استمر في حديثه قائلًا:

- لقد أحرقت بلادنا، وقتلت أبي، وبعت فتياتنا في مدينة (كفه) أسيراتٍ في سوق الحريم.

ثم أخرج قفازه وألقاه تحت قدمي أرسلان وصاح به قائلًا:

- أيها المصارع! هل تخلو الدنيا من فاقد لروحه في سبيل وطنه؟! إما الأسر أو الموت! لك أن تختار بينهما، فاخرج أمامي، يا أرسلان!

استطاع مقدامنا أرسلان أن يعرف هذا الأجنبي. إنه مصارع بولندا، صاح أرسلان قائلًا بعد أن دفع القفاز الحديدي بسيفه:

- لقد أعملت في بلادكم القتل والحرق، هذا هو ما حدث أيها المصارع البولندي، ولقد أسرت ثلاثة آلاف بعتها إلى حريم السلطان في مدينة (كفه) لكن فعلت كل هذا بشرف. قابلت الفارس بفروسية، وأشهرت السيف أمام السيف، ورفعت السهم أمام السهم. والمصارع الذي يموت في سبيل وطنه مصارع، أيها المصارع. أما الأسر فيعني الإساءة إلى شرفي وإلى عائلتي لذا فإني أفضل الموت!

وبمجرد أن قال هذا، استلَّ سيفه واندفع إلى الأمام.

سررنا نحن كثيراً أملًا في مشاهدة معركة بين مصارعين، إلا أن أحد موظفي القصر كان في المقهى، ولما عرف الأجنبي، انطلق فجأة نحو الأمام وصاح قائلًا:

- إني أعرف هذا البولندي، إنه سفير! إنه سفير! اقبضوا على أرسلان! اقبضوا على أرسلان! قام المصارعون وغيرهم ممن في المقهى بالإمساك بأرسلان.

قال الأمير أرسلان متوسلًا:

دعوني! أستحلفكم بالله أن تتركوني!

قال أحد المصارعين الموجودين بالمقهى وكان الشيب يملأ شعر رأسه ولحيته:

- قف يا أرسلان! ماذا دهاك؟! هل يستل أحد سيفه في وجه سفير فوق أرض الخان، حاكمنا؟

قال أرسلان وهو يقاوم:

- أيها السادة، ألم يدعني هذا المصارع لقتاله؟ لا تعترضوا طريقي! الشريف لا يتحمل هذا يا أيها السادة!

قال المصارعون القدامى:

- نعم أيها المقدام أرسلان. إن الحق معك؟ هذا المصارع هو الذي دعاك للقتال. لكن خبر استلالك للسلاح ضد السفير، إذا انتشر، ألا يأمر خاننا المعظم بالقبض عليك وفصل رأسك عن جسدك، ثم يأمر بتعليقك على "خازوق" أسوة بالكفار؟!

قال أرسلان:

- لكن المسألة الآن وصلت إلى الشرف لذلك يبدو تعليقي على الخازوق أمراً هيّناً. ولم يتركوا أرسلان بن عظمت. ولما عرف السفير أن أمره انفضح لم يره أحد مرة أخرى في بغجة سراي.

اصفرّ لون الفارس أرسلان وامتقع. لم يعد يستطيع النظر إلى وجه أحد، بحجة أن شرفه قد خدش. أراد أصدقاؤه أن ينسوه مصارع بولندا، بقولهم:

- اصبر يا أرسلان. اصبر، الصبر مرٌّ لكن ثمرته حلوة. إلا أن أرسلان المقدام لم يستطع النسيان. نسي فتاته، لكنه لم يستطع نسيان المصارع البولندي. كان يبكي ويقول: شرفي! شرفي! ولما وجدوا أن هذا الحال لا ينتهي. قام الموجودون في المقهى في تلك الليلة بالذهاب إلى (كالكاي) ووصفوا له حالة المقدام أرسلان. فقال (كالكاي) :

نعم. نعم. إن أرسلان مقدام لا يعرف الخوف ولكن إذا مسّ أحد سفيراً في بلاد الخان فمعنى هذا أن يطير رأس، ويعلق على خازوق عقاباً كعقاب الكافر. لكن

(كالكاي) وعد بأنه سيعرض الأمر على الخان المعظم في أول فرصة تسنح. وعندما علم الخان من كالكاي بأن أرسلان شهر سلاحه في وجه سفير بولندا، اشتدّ غضبه فأصدر الأمر بقطع رقبة أرسلان على الفور، إلا أن كالكاي انكفأ على قدمي الخان وتوسل إليه قائلًا:

- مولاي الخان العظيم! إن المقدام أرسلان لم يرتكب ذنباً، فالسفير هو الذي بدأ. إن المقدام أرسلان بن عظمت، صنديد لا مثيل له في (بوجاق) كلها.

وعندما فطن السادة في المقهى أن المصارع الأجنبي سفير، اختفى السفير من بغجة سراي. ولا أحد يعرف الآن أهو في أراضي بلادكم أم في بلاده لكن أرسلان المقدام يموت من الهم. وربنا العظيم؛ شديد الرحمة.

قال الخان:

- إذن ائذن له ليذهب ليبحث عنه وليتصارع معه ويعمل ما بدا له، لكن إذا رفع يده على السفير في أراضي مملكتي فإني آمر بقطع رأسه ورميه إلى الكلاب وألعن أجداده.

وعندما سمع الأمير أرسلان بن عظمت هذا، سرَّ سروراً عظيماً. وغادر البلاد ساعة صدور الإذن له، وظلَّ عامين يجوب بلاد الأعداء، بحثاً عن غريمه، لم يترك مدينة ولا قرية إلا وسأل فيها، لكنه لم يجد مصارع بولندا في أي مكان. وذات يوم سمع أن المصارع البولندي قد وقع أسيراً في قوزاق الدنيبر، فذهب إلى الدنيبر. وكانت المعلومات التي سمعها أرسلان صحيحة. وعندما علم القوزاق بأن أرسلان الفتى المشهور يبحث عن المصارع، طلبوا ذهباً في مقابل تسليمه البولندي، لكن ما قيمة الذهب عند المقدام أرسلان الذي يريد المصارعة في سبيل شرفه! دفع المقدام أرسلان المال المطلوب وتسلّم الأسير، وقال له في نفس اليوم الذي تسلمه فيه:

- انظر أيها الشجاع! لقد اشتريتك، لكنك الآن لست أسيراً. أعتقتك. لكن لك أن تختار مكاناً شرط أن يكون بعيداً عن أراضي الخان حاكمنا. وهناك نتصارع. ذلك لأنك ما دمت دعوتني للمصارعة فلا بد أن نتصارع؟

أجابه المصارع البولندي:

- أيها الأمير أرسلان الذي لا نظير له في جيش (بوجاق) ! لقد أنقذتني من يد القوزاق عديمي الحياء. فلتسمح لي أن أكون ذراعك التي تبطش بها فإذا رأيتني أستحق هذا الشرف، فدعني لكي أحارب في سبيلك وليس ضدك، لكي أحارب حتى أموت من أجلك.

وبعد أن أجابه البولندي بهذا المنطق، عاد الاثنان إلى بلاد القرم وقد تصادقا وتزوج الأمير أرسلان من الفتاة التي كان يحبها، وبعد قليل أسلم المصارع البولندي وانضم إلى جيش الخان جندياً مخلصاً صادقاً".

ولما انتهى الجد من حكايته، قام والتفت إليَّ قائلًا:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

قلت:

- جئت إلى بغجة سراي، أريد مشاهدة قصر الخان.

- هل أنت تتاري؟

اكتفيت بهز الرأس بالموافقة.

قال الجد:

- أنا من هنا. ومن الصعب وجود أحد يعرف بغجة سراي أكثر مني! تعال وسأصطحبك في جولة لترى بغجة سراي.

قال لي الجد هذا وسار، وتبعته أنا. وكلما سرنا قلّت أشجار اللوز وأشجار السنط، كنا ندخل غابة مظلمة موحشة. كان الطريق الضيق الذي نسير فيه يبدو وكأن أحداً لم يطأه بقدمه منذ مئات السنين. كانت الأشجار الشوكية تعترض طريقنا كما كانت الزهور السامة تتواجد حولنا. الأشواك تنغرس في قدمي، والنباتات المتسلقة تبدو كأنها تريد أن تأسرني. كانت تتسلق على وجهي وعيني. توقفت لحظة. تلفتُّ حولي. فإذا بالجد يختفي ليس له أي أثر في المكان. كنت أسمع ضربات قلبي في هدوء المكان.

صحت بأعلى صوتي منادياً:

- يا جدّي!

وإذا بصدى صوتي يأتي إلى مسامعي قائلًا:

- سر يا بني، سر!

جريت وناديت:

- أين أنت يا جدي؟!

وقفت لأستمع. ولا جواب. يغرد طائر بين الأشجار وفوق رأسي مباشرة يدي وساقي ترتعشان. كنت أظن أن الوحوش من نمور وصقور تستعد لتفترسني.

- يا جدي! أين أنت يا جدي؟!

- وإذا بالصوت الذي سمعته منذ حين يأتي بطيئًا إلى مسامعي، ليقول:

- سر! تقدم!

وسريعاً تقدمت إلى الأمام. كنت وأنا أسير، أحطم في طريقي النباتات الشوكية المتسلقة التي تعلقت بقدمي، وبيدي. وبعد أن تقدمت قليلًا، رأيت جدولًا

مائياً يترقرق في مسيره بين الأشجار في أرض مستوية جريت نحو الجدول والعرض يتصبّب مني والتعب قد نال مني.

وعلى الضفة الأخرى من الجدول، رأيت الجد العجوز وقد وقف كتمثال من حجر. أدرت رأسي نحو الغابة الرهيبة التي كنت أعبرها منذ حين، خُيّل إليّ أن الفهود ما زالت تطاردني. اندفعت من شدة هلعي نحو الجدول. أدْمَت الأحجار ركبتي. وعندما عبرت إلى الضفة الأخرة التي بها الجد صرت أضحك على خوفي الذي كان يتولاني منذ لحظة. كل المخاوف الآن، أصبحت وراء ظهري. أصبحت الآن في اطمئنان. لم أعد خائفاً مثلما كنت. ولكن أين بغجة سراي؟!

أين قصر الخان؟ بل أين أنا؟ المكان محاطٌ بالجبال العالية والوهاد، قلت للجد العجوز متسائلًا وكان يقف أمامي بلا حراك:

- إلى أين تذهب يا جدي؟

لم يجب العجوز. رفع عصاه بعد قليل وأشار إلى قمة الجبل الذي أمامنا، ثم تقدم دون نظر إلى وجهي.

أدركت وإن كان متأخراً أن العجوز رجل لا يوثق فيه. وأنني أصبحت في موقف حرج عسير التخلص منه. ولكن ماذا بيدي أن أفعل! أمامي نهر واسع وغابة مظلمة ... الجبل ... العجوز الصامت ... ولا طريق ولا أثر من حولنا. كان العجوز يتلفّت إليَّ ونحوي، ثم وبدون اهتمام بي يأخذ طريقه في مواصلة السير. جلست على حجر وأخذت أبكي بكاءً حاراً ... ثم وببطء أخذت في النهوض من مكاني وسرت خلف العجوز، كرهاً أو طوعاً، أردت أم لم أرد.

عبر العجوز أرضاً صغيرة منبسطة، تسلق الآن التلال. كنت أسير تحت الشمس الحارقة، وفوق الأرض الشوكية، وقدماي تصدمان بالحجارة الحادة الأطراف زاحفاً على أشجار قصيرة جافة، كما تزحف الثعابين، كنت أقوم وأقعد، لكني كنت

أواصل المسير. كان حلقي يجف. ومع كل هذا، كان العجوز هو أملي الأخير، تحت هذه الشمس الجهنمية، وعلى هذه التلال الجافة التي ينقطع فيها أثر الحياة لكني كنت أحياناً أفقد أثر العجوز، وساعتها كنت أصيح بقدر ما ملكني الجهد:

- يا جدي! يا جدي!

كان العجوز يظهر أمامي أحياناً، وأحياناً يختفي. فهمت أن نهايتي اقتربت، إذن فالعجوز قد أتى بي إلى هذا المكان لكي ألقى حتفي. أريد السير لكني لا أقوى على النهوض. إني أنهار ولم تعد بي رغبة في النهوض. يا ربي! أمتني يا ربي! اللهمّ اقبضني إليك. رفعت رأسي. رفعت رأسي ثانية. ألقيت نظرة حولي، لعلها آخر نظرة لي إلى الدنيا، وحتى لو كانت هي الأخيرة على الحياة، إلا أني كنت أريد أن أموت ناظراً إلى الدنيا. انتصب العجوز أمامي كأنه تمثال حي. كنت أموت، ومع ذلك فلم يفتح العجوز فمه. لم يكن لدى هذا الرجل أدنى إحساس فقد كان مجرداً من الشعور. أما أنا فلن أطلب منه نجدة ولا أن يمد لي يد رحمة. صحت وأنا أعتدل والدم ينزف من ركبتي، قائلاً:

- اقتلني أيها الظالم! اقتلني حتى أستريح.

اقترب العجوز مني. رفع عصاه ودفعها في صدري، وقال:

- اذهب لتموت. لتموت يا ابن العاهرة! أنت لم تولد لتعيش. أنت ولدت لتموت. اذهب ومت، وسيموت الآلاف بسببك. إن الأرض التي تسير عليها ستبتل بدموع آلاف الأمهات وآلاف الأطفال. ستئن هذه الأرض بصرخاتهم ... اذهب لتموت وليتك مت قبل أن تولد. فاذهب ومت.

قال العجوز هذا وهو يشير إلى هاوية على جانبي الأيمن. نظرت إلى الهاوية، فوجدت في قاعها عظام وجماجم آلاف من الناس وقد اختلط بعضها ببعض، وبين العظام رأيت ثعابين سامة قد لفت حول نفسها واستدارت. كانت تتدفأ في الشمس.

الموت قد ظهر بكل ما يثيره من فزع أمام عيني. انكفأت على قدمي العجوز وأخذت في التوسل إليه وأنا أقبّل -وبلا توقف- يديه وقدميه، وأقول:

- سامحني يا جدي! سامحني... أريد أن أعيش. اعف عني يا جدي.

قال العجوز بصوت خفيض:

- انهض يا بني، وسر!

سرت، وقد أغلقتُ عيني اللتين انتفختا واحمرتا من البكاء وأنا أقول:

- لقد ولدت لأعيش. ولدت لأعيش.

تماسكت. لم أبك. ولم أنتظر نجدة، بل ولم أسأل العجوز مرة أخرى إلى أين نذهب، لكن سرت في قلبي - بالتدريج - فرحة: الفرحة بالحياة، حب الحياة. لم أكن أدري إلى أين كنا نذهب. لكن المكان لا يهمني. كل ما كنت أريده هو الحياة والسرور. رفعت رأسي ونظرت نحو الأمام. كنا في تلك اللحظة في هضبة مفروشة بالخضرة. وكان الهواء عليلًا رقيقًا يهب. توقفت ولم يعد في نفسي أدنى خوف. جاء العجوز وجلس بجانبي، أشار إلى مكان لأجلس عليه، وبجانبه جلست. انحنى على أذني وهمس قائلًا:

- لقد وصلنا يا بني. اُنظر إلى أسفل. إن بغجة سراي تستيقظ الآن من النوم!

انحنيت من على الجبل الذي نحن عليه، ونظرت إلى أسفل: صباح يشوبه الضباب. مدينة تأخذ في الظهور رويداً رويداً بفعل أشعة الشمس. المآذن الدقيقة ترتفع إلى السماء. المنازل. زجاج القصر يضوي كالمرايا. كانت تتناثر أمام عيني مدينة أسطورية.

سألت العجوز عن اسم هذه المدينة الجميلة، فقال وكأنه يهمس:

- إنها بغجة سراي.

حسبت المدينة بشكلها هذا، الجنة بعينها. الزهور المتعددة قد تفتحت في الحدائق. أقفاص العصافير في نوافذ المنازل. الشادروانات الفستقيات. الحمامات المرمرية. ورويداً رويداً أخذ الناس يسيرون في الشوارع بملابسهم الحريرية النظيفة، كما بدأت القوافل تدخل المدينة. أخذت مدينة بغجة سراي تبدأ حياة يوم جديد من حياتها الهانئة السعيدة. وفجأة ظهر في الأفق البعيد ثمانية فرسان تقريباً وأخذوا في الاقتراب من المدينة وهم يثيرون عاصفة من الغبار حولهم.

- يا جدي! هل ترى هؤلاء الفرسان؟

- أراهم يا بني. هؤلاء قادمون من (قازان) وسيدخلون القصر.

- ولماذا يا جدي؟

قال لي العجوز بصوت خفيض:

- اعتدى الروس على (قازان) فأرسل خان قازان خبراً بذلك، يطلب النجدة.

الفرسان يدخلون القصر بسرعة البرق. وكأن الحياة توقفت تماماً لوقت ما. ثم سريعاً بدأت استعدادت في القصر، بل وفي كل المدينة، وأخيراً فتحت أبواب المدينة ودقت الطبول والمزامير، ثم خرج شخص يحمل سيفاً ويرتدي لباساً براقاً. أعقبه الأمراء المسلحون ثم خرج الجنود صفوفاً من المنازل ومن القرى ومن السهول ومن الغابات. كلهم يخرجون خلف الخان المعظم الذي ترك قصره. كانوا يسيرون وكأنهم أنهر تصب في البحر. كلهم تجمعوا في مكان فتكوّن منهم الآن بحر زاخر من الجنود. وقف الخان المعظم ليلقي خطاباً وهو شاهرٌ سيفه. الحناجر كلها تردد كلمتي: الانتقام! الثأر. تخرج الكلمتان من الحناجر لتهز الأرض، لتصل إلى عنان السماء. خرج الجميع دفعة واحدة، ساروا في الطريق المؤدي إلى الشمال.

غيمت السحب الرصاصية اللون، الثقيلة، على سماء الشمال. كان لون هذه السحب آخذاً في السواد. وكان الجو يوحي بأن عاصفة ستهب. سألت العجوز وكان يجلس بجانبي غارقاً في التفكير:

- إلى أين يسير هؤلاء الجنود الكواسر؟

أجابني بقوله:

- نحو الشمال.

سألته ثانية:

- وهل سيعودون؟

أغلق عينيه برموشها البيضاء بياض لحيته وقال:

- لن يعودوا.

وسالت دموعه على خديه. دموعه التي تجمعت بين أهدابه ثم أخذت تتساقط.

فتحت عيني ورفعت رأسي الذي ثقل علي. ماذا الذي كنت أرى؟ أكان حلماً ذلك الذي رأيت؟! نعم. كانت رؤيا. ولقد أيقظني من حلمي هذا صوت وقع حذاء ذي نعل حديدي من تلك التي يرتديها الجنود الروس.

(٢)

روما، في ٣/ ٤/ ١٩٤٦

أقرأ، هذا المساء، ما سجلته حتى الآن. أقرأه وأفكر، ترى لمن أكتب؟ من يا ترى ذلك الذي تعنيه هذه الكتابات؟ لا أحد! إذ ليس هناك من أحدٍ سيقرؤها، ليس من أحد سيعيرها انتباها. وإني أدرك هذا جيّدا. فلستُ بكاتب. كما أن فيما أكتب حقيقة تكمن، لا تهم أحداً. هذه الحقيقة إنما تقبع في داخلي أنا فقط. تماثيل الأبطال الموتى لا تعلوها الموتى، إنما الأحياء فقط يعلونها؟ فيجب أن أبقى على قيد الحياة لكي أجسد أرواحهم في نصب تذكاري، بعد أن أقوم بإخراج هذه الأرواح من داخلي. لقد ترك هؤلاء الأبطال الموتى، آثارا جميلة خلفهم، تركوها ورحلوا. وأنا اليوم، أجد نفسي وقد انتزعت انتزاعا من الحياة. لذا أخافهم وأخاف نفسي، والناس، والدنيا، أنا لا أحيا وإنما أحارب لكي أحيا. ماذا أمامي؟ ليس إلا الظلام والخوف، لذا لا أستطيع التقدم إلى الأمام. ولأني لا أستطيع رؤية الحياة التي أمامي فإني أنظر إلى الوراء؛ دائما، فربما يسرع ماضي أيامي إلى مساعدتي. ربما يقول لي من أنا، فيفصح عن أسرار حياتي المستقبلية. وربما يأتي ماضيّ، ذات يوم، ليدفعني لاجتياز الكوارث الدامية التي سبَّبتها لي تلك الأيام الماضية الرديئة، ويوصلني إلى بر السلامة بعد أن ينقذ روحي وجسدي أيضاً، الذي أصابه الوهن والضعف، ينقذه من قسوة الأيام السوداء التي تنتظرني. ترى ماذا لو لم يأتِ. لا بد لي أن أهرب كذلك من "المذكرات" هروبي اليوم من الحياة. يقول الطبيب النفسي الذي يعالجني: إنني لو تكلمت معه وأفضيت إليه بمكنون نفسي فسيكون كلامي مساعداً على شفائي. ويقول لي: "سيأتي اليوم الذي تنسى فيه مخاوفك". لكني أظن أن الذي يحييني حتى الآن إنما هي المذكرات وليس الطبيب. لكني لا أستطيع أن أقول هذا للطبيب.

* * *

في خريف ١٩٣٨ ، خرجنا من الحظيرة إلى "شارع قاضي العسكر" ، ذلك لأن وضعنا الاجتماعي، كان يتحسّن من يوم إلى يوم. كان أبي يكسب جيّداً. وكان أخي بكر قد وصل إلى سنّ الخامسة عشرة. يعمل مع والده ويتعلّم منه المهنة. أما أنا فقد وجدت في شهر أغسطس من نفس العام عملاً في جريدة "العالم الجديد" وأعطيت والدي المرتب الذي اكتسبته في شهر، لكي يدفع به إلى موظفي البلدية ليعطونا منزلاً جديداً. هذا المنزل أيضاً قديم. كان شيئاً قذراً. شمرنا عن سواعدنا مدةَ شهرين كاملين حتى نظفناه من الداخل ومن الخارج. وزرعنا أمامه حديقة وطلينا أبوابه بالطلاء، وبذلك حولناه إلى بيت نظيف نظافة الورود. وعادت أمي التي كنت أرى - في أكثر الأيام - في عينيها علامات الشيخوخة، عادت تضحك. لقد عمّنا كما عمّ جميع شعبنا في القرم، الاضطراب والتشرد من جراء ظلم البلشفيين، هذا الظلم الذي لم ينقطع منذ عشرين عاماً. لذلك نحّينا قضيّتنا، مؤقتاً، على جانب، وأخذنا نشتغل بالحياة اليومية.

ترى هل أدرك المسؤولون الروس أن حفنة التتار التي بقيت في بلادها القرم، ولم تغادرها؛ لا يمكنها أن تضر الحكومة في شيء؟ أم لم يدركوا هذا بعد؟ إن النفي الجماعي كان قد توقف على ما يبدو، لكنا كنا نحس أن أشخاصاً من هؤلاء الذين أنجبتهم الأمة وعرفوا بين الناس بالعلم من: أطباء وأساتذة، يختفون فجأة حتى من المعلمين والشيوخ وأئمة المساجد في القرى والمناطق النائية وكذلك لم يتمكنوا من تحمل آلام أمتهم الأسيرة، في نفوسهم ووجدانهم فأطلقوا آهة الألم، وكذلك الذين شربوا حتى ثملوا ففاضت قلوبهم على ألسنتهم بمكنونات ما في صدورهم فتكلموا وأفصحوا عن آلامهم دون قصد منهم، يختفي من هؤلاء، بعضهم، اختفاء مفاجئاً غريباً. كانت الأمة القرمية تحب وطنها الأصلي، تحب أرضها أكثر من كل شيء؛ حتى أكثر من نفسها. لذلك كانت صامتة. كانت راضية بكل ظلم، راضية بكل شيء، فيكفي أنها تعيش في أرض الآباء والأجداد. كانت القرى القريبة والبعيدة التي عركتها أدمى نكسات التاريخ، تستعيد نهضتها رويداً

رويداً. كان القروي يحب أرض آبائه الأقدمين كما يحب إنسان عينه تماماً، رغم أن الدولة أعلنت أن الحدائق قد أصبحت من ممتلكات الكولخوز، فقد كان الفلاح يجمع محصوله وفاكهته ويسلمها للحكومة. ثم يذهب ويقف في الصف من أجل كيلو من القمح. وينتظر حتى منتصف الليل؛ إلى أن يحين جوره أمام أبواب الجمعية التعاونية. لم يكن غيره يعرف دموع عينيه التي يذرفها على أرض أجداده عندما كان يعمل منحني الظهر في حقله وحديقته وبستانه الذي أخذوه منه. ولم يكن يشعر أحداً بذلك، لأن تلك الأرض كانت أرضه. وذلك الوطن كان وطنه.

أصبحنا جيرانًا لزميلي سليمان وعائلته. وكان ذلك بعد انتقالنا إلى "شارع قاضي العسكر". ولقد خاب أملي في أن أصبح طبيباً منذ عملي بجريدة العالم الجديد. عاد سليمان إلى أفكاره القديمة، لكنه لم يكن يحب أن يدخل في مدرسة الضباط المتوسطة إلا إذا كنت معه. ورفضت أنا بشكلٍ حاسمٍ هذا، رغم أنه طلب من والدي أن يتدخل في تغيير رأيي. وكان ذلك دون أن أشعر، إلا أن والدي كان يترك لي القرار مثلما كان يفعل معي من قبل، حين تركت مدرسة قاياباش. كان فصل الشتاء قد بدأ. واستدعيت إلى التجنيد: أنا وسليمان، في نفس اليوم. على هذا بدأ حلم سليمان يتحقق. في يوم الاستدعاء ذهبنا إلى قيادة "سيمفربول راي فويين كوم". كان هناك ما يقرب من عشرة من الشباب الروس ينتظرون جالسين فوق حقائب يد خشبية في الممر. كانوا قذرين وكانوا مقززين. يدخنون السيجارة ويبصقون على الأرض بين الفينة والأخرى. ورائحة عرق تضيق بها نفس الإنسان تتصاعد من بناطيلهم السميكة القطنية.

وقفنا في الممر بجانب الحائط في انتظار دورنا. وبعد قليل فتح باب الغرفة، ومد ضابطٌ أحمر الوجه رأسه من فتحة الباب وقرأ اسم سليمان أولاً ثم اسمي، ودخلنا معًا الغرفة وجدنا في الداخل ثلاثة أطباء قاموا بفحصنا جيّداً ثم جاء نفس الضابط، وأخذنا إلى غرفته، وقال لنا بمجرد دخولنا الغرفة:

- اسمي إيفان الكساندروفيتش شيشكوف.

ومد يده إلينا وصافحنا. ثم جلس على المقعد الوثير من وراء المائدة المغطاة بمفرش أحمر، ثم أشار أن نجلس، فجلسنا. إني أرى الآن وجهه جيّداً. كنا جميعاً نضحك. لكنه كان يضحك ويخفي وراء هذا الضحك والابتسام قصداً خفيّاً. أتصور أنه حتى في نومه كان هذا القصد الخفي بما يحدثه من آثار مرهقة ينعكس على وجهه. كان يرتدي بذلة ضابط سياسي في الجيش السوفييتي. وكانت هذه البذلة تخفي - وبدرجة أخرى - ذلك القصد. كان لشيشكوف عينان كبيرتان خضراوان خبيثتان. شفتاه الغليظتان اللتان تتدلى أطرافهما لأسفل تضفيان على وجهه قباحة خاصة.

اتجه شيشكوف بناظريه، مدة، نحو سقف الغرفة، لمحنا بنظره وقال:

- أيها الصديقان! لقد استدعيتما للعمل في صفوف الجيش الأحمر. والتقرير الذي في يدي يقول إنكما شابان مثقفان. والاتحاد السوفييتي، يفتح أبواب التقدم للشباب المثقف من أمثالكما. ونحن نقدم لكما إمكان الدراسة في مدرسة القيادة الوسطى. وإمكان زيادة معلوماتكما.

وإني لواثق بأنكما ستفيدان من هذه الفرصة إلى أقصى حد، وإنكما ستصبحان من الشباب النافع لهذا الوطن.

كنت أدرك أن رفض هذا الاقتراح من شأنه أن يفتح أمامي وأمام سليمان، بل وأمام أسرتينا، الجديد من الكوارث. لم يكن سليمان يحب أن يجرح شعوري، لكنه كان من ناحية أخرى سعيداً باقتراح الكوميسير شيشكوف. وشرحت لأبي المسألة في مساء نفس اليوم.

صدّق أبي أيضاً على ما فكرت فيه من أن رفضي لاقتراح شيشكوف كان سيصبح خطأً جسيماً. جاء سليمان، وتحدثنا طويلاً عن مدرسة الضباط، وعن الحياة الجديدة التي تنتظرنا. كان سليمان يرى في الجيش مستقبلاً جيداً ومضموناً. ولا

أذكر كم مرة ذكرني بهؤلاء الروس الذين كانوا في ممر قيادة "راي. فويين. كوم". في قوله:

- صادق! إنك لن تستطيع الحياة مع هذه المجموعة من الكفار مدة سنتين كاملتين، وأمامك طريقان. إما أن تصبح ضابطًا فتأمرهم وإما أن تهرب وتختفي.

إن طينتنا مختلفة عنهم يا صادق.

كان أبي يؤيد سليمان زميلي. ربما يرجع هذا لأنه وجد فكرته صحيحة، أو أنه يريد أن يقوّي من معنوياتي. لذلك قال لي:

- كونا كما تريدان. المهم أن يكون كل منكما عظيماً. فكل ساحة في هذا الوطن تحتاج إليكما. تعلّما وتعرّفا بأشخاص جدد. ماذا ستكون فائدتكما إذا نفوكما من القرم؟! إنهم يقضون على أطبائنا، فكونا على الأقل ضابطين. إن الضباط لا بد أن ينفعوا أمتهم ذات يوم.

وأخيراً، قررنا الالتحاق بمدرسة القيادة الوسطى. أخفينا ذلك عن أمي. مسكينة أمي. إنها تظن أنني سألتحق بالجندية، وسأعود بعد عامين من الخدمة الإجبارية، وسأتزوج بابنة المختار عمدة آي واصل. تركت مسألة التحدث مع أمي حول ظروفي الجديدة إلى بكر وإلى والدي، على أن يفتحا هذا الموضوع معها، بعد ذهابي.

***

بدأنا في شتاء عام ١٩٣٨، الدراسة بمدرسة القيادة الوسطى في أوديسا. كانت مواد التعليم السياسي في المدرسة أكثر من التدريب ومن نظريات الحرب. وبعد ستة أشهر، جاء شيشكو الموجّه السياسي، إلى المدرسة. كان يخفي مقصده الخفي تحت نفس الابتسامة، التي يحملها حملاً في وجهه. كان هذا الرجل يتعقبنا خطوة خطوة. كل كلمة نتفوه بها، بل وكل فكرة نفكر بها، كأنها ملكه الشخصي. لم يكتف

بحديثه لنا، عدة ساعات عن تعاليم الماركسية وانهيار الرأسمالية الغربية. وانتظار البروليتاريا المسحوقة في كل أنحاء العالم، الخلاص والنجدة من الاتحاد السوفييتي، والجيش الأحمر. كان يخيّل إليّ أحياناً أنه يريد دخول قلوبنا بمقصده الخفي المبهم هذا الذي يحتفظ به في ثنايا وجهه، وأنه يريد أيضاً أن يدخل عقولنا ليمتلك كل أفكارنا. كان كلما وجَدَنا مجتمعين معاً؛ أي مجموعة من الشعوب المسلمة في الاتحاد السوفييني في هذه المدرسة من آذريين أو قيرغيز أو تتار، فسريعاً يندسّ بيننا مبتسماً يسألنا عما نتكلم فيه وسبب فتح موضوعات الحديث. وكان يفعل ما يستطيعه من وسائل لكي يجعلنا لا نتحدث إلا بالروسيّة. وفي بعض الأحيان كان يرغب في قراءة الخطابات التي تصلنا من أوطاننا، ويبدي رغبته هذه بشكل لطيف يحمل طابع المزاح.

وفي ربيع عام ١٩٤٠ انتقلت مدرستنا من أوديسا إلى مكان قريب من الحدود الرومانية، ثم عدنا إلى أوديسا بعد ثلاثة أشهر من التدريب المستمر. وفي أغسطس تخرجت في مدرسة القيادة الوسطى في أوديسا برتبة "ملازم ثان".

وبعد إجازة أسبوع، تمّ تعييني في قيادة الفصيلة الثانية بالكتيبة رقم ٩٤ في الفرقة السابعة والخمسين. أما صديقي سليمان عزيز فقد تمّ تعيينه في قيادة الفصيلة الثالثة في نفس الكتيبة ٩٤، وكنا معاً حتى عملية الدفاع عن كراس نويا.

ربيع عام ١٩٤١. نحن الآن في أحد المعسكرات بالقرب من آق كرمان. مضت سنتان على فراقنا لوطننا القرم. قدَّمْتُ للقيادة طلباً للتصريح لي بإجازة. فرفضوا الطلب. تلقينا أمراً بتعليم الجنود وتدريبهم أصول طرقة صوفاروف، كان رأسي يغلي كالمرجل. تدريب. تدريب... كانت إشارة الطوارئ والإنذار تنطلق مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الليلة الواحدة. كنا ندفع بالدبابات إلى الغابات وإلى السهول. كنا آنذاك نسحق حقول الفلاحين وندهس محصولاتهم. الفلاحون هناك لا ينظرون إلينا نظرتهم لصديق. كما أن الشرطة العسكرية السياسية لا تجعلنا نقترب

من الأهالي. يقولون إن في كل أرض "محررة" جديداً، أعداء للشيوعية. ثم يأتي جنود مديرية الشرطة السرية ويأخذونهم. لا أدري إلى أين يأخذونهم. لكني أدري أن الفزع قد بلغ بالفلاحين مبلغاً، جعلني أتذكر معه هؤلاء الذين نفتهم السلطة السوفييتية من قرانا عامي ١٩٣٢ - ١٩٣٦. كنت أتصور وأنا داخل خيمتي بعد التدريب، كأني داخل إلى بيتنا. أشعر بالحرية، ربما ساعة وربما أكثر وأنا بمفردي في خيمتي، حتى انطلاق صفارة الإنذار التالية. أكون بمفردي مع أفكاري وبالقرب من زاوية السرير صورة لكل أفراد عائلتي وصورة أخرى لبكر بمفرده. أتحدث إليهم وأنا أنظر إلى صورهم. أنا معهم حتى صفارة الإنذار التالية. أكون كما لو أني أستمع إليهم. كم أود أن يكون بكر بجانبي أنظر الآن إلى صورته:

يركب على حصان. على رأسه قلنسوة شركسية ضخمة حتى حاجبيه السوداوين اللذين يبدوان وكأنهما مرسومان بالقلم يلبس ملابس شركسية والخنجر يتدلى من وسطه.. أذكر أن هذه الصورة التقطت له وهو في السوق وكان يركب فوق حصان خشبي. كان في الثالثة عشرة من عمره. وهو الآن يقترب من نهاية السابعة عشرة من عمره. لكن ما زالت الرحمة ترتسم في عيني ذلك الطفل ذي الثلاثة عشر ربيعاً. إنه لا يشبهني كثيراً. إن في نظراته اختراق ظلمات الحياة ورؤية جميع الأسرار. خطابات أمي يكتبها بكر. وعندما أقرأ كل خطاب ترسله لي أتذكر أمي وهي جالسة بجوار المدفأة تلتحف شالها في وسطها، أراها بعيني المغلقتين، أمام المدفأة وهي تمسك تبغاً في دقة الثقاب بينما تملي على بكر خطابها. ويضيف بكر من عنده في آخر كل خطاب بضعة أسطر. يقول بكر في أحد الخطابات:

"مضت - حتى الآن - سنتان، منذ التحاقك بالجندية. تقدّمَت أمُّنا في السّنّ قليلاً في هاتين السنتين. كانت أمُّنا تضع وأنت معنا شالاً وأحداً على وسطها أما الآن فتربط ثلاث شالات. تأخذ هي مكانها بجوار المدفأة وتجلس. ننام نحن وهي ما

زالت في مكانها تأخذ التبغ واحدة تلو الأخرى. تستيقظ في الصباح مبكرة جداً. وأول عمل تقوم به تقديم القهوة إلى والدي وهو ما زال بعد في سريره. وأول حديث يبدآن به، لا بد أن يكون عنك". يقول بكر في آخر خطاب له: "كانت أمُّنا صباح الأمس تنظر من النافذة مثلما يحدث كل يوم وكأنها تنتظر ساعي البريد؟ وعندما تراه يمر من أمام النافذة تهتف به أن يدخل لتملأ له حقيبته بالقمح والسمن والسكر والكمثرى والتفاح المجفف؟ مسكينة! تظن أنها كلما أكرمت ساعي البريد فسيأتيها بخطابات كثيرة منك. وأنت يا أخي الكبير عليك بدورك أن تراعي خاطرها وتكتب لها كلما سنحت لك الفرصة ووجدت وقتاً. إنك كتبت في خطابك الذي تسلمناه الأسبوع الماضي أنك وصلت إلى أوديسا. عندما كنت أقرأ خطابك على أمنا في تلك الليلة كان عندنا بعض الضيوف يشربون القهوة: إنهم جيراننا محمد آغا وزوجته الخالة زمينة، وبعض المعارف الآخرين. قرأت خطابك على أمنا، ولما انتهيت من قراءته سألتني قائلة: "أين أوديسا هذه؟" ردّ عليها والدنا قائلاً: إن أوديسا تقع في مكان أقرب من المكان الذي كنت أنت فيه من قبل، ومع هذا يا صادق، فإن المسكينة كانت تريد أن تعرف هل أوديسا هذه داخل بلادنا القرم أو خارجه، أما أنا فوقفت بجانبها لأقول لها:

- يا أماه! ألم تمري ولو مرة من "طاوشان بازار" وأنت تتجهين من "يالطا" إلى آق مسجد.

قالت:

- نعم مررنا من هناك يا بني.

- ألم تشاهدي المباني الحجرية الحمراء على ناصيتي الطريق بعد "طاوشان بازار" بمسافة؟

- نعم يا ابني.

قلت لها:

- هذا المكان يسمونه أوديسا يا أمي.

ذاستغرق والدنا وضيوفنا في القهقهة من جراء هذا الحوار. أمنا أيضاً ضحكت.

لكنها استغرقت فجأة أثناء ضحكها، في التفكير، وانهمرت دمعتان من عينيها الممشوقتين إليك. انحنيت عليها وربتُّ على كتفيها وقبلّتها من جبهتها.

قالت لي المسكينة:

- أنت أيضاً يا بكر ستذهب، وسأفقد عقلي بعد ذلك تماماً.

تسلمت هذا الصباح خطاباً ولفافة، أرسلتهما لي أسرتي. انتظرت انتهاء التدريب اليوم بفارغ الصبر. وعند المساء، تركت الجنود للجاويش وذهبت إلى خيمتي. تمددت على السرير، وأنا مجهد مرهق والحذاء العسكري في قدمي. بملابسي. والغبار والطين يملآن وجهي.

أقرأ خطاب بكر، يقول:

"أخي الكبير صادق يا من نحبه كثيراً ونحترمه كثيراً، مضى أسبوع ولم نتلق منك خطاباً. أمنا قلقة، تقول: "هل أخذوا ابني إلى مكان أبعد من أوديسا؟". إن كل خطاب منك إليها شفاء. لا بد أن تكتب لها كثيراً يا صادق. جاء خالنا بالأمس من القرية، خالنا منصور، أعد لك هذه اللفافة هذا المساء. وإني أرسلها إليك مع هذا الخطاب. ستجد في هذه اللفافة خمساً من تبغ قيزيل طاش وملوية وخوخ وتفاح وكمثرى من محصول القرية.كما وضعت أمي شيئاً ملفوفا في قطعة قماش مرقع. أظن أنها تعويذة. انتحى والدنا جانباً بخالنا منصور وأخذا يتحدثان فيما بينهما حديثاً طويلاً. ويبدو أن والدي يريد أن ينتقل إلى القرية.

لكنه لم يتخذ قراره بعد. يبدو متخوفاً من هذا. إن كونك ضابطاً في الجيش الأحمر يشجعه على هذا. أما أنا فأقف ضد هذا الرأي. إنك تعلم أنهم إذا قرروا نفي أحد، فإنهم لا يعترفون إن كان الواحد منا ضابطاً أو مدنياً. إنهم يسوقون كل شعب القرية. ثم إنك تعلم أن بيتنا في القرية قد سكنته عائلة روسية فرونجلية. وخالي يقول: إننا نعيش تحت سقف واحد، والبيت يتحملنا.

لا أدري ماذا سيحدث بعد ذلك. لكني سأكتب لك مرة أخرى عن هذه المسألة وسأخبرك عما يحدث فيها. يخيّل إلينا عندما نقرأ الصحف أننا نسمع أصوات قرع الطبول في أوروبا. آه لو ترى يا صادق - أجارنا الله - مجموعات الجنود داخل مدينة آق مسجد! كلهم روس. يقولون إن الكثير من التتار يجندون في الجيش الأحمر. لكنهم يرحلون خارج منطقتهم.. أمنا تقول إن الحرب ستندلع لا محالة. إنها تحس بذلك.. هذه التجمعات لا تحدث إلا قبل الحروب. تبكي وتقول ماذا سيحدث لابني ورائحة الحرب في الجو؟! يبدو أنها تتحدث بالحقيقة، فهناك أخبار واردة من آفيار تقول إن المدافع الرشاشة توضع على الأسطح هناك. يقولون إن المدافع قد نصبت في جبال آي بتري وفوق الهضاب أيضاً لكن الصحف لا تكتب شيئاً. لا ندري إن كانت المدافع ضدنا أم ضد تركيا. يمكن أن تكون ضدنا وضد تركيا أيضاً. وعلى ذكر الصحف: خطر ببالي أن أرسل إليك صحيفتين في لفافة أحداهما (الكمومسمولتن) والأخرى (القرم الحمراء) واسمها القديم، عندما كنت أنت هنا: (القوة اليانعة) والثانية (العالم الجديد). تغيّرت أسماء الصحف كما تغيرت الحروف أيضاً. حلت الحروف الحمراء محل الحروف اللاتينية في كل مدارس التتار وصحفهم. يقولون إن الحروف الروسية أكثر ملائمة لأصوات اللغة التتارية من الحروف اللاتينية. ها! ها! أريد الضحك بدلاً من أن أبكي. إني واثق من أنك تهتم بالحروف الجديدة.. تحياتي إليك. أرجو من الله أن تكون بخير وسلامة، وأن تعود في أقرب وقت إلى الوطن".

دوّخني خطاب بكر، وكذلك فعلت الصحف. تسد حلقي إحساسات وذكريات مرّة تتجسّم في نفسي فتضيق بها ضيقًا واضحًا. رأسي يدور، وعيناي تسودان. أريد أن أجري وأنا أحمل الصحف في يدي من أول المعسكر إلى آخره، وأصيح قائلا:

- يا قتلة! أيها القتلة!

تزبدّ الأمواج في داخلي كأنها في أشد أوقات البحر الأسود هياجًا. لكني لا أستطيع أن أخرج هذه الموجات من داخلي فألقيها بعيداً. أريد أن أخنق هذه العواصف في داخلي بأن أضغط قبضتي وأسددها إلى فمي. إنها تخنقني. ورويداً رويداً أتحول إلى حالة من السكون النهائي مع دموعي وهي تسيل من على خدي.. إلى متى؟! لا أدري. أنظر إلى الصحف. كل الكلمات التتارية والجمل التتارية مكتوبة بحروف روسية. كلما أنظر إلى هذه الحروف أجد نفسي تنفر وتشمئز من لغتي. من هذه اللغة العذبة التي تحدثت بها أمهاتنا وهن يهدهدن أطفالهن الصغار. هذه الحروف الروسية قبيحة وجلفة إلى حد أنني لا أدري لماذا أنظر وكأنني أرى يد طفل تتاري تكتب على سبورة الفصل، اللغة التتارية بحروف روسية. رأس صغير بلا عينين ويد ضعيفة لا تختفي صورتها من أمامي. أبكي؟! لا! أريد أن أضحك. كتبت لأبي أن يرسل إليّ في رسائله بعض أسطر من ملامحنا الوطنية. ترى. هل سيرسل أبي إليَّ "السيرة النبوية" و "ملحمة جورا باطور" بأحرف روسية؟!

لم تعد لي حاجة إلى البكاء، فإني أعلم أن التتاري الأصيل لن يقرأ هذه الصحف أتذكر كلمات أبي: "إنهم يخافوننا يا صادق! إنهم يخافون من وجودنا ومن كياننا"؟ كم كان والدي على حق! إني لا أبكي الآن فإني أعلم أن أعداءنا يخافون منا. إنهم يريدون ترويسنا[١٣]. لأنهم يخافون منا. أجد نفسي سعيداً الآن. كما أجد جسدي وهو في داخل البذلة الروسية العسكرية متيناً كالصلب!

---

[١٣] الترويس جعل الشيء أو الشخص روسيّا، نسبة إلى روسيا.

المساء والظلام يرخيان سدولهما على المكان ببطء، ورياح تهب من البحر الأسود فتمنح قلبي الأمان، وتمنح جسدي الراحة. وأنا هنا وحيد. أنظر إلى الصحف ضاحكًا، يصيح سليمان من الخارج قائلاً:

- هل أنت في الداخل؟!

- نعم. ادخل.

- يدخل سليمان خيمتي. شعره المقصوص حديثًا، مفروق في الوسط. كم تجذب بدلته الرسمية العيون! مسكين! كم يحب هذه البدلة الرسمية. وكم يفخر بها.

يقترب من سريري ويقول:

- أإلى الآن تقرأ الجريدة؟

- نعم خذها أنت أيضًا واقرأ.

قذفت بالصحف أمام سليمان. يريد قراءتها ولا يستطيع ينظر بدهشة إلى الكتابة.

- إيه! فيم تفكر؟

- الكلمات تتارية وأحرفها روسية.

- ها هو ذا خطاب بكر. يقول: إن كل الكتابات ستصبح بعد هذا بالأحرف الروسية. ما رأيك في هذا؟

- وماذا أقول؟! لا أدري!

تتجمع الآلام في نفسي مرة أخرى. لكني أغضب من سليمان هذه المرة. لماذا لا يفكر مثلي؟

- ماذا يعني "لا أدري" ! أنظر إلى هذه الحروف وأقرأ. ماذا تسمي هذا؟

يقذف بالجريدة إلى الأرض:

- وماذا سأقول: فلتُكتب بأي شكل مناسب. نحن يا أخي مجندون. كما أننا بعد ذلك سنكتب بسلاحنا وليس بالقلم.. فالجيش الآلماني الآن على حدود بولندا.

وقبل أن يتمم سليمان كلماته، إذا بي أقفز من فوق السرير وأجمع الجرائد من على الأرض وأدفع بها إلى أنفه وأنا أقول:

- أنت لا ترى إلا ارتداء البدلة العسكرية ولا تعرف إلا التبختر بها وتحية النساء، هذا ما تجيده. لكن إياك أن تمس أحاسيسي التي أكنّها لأمّتي بأي أذى، لا تمس أحاسيسي في هذا ولا مشاعر غيري أيضاً.

لم يستطع سليمان أن يفهم ما أعانيه، ذلك لأنه كان يراني دائماً صديقاً عادياً بسيطاً، فنظر إلى وجهي في دهشة بالغة، ثم أخذت سحنته في الاصفرار وشفتاه في الارتعاش ظاناً أن شيئاً ما قد حدث لي.

- عزيزي صادق، أنا لم أقل لك شيئاً!

- طبعاً لم تقل. وليس عندك ما تقوله حتى تقوله. أنت دائماً هكذا يا سليمان وهكذا كنت أيضاً في المدرسة.

- وكيف؟

- ونحن في المدرسة كنت أنت تلقي الحصى والحجارة على الفتيات الروسيات اللاتي كن يعملن في المصنع الذي بجوار مدرستنا، أما أنا فكنت أهرب، فتسخر أنت مني وتصفني بالأرنب المذعور؟

- وما علاقة هذا بجرائدك هذه؟

- علاقة كبيرة جداً. تلك الفتيات الروسيات كن أضعف منك ولم تكن تخاف منهن فكنت تلقي عليهنّ الحصى والحجارة.. لكنك كنت تفر سريعاً من أمام الخطر إذا كان كبيراً. إنك تحب بذلتك الرسمية حبّاً ملك عليك شغاف قلبك حتى ليتصور الواحد منا أن والدك وجدك قد ولدا وهما يرتديان هذه البذلة العسكرية. لو قامت الحرب غداً بين تركيا وروسيا: لعلك توجه بندقيتك ورصاصك إلى صدور الأتراك! من يدري! سليمان! ألا ترى هذه الحروف!.. إنهم يقومون في كل مكان، في الجيش وفي منازلنا، في الشوارع، وفي كل خطوة، بتنشئتنا على حب الوطن وعشق الوطن. أهذا هو الوطن! أهذا هو الوطن الوحيد الحر الذي يملك عليك زمام قلبك ونفسك!

كان سليمان يخرج رأسه بين الفينة والفينة - وأنا أتكلم - من خارج الخيمة لينظر ويرفع إصبعه على شفتيه ويقول:

- صه! تكلم بصوت خفيض يا صادق.

داومت كلامي بعد أن أخفضت صوتي قليلاً:

- انظر يا سليمان إلى هذه الصحف. إن لغتك هي لغتي.. لغة آبائنا وأجدادنا. كيان الأمة، لا يظهر إلا بلغتها وبوطنها. أليس كذلك؟ منذ مائة وخمسين سنة، نفانا الحكم القيصري الروسي من وطننا، من جنتنا. ارتكب فينا عمليات إبادة وتقتيل. والحكم الروسي الشيوعي الآن يقوم باغتيال اللغة التتارية الحية التي يتحدث بها حفنة من التتار هنا وهناك.

أتمدد على السرير. آخذ رأسي بين يدي، وأنظر إلى سليمان، وكأن ألمًا يخرج من أعماق قلبي ليختبئ خلف ابتسامة خفيفة في وجهه:

- هيا يا صادق، لقد أهلت علينا التراب وألقيت على وجوهنا الوحل.

لم يستطع قول شيء أكثر من هذا. ربما لا يستطيع الكلام حتى لا يكدرني. تمددت على سريري. أنظر بدقة إلى سليمان. أريد منه أن يتحدث أن يعترض على ما قلته. لكن سليمان لا يرفع له صوتاً.

- ألا تكلمت!!

- قد تكون على حق، لكني أردت أن أقول لك إننا جنود. ليس لنا في الأمر شيء. العلماء لمثل هذه الأشياء. عليهم أن يفكروا فيها.

انطلقت فورا أقول له:

- لا، لا، لا يا سليمان! أنت تعلم جيداً مصير الشخص الذي يفكر مثلي، عالمًا كان أو لا يعمل بالعلم. ثم إن اللغة ليست لغة العلماء فقط. إنها لغة كل شخص لغة الراعي ولغة الفلاح، لغة كل الأمة.. كل فرد.

- هل تستطيع أن تشرح هذا لقروي جاهل. في الأسبوع الماضي التحق بفصيلتي خمسة جنود. أربعة منهم قيرغيزيون، وواحد منهم تتاري مثلنا اسمه كريم وهو فلاح من أسكوب. مجروح في فخذه منذ حرب فنلندا.

يطبق نظام الجيش بحذافيره.. وهو يتولى الخدمة هذا المساء في ساحة الدبابات، هذا الولد جاهل جداً. لو قالوا له اقتل يقتل، احرق! يحرق. يقول: أنا لا أفهم في السياسة ولا أعرف الخط، لكن انظروا إلى صدري تجدون عليه ميداليتين: واحدة منهما ميدالية العلم الأحمر، والأخرى ميدالية النجم الأحمر، فكيف إذن تقنع واحداً مثله بأشياء كالتي تتحدث عنها؟ الأمور عنده واحدة، سواء صدرت الصحف باللغة الروسية أم باللغة التتارية. لا أهمية لقضية اللغة عنده. إنه لا يعرف إلا الأوامر، والأوامر يصدرها الروس ولسنا نحن.

استمعت إلى كلمات سليمان باهتمام. وأخيراً صمت. ساد الخيمة صمت عميق.

- هل كريم الآن في الحراسة؟

- نعم. على بعد مائة متر من الميدان، في جهة الدبابات الثقيلة..

- هل قلت لي إن أحداً لا يستطيع الاقتراب منه، إلا إذا نطق بكلمة السر؟

- نعم، وأنا واثق من هذا مائة في المائة.

- وإذا تحدثت معه بلغتنا التتارية.

- لا تكن طفلاً يا صادق. أنت تعرف الأمر، وتعرف ماذا يمكن أن يحدث.

- وإذا ذهبت إليه بدون كلمة السر، أتعطيني مرتب شهر من عندك؟

- وإذا لم تستطع؟

- أعطيك مرتب شهر.

يضحك سليمان. لكنه يضحك خوفاً. وتعمل الابتسامة التي تعلو وجهه على إخفاء ذلك الخوف.

- وإذا أطلق عليك النار.

لم أجب على سليمان، وخرجت من الخيمة متجهاً نحو ميدان الدبابات. يلحق بي سليمان ليهمس في أذني قائلاً:

- كلمة السر هذه الليلة: (سروال). لا تنسَ! كلمة السر هي: سروال. ارجع يا صادق! لا تذهب!

دفعت سليمان جانبا، وهو من خلفي يواصل كلامه لي:

- سروال! سروال!

أخرجُ من المعسكر. ليل حالك السواد مثل الفحم يغمر الحقول أمامي. لا طريق ولا أثر. ولا أدري بالضبط أين كريم. أتقدم وتحت قدمي أرض رخوة. أمشي بحيث لا يصدر مني أي صوت. أنظر يمنة ويسرة. وكأن الليل يحوي ألف شر. ماذا يحدث لو اتجهت ناحية حارس ليلي آخر؟! أزحف على الأحجار والنباتات الأرضية وأستريح. لا صوت بل ولا حتى رجع صدى. أنهض وأتقدم في الظلمات نحو ساحة الدبابات وأنا أدب بخطواتي مثل عصا الأعمى وأنا أوحي لنفسي بألا يصدر عني أي صوت كان. وأنا مثل أعمى يبحث عن طريقه بعصاه وهو على طريق يجهله تماما. ماذا يحدث لو خرج في مواجهتي شخص آخر غير كريم؟ يأخذ الخوف يتسرب إلى قلبي في بطء. أشعر بحبات عرق بارد في جبهتي. أأتقدم؟ أأرجع من حيث أتيت؟ كريم قروي جاهل كما قال سليمان.. أقف.. أفكر.. تُرى أأواصل التقدم؟.. إني خائف: يداي ترتعشان وركبتاي لا تستقيمان.. لكن لن أعود.. عودتي لن تحمل معنى عند سليمان إلا الخوف. لا أريد لأحد أن يشعر أنني خائف. لقد خرجت من المعسكر وأتيت إلى هنا لكي أثبت لسليمان أن حب الوطن والغيرة على اللغة إنما هما قوتان تدفعان إلى الترابط. لا أستطيع العودة. علي أن أتقدم. أتقدم.. الليل ظلام معتم، ساكن، مخيف. أحس بأني أقترب من الحرس المختفي في جوانب المكان. ماذا لو صاح صوت الآن بشكل مفاجئ يطلب مني كلمة سر الليل؟! كيف سأعرف أنه صوت كريم؟ ربما يكون الصوت، صوت روسي من الروس. لنفرض أنه كريم! ماذا سأقول له؟ ماذا لو أطلق على صدري الرصاص قبل أن تخرج من فمي كلمة أخ؟ أحس بأني أرتعش بشدة. أحس بأن فوهات البنادق قد اتجهت إلى صدري، وإلى ظهري وإلى رأسي، سددها الجنود عليّ من كل مكان. أين أنا؟ لا أدري. أريد أن أرقد على الأرض وأعود من حيث أتيت زاحفا إلى المعسكر. أدعو الله قائلاً: يا رب احفظني! أتقدم أكثر فأكثر، وفجأة يمزق ستار ظلام الليل الساكن صوت مفزع يقول:

- ستوي[١٤] ! كلمة سر الليل!

وفي طرفة عين، إذا بصوت خزانة رصاص بندقية تتحرك.

- أخي! من أنت؟ أتقتل تتارياً مثلك!

لا صوت. أنتظر. لو كان روسياً لكانت الرصاصة قد انفلتت منطلقة إلى صدري. أما إذا كان هذا الصوت صوت كريم..

على طرف لساني كلمة سروال. لكني لا أنطقها. وأسمع في الظلام، صوتاً خفيفاً لكنه حاد، يقول:

- من أنت أيها الأخ؟ اقترب حتى أراك.. اقتربت منه. أرى ظل إنسان يفحصني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.

- الحمد لله أنك جاوبتني باللغة التتارية يا أخي الملازم. كنت والله سأطلق عليك النار. الحمد لله على السلامة، إلى أين هكذا؟

- كنت أتنزه. هل أنت كريم؟

- نعم. ألا تعرف سيادتك كلمة سر الليل؟

- لا.

انحنى على أذني هامسا وقال:

- سروال.

ثم أخذ يدير رأسه يمنة ويسرة. يستمع إلى شيء بجانبنا فيبدو كالذئب مسدداً نظرات عينيه إلى الظلمات.

---

[١٤] ستوي: قف!

- صوت أقدام.. أحدهم قادم..

ويستمر في الاستماع. وفجأة يصيح:

- قف! كلمة سر الليل.

- سروال.

* * *

يخرج من الظلمات شخصٌ أمامنا، إنه سليمان.

- لماذا تركت الملازم دون أن تتلقى منه كلمة سر الليل، يا كريم!

يسكت كريم. يكرِّر سليمان قوله إلى كريم بصوت جاد آمر. ويسأله:

- لماذا، ألا تعرف الأمر؟!

- إنه تكلّم بلغة المسلمين يا سيدي، لذلك لم أستطع إطلاق النار عليه!

يصمت سليمان الآن. أذهب إليه وأضع يدي على كتفه وأقول:

- هيا يا سليمان، فالوقت متأخر.

نسير جنباً إلى جنب، نعود في اتجاه المعسكر، في صمت، وفي الذهن أفكار مختلفة، لكنا نعود ويغمرنا إحساس الجسد الواحد وإحساس الابن في الأسرة الواحدة.

* * *

ذات صباح، وفي ساعة مبكرة للغاية، دخل جندي حراسة خيمتي وقال: إن القائد يستدعيني على عجل. ارتديت ملابسي سريعاً، وخرجت متوجهاً إلى خيمة قائد الكتيبة. المعسكر ما زال يغط في نوم عميق. الحراس، هنا وهناك، يحملون

البنادق على أكتافهم يروحون ويجيئون بصمت. كان بعض الجنود يخرجون من خيامهم ويتجهون نحو المطبخ، يسيرون بخطوات ثقيلة متعبة وهم يدخنون سجائرهم. بعض "الجاويشية" كانوا يقفون أمام الخيام في انتظار وقت إيقاظ العساكر، ناظرين إلى ساعاتهم وهي ساعات جيب مربوطة إلى جيوبهم بسلاسل دقيقة.

دخلت خيمة القائد وكانت منصوبة على جانب المعسكر. كانت هذه الخيمة مزدحمة وقد ثقل الجو بأنفاس الضباط الذين بدوا وكأنهم سكارى من التعب وعدم النوم، وكان واضحاً أنهم لم يجدوا وقتا بعد للحلاقة.

اتخذت مكاني بجوار سليمان. وقفنا جميعا نؤدي التحية العسكرية للقائد عندما مرَّ من بيننا من باب الخيمة إلى المنضدة المغطاة بغطاء أحمر اللون. احمرّت عيناه الخضراوان كما انتفخ جفنا عينيه. ويبدو أنه لم ينم حتى الصباح. كما يبدو أنه كان يبكي وفي وجهه تعبير صادق عن الألم. تجمعت كل آلام نفسه، في جبهته وبين حاجبيه الكثيفين. يقف خلف المنضدة وكأنه لا يرانا. قال بتؤدة وبصوت مخنوق:

- أيها الأصدقاء!

ثم سكت، فحصنا جميعاً بعينيه وبعدها استمر في كلامه، وكأنه مضطر إلى إلقاء خبر سيء.

- أيها الأصدقاء! لقد اعتدَتْ القوات الجوية الألمانية الفاشستية قبل ثلاث ساعات، على بلادنا وضربت مدننا: سيفا ستبول، وكييف، ومينسكي بالقنابل.. وبهذا أكون قد أخبرتكم بأن الحرب قد بدأت.

توقف شيء في حلقي. سليمان وهو بجواري: نظر إليَّ، إلى وجهي ثم أمسك بيدي. ساد الخيمة صمت عميق. توحدت كل القلوب والأنظار. كانوا جميعاً في هذا الصمت المتواصل وكأنهم رأوا الحرب وارتعشوا خوفاً منها. وإذا بصوت يقول:

- أيها الصديق القائد، أتسمح لنا بالتدخين؟

بدأنا في التدخين بأيدٍ ترتعش. تكلم القائد ثانية. أوضح لنا ما ينتظره الوطن منا، من خدمات. خرجنا بعد انتهاء كلامه. يسير سليمان بجواري، كان ينظر إلى وجهي وكأنه ينتظر مني أن أتحدث. وأخيرا قال:

- تصوّر يا صادق أنني كنت مساء الأمس وقبيل أن أنام أدعو الله ألّا يفرّق بيننا.

- إن شاء الله لن نفترق.

- في فصيلتي اثنا عشر تتارياً. تعال عندما تسنح لك فرصة لتتحدث معهم. إني الآن مؤمن بأن لغتنا بالنسبة إلينا شيء عظيم القيمة.

ليس في فصيلتي أنا أحد من القرم كله إلا روسي واحد. أما من التتار قومي فليس ثمة أحد، قلت لسليمان إني سأزور فصيلته في أول فرصة وسأتحدث مع الرجال هناك. وافترقنا.

وسريعاً هدمت الخيام في ذلك الصباح. وانسحبت الكتيبة كلها إلى داخل الغابة التي تقع بعيداً عن المعسكر بثلاثة كيلومترات. تسلح العسكر. وأخذ الحراس أماكنهم في جوانب الغابة. صدرت الأوامر بالقبض على كل مدني يقترب من الغابة، وإحضاره إلى القيادة. وإذا كان هناك من يعترض أو لا يستجيب فلا بد من إطلاق الرصاص عليه. ولم يكن في كل الكتيبة من الدبابات إلا ثماني. صدر أمر بتعيين سليمان قائداً لفصيلة المدفعية باثنين وعشرين مدفعاً تحت أمره. أما كل الجنود الباقين فقد عينوا مشاة.

ولقد كان الجنود المتعبون، ومن يشعر بعلة، والذين يكيلون من أعماقهم اللعنات على القيادة، منذ جاء أمر تطبيق نظام سوفاروف في التدريب، مسرورين من النوم في الغابة بلا عمل ولا حركة. إلا أن هذه الحال لم تستمر طويلاً، ففي الخامس والعشرين من الشهر تحركت الكتيبة بناء على الأوامر الجديدة لتركب القطارات من محطة آق قرمان، لتتحرك نحو الشمال.

(٣)

روما، في ١/ ٥/ ١٩٤٦

في سنوات الحرب كنت سعيداً، حتى في الأيام التي ركز الموت عينيه داخل عينيّ، فماذا يحدث لي الآن؟ لماذا لا أختلط بالناس في الشوارع وأصبح مثلهم؟ لماذا أحس بأنني مغاير لهم، مختلف عنهم؟ لماذا أظن أنني أقل من كل إنسان؟ في داخلي قوتان تتصارعان فيما بينهما. واحدة منهما هي الحياة، أو بمعنى أصح: القوة التي تريد أن تعيدني إلى الحياة. إن هاتين القوتين لا تتوقفان عن الصراع في داخلي، وصراعهما يهز كل كياني من أساسه. يهدمني ببطء. أخاف. لم أعد أخرج إلى الشوارع ولا أستطيع الحياة مع الناس الذين أحبهم. أبحث عمن يأخذني من يدي ويطوف بي في العالم. تُرى هل يمكن أن أجده؟ ربما. وإذا لم يكن؟! إني بقلبي وبفكري متجه إلى الله خالق كل شيء على وجه الأرض: خالق الحيوانات وخالق الجمادات. لا تتخلّ عنّي يا رب! اللهم احفظني!

يخيم الظلام. أسطح روما تظلم. وأنا بمفردي في غرفة الفندق. لا أستطيع تحمل حياة الوحدة. ينبغي أن أخرج. يجب أن أتخلص من نفسي ومن نفسيتي لأصبح إنساناً عادياً. أخرج وأذهب إلى المنتزه. أفكر في قريتنا وأنا جالس في ناحية خالية. اليوم أول مارس. ما أجمل الحدائق الآن هناك! على كل حال يبدو أنه من الصعب ملاحظة المنازل المدفونة في الخضرة، من بعيد. الظلام يهبط هناك الآن. فالشمس قد غربت منذ قليل؛ خلف الهضاب هناك. وفي الصيف يقوم الفلاحون هناك بتناول طعام عشائهم تحت الأكواخ الخضراء الموجودة أمام منازلهم؛ عيناي مغلقتان لذلك أرى هذه المنازل وتلك الحدائق، بل وأتجول في تلك القرى.

انتقل والدي في صيف ١٩٤٣ من (آق مسجد) إلى القرية، وقبل أن ينتقل إلى القرية، كنت أنا قد دخلت القرم في إجازة وأنا أرتدي البذلة العسكرية الألمانية، ولم يكن لذلك أي داع. ماذا يفعل الآن هذا المسكين؟ ترى هل ألقى به الروس في غياهب السجون؟ ولو كان في السجن فعلاً فلن يستطيع تحمله وسيموت فما بال أمي المسكينة؟ أين هي يا ترى؟

أريد أن أترك الحياة وأهرب. ولكن إلى أين. إلى أي مكان. لن أقعد هنا وحيداً لا أستطيع الحياة هنا. لم أعد أنا صادق القديم. ماذا حدث لي يا ربي؟!

يعاودني صداع في رأسي ويوجعني!

تمر أمامي فتاتان إيطاليتان، شقراوان تعلو المساحيق وجهيهما، تطلقان القهقهات، وكل منهما في ذراع زنجي أمريكي. تسمع روما الصامتة قهقهاتهما. أستغرق في التفكير. تباً لك يا روما! يا أيتها المدينة الكبيرة، البيضاء الرخامية. أنت وكل الحياة معك، تحت أقدامهما، إذا فقدتا واحدا، تجدان الآخر، وهما فرحتان. لكنك تعرفين كيف تخبئين في نفسك اضطراب الزمان، دون أن تبكي، وعليّ أنا بدوري ألّا أبكي! لا بد أن أظهر بمظهر المعتز بنفسه مثلك. ذلك لأني لم أخسر، لأني لم أسلم هذا الوطن الأخضر إلى أعدائي إلا بعد أن سكبت من دمي ما سكبت.

يرخي الظلام سدوله. الشوارع تظلم. تصدح أصوات الموسيقى من النوافذ المفتوحة في المطاعم. تتجمع أصوات الموسيقى لتفيض على جوانب المكان. أنهض لكي أعود إلى الفندق وعندما وصلت إلى تمثال إيمانويل الخامس، أتت كتلة بشرية قادمة تموج، كأنها نهر قد فاض. أرتعش. السبب في هذا على ما يبدو هو أنني ذهبت منذ يومين إلى السينما، فعرضوا قبل عرضهم فيلم جاري كوبر، عرضوا فيلماً؛ فرش أمام العيون، معسكرات (بلسن) الجماعية بمآسيها الفظيعة، كنت مضطراً لأن أخفي رأسي في الكرسي، من عظم خوفي، عندما رأيت على الشاشة آلافاً من الناس يرقدون في حالة موت وقد برزت عظامهم وظهرت. تمتم إيطالي سمين، يجلس على الكرسي الذي بجانبي، ببعض أشياء. ربما كان يشتمني. وها أنذا الآن أرى الناس الذين يتجهون نحوي كأنهم آلاف الهياكل العظمية النحيلة النحيفة. وقد تخلصت فجأة من لفائف السلك المحيط بمعسكرات (بلسن).

ومن شدة فزعي صعدت على درجات التمثال الحجرية كأن سيلاً من الناس، يفيض أمامي ويصيح قائلاً: يحيا السوفييت، يحيا ستالين! ثم مضى السيل البشري فنزلت الدرجات الحجرية. رأسي متعب. نفسي فارغة. عدت إلى الفندق؟

لا أستطيع هذا المساء أن أكتب مذكراتي. ماذا لو فعلت هذا غداً؟!

جريشة كالاتشوف: صياد من (آلوتشا). متوسط الطول. عريض الكتفين أحمر الوجه أزرق العينين، أشقر الأهداب والحاجبين والشعر، فيبدو كأنه المحصول. كان يفخر باسمه وكان يقول لي من أدراك أن دماء تتارية لا تسري في دمي؟! أمن الممكن أن يسمّونا (كالاتش) هكذا هباء وبلا سبب؟!

أحسستُ، خاصة بعد أن انصرفت من عند سليمان والشباب القرميين الآخرين، بأحاسيس رقيقة في قلبي - لا أدري مصدرها - تجاه هذا الروسي الأشقر. وعندما نظرت في عينيه الزرقاويين اللتين لا توحيان بأي معنى بدأت أشعر بأنَّ حبي له حب خالص. لم يكن يتحدث عن نفسه أبداً. كان إنساناً بسيطاً. عندما

اتجهت إليه نهض سريعاً، ووقف على قدميه وأخذ وجهه الأحمر يزداد حمرة. كان يريد بكل قلبه أن يصبح صديقاً لي. كنت أقول له:

- اجلس يا جريشة! اجلس! كلانا قرمي، وسنكون صديقين.

كان يجلس ليأخذ رأسه بين كفيه ويقول:

- إيه! يا آلوشتا! آلوشتا! لصالح مَنْ هذه الحرب.. لو لم تكن هذه الحرب، لكنت الآن في بلدتي آلوشتا، أصيد السمك وتكون أنت أيضاً في القرم. فما ضرورة الحرب لك، ولي، يا صديقي القائد؟!

كنت أرد عليه قائلاً:

- صحيح. صحيح، يا جريشة. لكننا سندافع عن الوطن.

- وطنك ووطني إنما هو القرم. على كل حال سأذهب أنا إلى آلوشتا.

- وماذا تفعل يا جريشة لو استولى الألمان على القرم.

- لا فرق، يا صديقي القائد، الألمان أيضاً ديُّوثون، وكذلك إخواننا الروس.

- لا تقل هذا لأحد غيري يا جريشة! احذر! وإلّا يخفوك في السجون.

- لا تخف! أنا لا أقول لأحد غيرك. أنا أعرفك. لكن لماذا أخاف؟ أنا أيضاً.. ألست قرميا؟

وبلغته التترية التي يكثر فيها اللحن يأخذ جريشة مكانه أكثر فأكثر في قلبي.

وبعد أسبوع منذ تحركنا من آق قرمان نزلنا من القطارات في قرية بأوكرانيا الغربية. كانت هناك بعض أمور فهمنا منها أننا اشتركنا في اللواء الذي يحتل الجبهة في الغرب.

الجنود المتعبون يعلوهم الغبار وقد طالت لحاهم، يرقدون تحت غطاءات أسقف البيوت التبنية. سيارات الصليب الأحمر في الحدائق، الفرسان يسوقون جيادهم في غير انتظام. الجرحى من الجنود يرقدون في عربات الفلاحين. والضباط غارقون في العرق يهرولون من مقر قيادة إلى مقر قيادة أخرى.

وبينما كان الجنود يقومون بإنزال دباباتنا من القطار، كنت أنا قد توجهت إلى القيادة التي نصبت خيمتها في الجانب الآخر من القرية. كل مكان ممتلئ بالجنود. المنازل والطرق، والحدائق، بحثت عن سليمان لكني لم أجده. تبدو خيمة القائد وكأن الضباط من أصحاب الرتب الكبيرة قد احتلوها. قال لي ضابط خرج الآن من الخيمة:

- هل أنت صادق طوران؟

- نعم أنا.

- إذن فلقد جئت في الوقت المناسب فقائد الكتيبة يبحث عنك.

دخلت الخيمة ووقفت أمام قائد الكتيبة وقلت:

- الملازم صادق طوران قائد فصيلة الدبابات! وأنا تحت أمر سيادتك أيها الصديق القائد!

كان قائد الكتيبة روسيًّا طويل القامة، ذا شارب أبيض مبروم مثل قرني الثور، سليماً مثل شجرة السرو، يبدو خشناً لكنه ليس بقدر ما يقول به مظهره، كان يُسَرّ، عندما يصافح الضباط الأصغر منه رتبة من الذين يعملون تحت إمرته. ولم تنسه الحرب، عادته هذه، كما كان لا بد أن يحدث، فقد صافحني أيضاً يداً بيد، وقال:

- كم دبابة في الفصيلة يا طوران؟

- ثمانية يا صديقي القائد.

- هل كلهم ب ٢٧؟

- إنها لا تغني كثيراً في الحرب. أليس كذلك؟

- نعم أيها الصديق القائد.

- أعلم أنها لا تغني شيئًا كثيراً ولكن ليس لنا من حل آخر.

جال القائد بنظراته الكدرة بين الضباط الآخرين من ذوي الرتب الكبيرة ثم تبادلوا جميعاً النظرات فيما بينهم.

- لا أستطيع إمداد الجنرال ماكسمينكو، بغير هذا، وفي رأيي أن الذهاب بكل الكتيبة إلى جبهة (كوتوفكس - بالكا) لنجدة ماكسمينكو معناه ترك كرانسوي، مفتوحة أمام الجناح الأيمن للفرق الألمانية المتقدمة نحو الجنوب. إن هذه المسؤولية ضخمة.

- إن ماكسيمنكو يصارع العدو الآن بالبنادق والسلاح الأبيض، لأنه منذ يومين لا يملك دبابة واحدة، ولا حتى مدفع.

- لو استطاع الصمود، لا لثلاثة أيام، ولكني أقول أسبوعاً، ولو انطلقنا بكل قواتنا لنجدته، فإني واثق من أننا لن نستطيع كسر السلسة الفقرية للقوات الألمانية المرابطة بين يالطا وكوفوتسك.

- أتنكسر هذه القوات في خطّ (بوك) ؟

- ربما لا تنكسر أيضاً في خط بوك، لكن عمودها الفقري قد ينحني ولا يستطيع خط دفاعنا الطبيعي في كرانسوي أن يوقف الهجوم الألماني لكنه قد يستطيع أن ينقذ ماكسيمنكو عند مفترق كوفوتسك - يالطا. فِرَق العدو تركت كرانسوي وستتجه نحو فوزنس نسك.. يعني إلى ماكسيمنكو ...

انحنى القواد على الخريطة الموجودة فوق صناديق الذخيرة. وبعد أن شاهدوا على الخريطة، المواقع التي يتحدث عنها قائد الكتيبة؛ اعتدل القائد واستدعاني إلى جانبه.

- اذهب يا طوران إلى الدبابات. كونوا بجانبها، يجب ألا يبعد أحد عن الدبابات وانتظر أمري.

خرجت من الخيمة وعدت إلى حيث تقف الدبابات.

علمت في اليوم التالي، أن كل المدفعيين الذين مع سليمان قد خرجوا مع إيفان الكساندروفيتش شيشكوف الموجه السياسي للفرقة، خرجوا من فرونسنسكي ويتقدمون نحو كرانسوي. وتلقيت صباح أول سبتمبر أمراً بالتقدم نحو جبهة كوفتسك - يالطا، بثماني دبابات. تحركنا فوراً، وسرنا طوال اليوم وسط سكون تام، القرى فارغة وصامتة وكأن الحياة قد اختبات تحت الأرض، حتى الحيوانات لم يكن لها وجود. وقبيل الغروب فقد بدأت من على اليمين ومن على اليسار سيارات نقل الجنود تسير بسرعة كبيرة. الجنود والضباط في هذه السيارات يلوحون لنا بأيديهم بغية إخبارنا بشيء. كان بعضهم يريد أن يقول لنا بإشارات يديه أن ارجعوا! أما نحن فكنا نواصل تقدمنا. كنت بمفردي في برج الدبابة كلما نتقدم في الطريق نجد أن الطريق قد زاد ازدحاماً. كانت عربات المدافع ثم الجنود المشاة يتقدمون ومن بعد تأتي سيارات النقل. الضباط يركبون عربات الفلاحين. والجرحى والضعفاء كانوا بلا أسلحة، ورؤوسهم بيضاء يلتحفون بالقماش الدامي. كان الفرسان من ضمن الذين يمرون في هذا الازدحام. كان بعضهم يسخر منا فكانوا يصيحون بنا قائلين: «أإلى برلين تذهبون!!".

بعد نصف ساعة، أصبح الطريق مزدحماً إلى درجة أن لو ألقيت إبرة من فوق، لم تكن تسقط على الأرض. زحام من الناس والجياد والعربات تتدفق وسط صيحات نحو الخلف إلى كرانسوي. أخرجنا الدبابات من الطريق إلى السهول وتقدمنا. كانت

أصوات المدافع تأتي من بعيد، وكأنها أصوات طبل يدف في منازل أغلقت أبوابها. توقفنا. كانت أمامنا غابة ضخمة سوداء. كنا أحياناً نسمع قصف المدافع يأتي من اليمين. وأحياناً من الشمال. تتصادم طلقات المدافع مع الأصداء المقتطعة من صدر الغابة ثم كانت تختنق في أعماق الغابة مرة أخرى. كان الجنود في أبراج الدبابات السبعة التي تتعقب دبابتي ينظرون نحوي في دهشة.

- الجاويش واسيليف! بجانبي!

- الجاويش ما سيليف! إلى جانب القائد!

- الجاويش واسيليف! إلى جانب القائد!

صوت ضجة الدبابة التي في المؤخرة. وبعد دقيقتين اقتربت دبابة الجاويش واسيليف بجانب دبابتي.

- واسيليف!

- أوامرك أيها الرفيق القائد!

يزأر مدفع خلف الغابة، على اليسار صوت مجموعة من الأوزّ في حقل قصب بجوار منزل مسقوف بالتبن، يضرب الأوز أجنحته ثم يطير خلف رابية. قال لي واسيليف:

- إن هذه قد سقطت قريباً بعض الشيء.

- على مسافة كم بالتقريب؟

- خمسة أو أربعة أيها الرفيق القائد. يبدو أننا نندفع نحو فوهة العدو. ماذا لو لحقنا بالفصائل المنسحبة؟!

- أنا لم أستدعك بجواري لكي آخذ رأيك.

- نعم أيها الرفيق القائد.

- قُدْ دبابتك. تقدم إلى مسافة حوالي خمسمائة متر أمامنا. وأبلغني بما ترى.

- سمعاً وطاعة أيها الرفيق القائد.

ومرة أخرى أثارت دبابة واسيليف البسيطة البريئة المرتسمة في عينيه الشابتين، أثّرت كثيراً في أحاسيسي الداخلية.

- يا واسيليف! أتخاف الموت؟!

لم يصل صوتي إلى واسيليف بفعل الضجة التي أثارتها دبابته.

- م أسمع أيها الرفيق القائد.

- قلت لك أتخاف الموت؟!

- الموت؟

- تخاف؟

- ياه! الإنسان يولد مرة واحدة في العمر، ويموت مرة واحدة. إما الآن وإما فيما بعد. ما الفرق؟

- خذ مني سيجارة قبل أن تموت. وحذار أن تظنّ أنني إنسان سيء!

قذفت بعلبة سجائر إلى برج الدبابة تلقفها واسيليف ودفعها إلى جيبه.

- أشكرك.

- قلت لك سيجارة واحدة فقط!

- انطلق جريشة والمدفعي الذي بجانبي، في القهقهة.

- شكرا لهذا أيضاً.

أخذ سيجارة من العلبة ثم قذف بالعلبة إليّ.

- مع السلامة.

ظلام خفيف يجثو على المكان، توقفت أصوات المدافع فجأة. الدبابات التي في الخلف تأخذ طريقها بتثاقل، مع مسافة فيما بين بعضها والبعض الآخر، يبلغ حوالي خمسة عشر متراً. كنت في برج الدبابة. تقدمنا في هذا الوضع حوالي نصف ساعة. كان على اليمين وعلى الشمال وكذلك أمامنا: دخان أسود مختلط باحمرار الأفق، يأخذ طريقه إلى السماء. وكأن الحرب كانت تأتي -بكل فظائعها- من هناك ثم تقدم إلينا.

سمعت صوت جريشة يأتي من أسفل.

- أيها القائد.

- ماذا هناك، يا جريشة؟

ونزلت من البرج إلى أسفل. قال المقاتل وهو يمد لي سماعتيه:

- الجاويش واسيليف.

وضعت السماعتين على أذني، فسمعت صوت واسيليف، دقيقاً غير متواصل.

- آلو. آلو! قوات العدو ترابط في الغابة المقابلة. أسرعوا. أسرعوا.

- آلو! الجاويش واسيليف، أتسمع يا واسيليف؟

- نعم أسمع، أنا.

وفجأة انقطع صوت واسيليف.

- واسيليف، واسيليف!

صوت واسيليف لا يصلني عبر السماعتين، أصوات ضجة مستمرة لكنها لا تنبئ عن شيء قط.

- جريشة! خذ الدبابة إلى اليمين. بسرعة خذها إلى التل الذي خلف أرض القصب.

وقبل أن أكمل كلامي إذا بصوت ينفجر كأنه بركان، الشيء الذي لا أستطيع أن أنساه هو: عينا جريشة الخضراوين مثل النار تنظران إليّ بينما رأس جريشة بين ركبتي. وعندما عدت إلى وعيي كان الجزء الخاص بالموتور في الدبابة ينفث في وجهي ريحاً فيها النيران مخلوطة بالدخان. فتح جريشة غطاء الدبابة ونصف جسده خارجاً وأخذ يصيح قائلاً:

- اهرب يا حضرة الملازم، لا تبقَ هنا! اهرب.

خرجت من الدبابة وبينما أنسحب إلى مائة متر نظرت نحو دباباتنا الأخرى من داخل الزرع الأصفر، فإذا برجال المدفعية الألمان وقد أخذوا يصبون نيرانهم متواصلاً على الدبابات السبع لمدة نصف ساعة، ورويداً رويداً أخذت النيران تهدأ. وبين الحين والحين كانت الشظايا تنفجر فوق رؤوسنا.

وصل جريشة زاحفاً وقال، بلغتنا، التي لا يحسنها تماماً:

- أنت أصبت، يا حضرة الملازم؟ أصبت كثيراً؟

- لا يا جريشة.

- انظر! يوجد دم هنا.

- أمسكت بخدي. كان به جرح لا أدري كيف حدث ولا أحس بوجع منه. فكرت قائلاً إن هذا أول قبلة من قبلات الحرب، مسحت يدي في بنطلوني. قال جريشة وهو ما زال ينظر إلى وجهي نظرات غريبة:

- أنت انجرحت! أنت كدت تموت.

- لم يحدث شيء هام يا جريشة. لا يموت الإنسان من جروح صغيرة مثل هذا الجرح، هل نجا أحد غيرنا؟

- نعم. اثنان هناك. ثلاثة هناك. لا أدري هل ثمة جرحى أم لا؟ مات كل من لم يخرج من دبابته. كلهم ماتوا.

وبعد نصف ساعة وصل الجاويش واسيليف. احترقا حاجباه وأهداب عينيه، كان يضحك رغم أن وجهه وعينيه يبدو فيهما الجهد والإعياء. حتى هو، لا يدري كيف خرج من الدبابة المحترقة وكيف نجا. كان يقول لقد أنقذني الله يا سيدي القائد؟ هل ينجو الإنسان وهو وسط النار! ها أنذا قد نجوت. بعد ذلك سأكسر دماغ من يقول إن الله ليس موجودا. وبعد ساعة، تركنا دباباتنا التي أصبحت خردة، ولحقنا بأفرع الجيش المنسحب بسبعة مدفعيين، بقوا على قيد الحياة، من سبعة وعشرين مدفعيًا.

لماذا ألقوا بي بهذه الثماني دبابات إلى نيران مدافع العدو؟ كنا حسب الأمر الذي تلقيته، سنلحق بقوات ماكسيمنكو التي تتخذ وضعها في الكيلو الأربعين من كوتوفسك - يالطا. دمّرتنا المدفعية الألمانية في الكيلو السادس. ماذا حدث لقوات ماكسيمنكو؟ أين كانوا؟ لا أدري.

شمس حارقة رغم الصباح. نتوجه إلى كرانسوي. كانت هذه المنطقة قبل عدة أيام تموج بالحياة أما الآن فالمساكن خالية من سكانها وصامتة. المحاريث الصدئة

وأحراش البيوت. عجلات العربات. أبواب الحدائق نصف المغلقة لعدم دخول أو خروج أحد منها.

هناك عند جدار حديقة، كلب أبيض لكنه قذر، أخذ ينظر إلينا بهدوء، وقد رفع أذنيه وهز ذيله، كما لو كان يعرف أصحابه القدامى. كان للكلب نظرة غريبة. الجاويش واسيليف على يميني وكان يعض على شفتيه النحيلتين بين شعر لحيته السوداء وشاربه الكث، يضحك ويقول:

- لو لم نكن فقدنا الدبابات لأخذت ذلك الكلب معي. ها نحن ذا نتحول إلى جنود مشاة. لا يستطيع الكلب تحمل ما يتحمله المشاة.

أما جريشة الأشقر فلم يكن يائساً وكان يقول:

وما أدراك، لعل القوة ذات السبعين طنّاً قد وصلت!

- افتح فمك في الهواء جيداً. لو تركنا الألمان أحياء حتى وصول ذلك فاشكر الله على سميط المشاة.

جريشة على يساري. لا يظهر في وجهه الغارق في الوحل والتراب غير عينيه الخضراوين وشفتيه الحمراوين. لا يفارقني. كان يجري أحياناً حتى لا يتخلف عنا. في فمه سيجارة لم تشتعل بعد. ليس مع أحد منا كبريت وسيجارته في شفتيه؛ منذ أكثر من ساعة، قضم نصفها بأسنانه وتفلها. وأخذ نصفها الثاني في فمه ينقلها بين جانبي فمه، ويقول:

- طالما أنني لم أجد نارا لأشعل سيجارتي، طالما أنني لم أسحب نَفَس دخان؛ فلن تعرف الراحة إلى نفسي سبيلاً.

يتحدث الجاويش واسيليف من الناحية الأخرى ويقول:

- خرجت من النار منذ قليل فلماذا لم تشعل سيجارتك منها أيها الرجل؟ إذا كان لا بد من النار فاذهب إلى الألمان فسيقدمون لك النار.

- هذا مخ روسي، أيها الجاويش، الأرض كثيرة والخبز قليل، عساكرنا كثيرة وليس لدينا دبابات، عندنا السيجارة وليس لدينا كبريت، لو كان كل شيء على ما يرام لما كانت روسيا روسيا.

يتجرأ الشباب على الكلام بحرية، بعد أول رائحة تخرج من النار والبارود. قبل أسبوعين فقط، من كان يستطيع التحدث هكذا؟ أيقظت الحرب على ما يبدو، الحرية الكامنة في قلوبهم، كما أيقظت أحاسيس الحرية الشخصية. أتظاهر بأني لا أسمع كلامهم لكني مسرور في داخلي أن قلبي يحتاج إلى وضوح. من يدري فلعل الحرب تحمل إلينا أياماً طيبة. على اليمين وعلى اليسار، وفي الحدائق مجموعات من الجنود، ومدافع تحت الأشجار مغطاة بأغصان خضراء. هنا وهناك عربات المطابخ، يخرج منها دخان. وخلف الحدائق وعلى التلال يحفر الجنود الحفرات. تمر بجانبنا أحياناً عربات النقل العسكرية والغبار يخرج منها. يبدو أنهم يقتربون من كتائبنا. ومن بين الحديقة التي أمامنا خرج ثمانية أو عشرة أشخاص. كلهم لحاهم طويلة وملابسهم ممزقة كلهم نحيل وحالهم يرثى له، يحاولون السير. لا أدري من هم، لكنهم لا يشبهون الجنود الحمر. أياديهم خلفهم مربوطة جيداً بوثاق. أغلبهم حفاة، وجوههم مثل وجوه الموتى ناصعة البياض. لكن في عيونهم جميعاً ثقة. أمامهم وخلفهم جنود المخابرات الروسية ببنادقهم وحرابهم، يدفعني الشعور بالاهتمام، فأقترب منهم وأسأل أحد الجنود المسلحين:

- أين يا رفيق قيادة كتيبة الدبابات رقم ٩٤؟

- اذهب من هذا الجانب على هذا الطريق مقدار نصف ساعة على يمين الطريق في داخل الحديقة.

أقول له وأنا أنظر إلى هؤلاء الناس المغلولة أيديهم من خلف:

- من هؤلاء؟

- ضباط بولندا الأسرى.

- إلى أين تذهبون بهم؟

يبتسم الجنود ابتسامة قبيحة ويقولون:

- إلى القصبة.

فهمت من هذا أنهم يسوقونهم إلى الموت، فأتألم من أعماقي.

- وأي ذنب اقترفوا؟

يضحك الجنود مرة أخرى. أفهم من ضحكاتهم الماكرة ومن البرق الذي يقدح لحظة في أعينهم، أفهم أعماقهم وكل وحشية هذه الأعماق.

- أقليل من أعدمناه منهم؟ أعن ذنب اقترفوه تسأل؟

إذن لا سؤال لي عن شيء. يدخلون الحديقة. يختفون عن الأعين بين خضرة الأشجار.

التفت إليَّ رجالي يسألونني عن شيء. لا أفهم بل إني حتى لا أستمع. في أعماقي ألم ألمّ بي، هز كل جسدي وتسلل إلى مخي. أنظر إلى وجه واسيليف ثم إلى وجه جريشة. وجهان نضران متعبان بريئان. يأخذني تفكيري فأقول لنفسي إن هذه الأمة - أرادت أم لم ترد- لا بد أنها ولدت وفي قلبها الخيانة والظلم.

نتقدم. وبعد نصف ساعة نصل إلى حديقة كراز أسود على الجانب الأيمن من الطريق الذي نسير فيه، وندخل الحديقة.

وأمام الخيمة يقف مسؤول سياسي برتبة بكباشي. إنه شخص سمين بعض الشيء، احترق وجهه من الشمس وازبدت شفتاه من الصياح. إنه يفهم، وغالباً من ملابسنا، أننا نأتي من الجبهة، عيناه لا تفارقنا. يتفحصني بنظراته من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ثم يقترب منا. ما زال ينظر إليَّ. وفجأة فتح ذراعيه وأخذ يتكلم:

- صادق طوران! صادق طوران!

إيفان ألكسندروفيتش شيشكوف، يعانقني. في هذه الأيام المرّة من الحرب، أحتاج على ما يبدو إلى وجه أعرفه. لقد سرني أن يستقبلني شيشكوف بهذا الشكل. إنه كما هو، طولاً وعرضاً وجسماً. تفصح عيناه عن السعادة. وأيضاً عن الألم. يمسك بيده اليسرى بندقية بلا غمد موضوعة في حزامه المشدود إلى وسطه ويضع يده اليمنى على كتفي.

- قرم جوك، قرم جوك! إنهم ساقوك بلا معنى ضد الألمان بدباباتك هذه. لكني كنت واثقاً أنك ستنجو من هذا.

لم ننج كلنا يا رفيقي المسؤول السياسي.

- لا عليك. ليست هناك حرب بلا موتى، هيا تعالى لندخل خيمتي، فإني لا أستطيع رؤية وجهك جيداً.

صاح بالجندي الواقف بباب خيمته:

- يا ميتكا! هات ماء للملازم. بسرعة! تحرّك!

الجنود يتمددون على ظلال أشجار الكراز الأسود المحيطة بالمكان. ينظرون إلينا بانتباه. ندخل الخيمة. يحضر ميتكا الماء. ولأول مرة منذ خرجنا من آق قرمان أغسل بالصابون يدي ووجهي.

يسألني شيشكوف:

- هل أنت جائع؟

أنظر إلى الدجاجة المطبوخة الموضوعة على صينية خشبية في يد ميتكا.

- هل أنا جوعان؟ أهذا سؤال؟

جلست على صندوق الذخيرة وأخذت في التهام الدجاجة كما أخذت أفكر في أشياء وأنا أنظر إلى طرف حذاء إيفان ألكسندروفيتش.

- ماذا أفعل أيها الرفيق الكوميسير بدون جنود ولا دبابات؟

أخذ يتحدث معي كما لو كان يود بيان صداقته لي.

- انظر! إني أعرف أنك وكذلك سليمان من الضباط ذوي المستوى الممتاز. وكان أملي فيكما كبيراً في مدرسة أوديسا. كما أن قائد الكتيبة كان يثق بكما. وعند وجود مثلك ومثل سليمان في الكتيبة فلن تُسَوَّد وجوهنا أمام الحزب وأمام الأمة كلها.

أمال رأسه ونظر إلى البندقية وقال:

- لقد تلقينا ضربات من الألمان، من الحدود وحتى هنا. لكن كفى. يجب أن تكون هنا نهاية لهذا. كرانسوي آخر نقطة يا طوران. إذا لم نتماسك في كرانسوي فأهون علينا، أن يقتل بعضنا بعضاً بالرصاص. جيشان ضخمان خلفنا انسحبا إلى الدنبير. إن وجود جيشين في يدنا يا طوران ...

بينما كان شيشكوف يتحدث بهذا، كنت أنا أشرد بذهني، وأفكر فيما بيني وبين نفسي وأقول:

- ماذا لو يسّر الله دخول الألمان موسكو في مدى أسبوعين!

يقف شيشكوف على قدميه. يده على بندقيته دائماً. يذهب ويجيء في طول الخيمة.

- ما أخبار سليمان؟

- نفس السؤال أردت أن أسألك إياه أيها الرفيق المسؤول السياسي.

رأيت سليمان، آخر مرة في آق قرمان.

- تعال وسأريك شيئاً.

نخرج من الخيمة وتركب سيارة الكوميسير المسؤول السياسي شيشكوف، ونتقدم في طريق مترب كثير الحفر غير مُعبّد. كل مكان ممتلئ بالجنود. استعدادات في كل مكان حديث وصياح وضجة، ينظر شيشكوف إلى الاستعدادات التي تقام في المنطقة. وأنظر أنا إلى وجه شيشكوف. وجه متكدر جداً. إن مقصده الخفي الذي فهمته من عينيه في آق مسجد، لم يكن بعيداً عني في هذه اللحظة. يسري هذا القصد في داخلي. يتخذ هذا السريان أحياناً، شكل الخوف. أريد أن أبدأ حديثي عن الجنرال ماكسيمنكو الذي تولى الجبهة فيما بين كوتوفسك - يالطا. وعندما ذكرت اسم ماكسيمنكو كنت كالذي لمس جرحاً في داخل شيشكوف. يضغط على ضروسه، وينتفخ في جبهته الحمراء عرق في سُمْك الإصبع، ومن بين أسنانه أخذ يقول:

- ماكسيمنكو! ماكسيمنكو! إنه خان الوطن وانضم مع مائة وخمسين ألف جندي إلى الألمان. إن المكان الجدير به ليس الأسر فقط. بل تحت الأرض، بل نضعهم أمام الناس في الميادين العامة ليلقوا جزاءهم.

أريد أن أضحك. الجنرالات ينضمون إلى العدو! والجنود يسخرون بالمسؤولين السياسيين في الجيش. أيمكن أن يحارب جنود مثل الجاويش واسيليف وجريشة؟ لو وجد هؤلاء الفرصة المناسبة لا بد أن يهربوا. أريد أن أضحك. أريد أن أنظر إلى

شيشكوف؛ وأطلق قهقهة. منذ متى من الوقت، والسيطرة الروسية البلشفية التي أدخلت الرعب في قلوبنا، تسير وتستمر؟ ها هي ذي تسقط أمام أعيننا.

نخرج من كرانسوي. نحن الآن على الطريق الإسفلتي. نقف بين تَلَّيْن. نترك السيارة على سفح التل الأيسر، بين الأغصان، ثم نتسلق التل. تل بلا حشائش مقفر. تحت خضرة. وأرض فيها قصب خلف الخضرة. يمتد المحصول خلف المياه الخضراء الساكنة التي تصب قريباً من حقل القصب. اصفرت المحصولات. تهتز السنابل الذهبية، وتموج، كما لو كانت أحياء تموج بفعل رياح خفيفة. الحقل الذي به هذا المحصول يمتد قرابة كيلومترين. ويرتبط من بعد بغابة سوداء. الشارع الإسفلتي يمتد حتى الغابة مثل الجمال التي حثت على ركبها لتستريح. ينظر شيشكوف نحو التلال ويقول:

- هل ترى التل الثالث؟

- نعم أراه.

- إن سليمان وجنوده من المدفعيين خلف هذا التل.

- أين نتوقع هجوم العدو؟

- الأخبار التي أوردتها الطائرات تقول: إن وحدات جيش العدو تتجمع خلف الغابة المقابلة. وبناء على قرارنا الذي اتخذناه بالأمس، اتخذ سليمان، صباح اليوم، موقعه، هو ورجاله من المدفعيين خلف التل.

صمت طويل. ثم يسأل شيشكوف:

- وما رأيك؟

أنظر إلى الحقل الممتد أمامنا، وإلى الغابة، وإلى التلال.

- إنها نقطة بعيدة جداً عن كرانسوي وقريبة جداً من الغابة. ولو كانوا اتخذوا مواقعهم في المكان الذي نتواجد فيه، ألم يكن هذا أفضل؟

- لقد رأينا أنا وقائد الكتيبة أن هذا المكان أقل خطراً، نظراً لقربه من الطريق الإسفلتي. هناك مسافة أكثر من كيلومتر ما بين التل الذي فيه سليمان، والغابة. ثم هناك ذخيرة تكفي لضرب العدو بالنيران حوالي ثلاث ساعات. الحقل مستو تماماً مثل الكف. سليمان في الشمال ورجالنا في سفوح كرانسوي وبالتالي لا يستطيع ألماني واحد أن يرفع رأسه من تلك الغابة، يا طوران، وعلى فرض أنهم رفعوا رؤوسهم، فإنهم لن يستطيعوا ذلك إلا بقدر الارتفاع المرسوم أمام الغابة. بعد ذلك لن يستطيعوا. والألمان ليسوا حمقى إلى هذا الحد. ولا أعتقد أنهم سيدخلون الحقل، ولن يهاجموا كرانسوي ولو حدث أن هاجموها لكان أحسن لنا، لو فعلوا هذا لحصدناهم، مثلما نحصد الزرع. الهدف هو حبس العدو أسبوعاً داخل الغابة، ومن ثم في خط بوج.. وإني لواثق بأن دباباتنا الثقيلة ستصل في حدود هذا الوقت. يلزمنا دبابات. دبابات ليس مثل دبابتك وإنما دبابات السبعين طناً. دبابات تي ٣٤.

ركبنا السيارة لنعود إلى القيادة. ازدحام أمام الدار الصغيرة الواطئة؛ ذات السقف التبني. الضباط وقد بللهم العرق يدخلون ويخرجون منه. لكن الضباط الجرحى في صمت. إنهم عاشوا الحرب بكل مروعاتها. ضاقوا بالدنيا وبالحياة، يدخنون سجائرهم كأنهم بشر بلا هدف. ندخل الدار. الضباط ذوو الرتب الكبيرة يتباحثون في أشياء بأصوات خفيفة وهم أمام الخريطة وأقلامهم في أيديهم، هاتف موضوع فوق صناديق الذخيرة، على اليمين، وهناك كان جنديان يتلقيان - عن طريق الهاتف ودون توقف - الأخبار ثم يبلغونها.

يتقدم الكوميسير شيشكوف نحو الهاتف. أقف أنا بجوار الباب. أنظر إلى شيشكوف وهو يتحدث بالهاتف. وبعد قليل، أشار إليّ بيده، يستدعيني بجانبه. أذهب إلى شيشكوف، يمد بالهاتف نحوي ويقول:

- سليمان على الهاتف. يريد التحدث إليك.

أخذت الهاتف من يد شيشكوف، ووضعت السماعة على أذني، صوت سليمان الصديق يأتي عبرها. وشيشكوف يقف أمامي وينظر لي دائماً، وخلف نظراته - مرة أخرى- يبدو لي وكأني ما يخبئه من مقصد خائن.

- معذرة أيها الرفيق المسؤول السياسي شيشكوف فإن سليمان يتحدث معي بلغته الأصلية.

يضحك شيشكوف ويقول:

- كوفوري! كوفوري![١٥]

ثم يتركني ويذهب ناحية الواقفين أمام الخريطة.

يدخل صوت سليمان في أذني.

- أهو أنت يا صادق؟ لماذا لا تتكلم؟

- أنا. كيف حالك يا سليمان؟ كيف حال مواطنينا؟

- كلهم بخير وهم بجانبي الآن. إنهم يتحدثون عنك.

- فتح علينا الألمان النيران بالأمس، وعلى دباباتنا أيضاً: النيران. لعل الرفيق المسؤول السياسي حدّثك بهذا. وعدتُ بسبعة من رجال الدبابات إلى القيادة.

---

[١٥] تكلم! تكلم!.

- يا لك من فاشل! شرح لي المسؤول السياسي الأمر لكنه لن يستطيع أن يأمر بحبسك. إنك ضابط جيد كما يقال. الكوميسير لا يجد لك ذنباً وإنما الذنب ذنب الذين دفعوا بك أمام مدافع العدو. لا أدري لماذا يهتم بك المسؤول السياسي شيشكوف في هذه الأوقات الأخيرة؟

- أصحيح؟

- نعم، أيها السيد الشاعر!

- ولماذا الشاعر؟

- شبابنا يطلقون عليك لقب الشاعر بعد درس اللغة الذي أعطيته لي في آق قرمان.

- سليمان! ألا تدري أن العدو قريب جداً من هذا المكان الذي أنت فيه؟

- لا تخف! لا تخف. يكفي أن يصدر أمر القتال لأسوّي الغابة بمن فيها من الوحدات الألمانية. هيا إذن، فيجب علي أن أذهب.

خرج القادة الذين كانوا أمام الخريطة واحداً إثر آخر من الغرفة. توجهت إلى شيشكوف. وخرجنا بدورنا إلى الحديقة.

يحل المساء، وتهبط الظلمة والسكون على الحدائق وجنود المشاة على جانبي الطريق وتحت حواف مظلات البيوت يمسكون البنادق بين أذرعهم وكأنهم يمسكون بأحبائهم في أحضانهم، وقد تمددوا على الأرض ويفكرون بصمت في الغد.

نمت في تلك الليلة في خيمة شيشكوف المسؤول السياسي، ولم تكن الدنيا قد أنارت عندما أيقظني. خرج شيشكوف من الخيمة، ثم عاد مرة أخرى ثم قال بصوت خفيض وكأنه يهمس:

- أصوات طائرات.. ألا تسمع؟

- أسمع.

ضوضاء طائرات تمر عبر سماء كرانسوي تخلع قلوبنا. يصمت شيشكوف ويستمع. إنه يتلمس مستقبله في هذه الأصوات، يتحدث عن مستقبله وربما يبكي بحرقة وأنا بدوري أنظر بهدوء وصمت إلى شيشكوف. لا يتكلم. يطفئ سيجارة ويشعل أخرى. وكأني أفهم ما يفكر فيه عبر تدخينه السيجارة.

كما أني أحس بالتضاد البالغ بين تفكيره وتفكيري. أحاول ألا أنظر إلى شيشكوف. أغضب من وجودنا معاً في خيمة واحدة. إننا شخصان، جد مختلفين. كلانا من خميرة مختلفة ومن دم مختلف لا نستطيع أن يذوب بعضنا في بعض، فلماذا نكون في نفس الخيمة؟ أحس برغبة جارفة في أن يكون سليمان بجواري، ما زال شيشكوف يدخن السجائر وما زالت الطائرات ترنّ في سماء كرانسوي. أغلقتُ عينيّ فرأيت أمي، ودموعها تنزل من على خديها المتغضنين. ورأيت بكراً بقلنسوته الجركسية. ورأيت والدي وقد انحنى ظهره، وأخذت أطوف في حدائق القرية وفي مروجها، في حدائقها التي تشبه الجنة. في بساتيننا. ها هي ذي الأشياء التي أعيش لها. هذه هي الأشياء التي تجعلني أقف على قدمي. وتربطني بالحياة في ظل هذه الظروف. شيشكوف! انزع هذه الأمور من قلبي! وألقها أرضا! ضعها تحت الأقدام.. في ذلك الوقت أصير وجوداً بلا حياة ولا إحساس، أصبح رجلاً عديم القيمة.

تشرق شمس حمراء ملتهبة خلف حدائق كرانسوي. يخرج شيشكوف من الخيمة، بعد أن يترك بابها مفتوحاً. أبدو وكأني أسعد - ولو قليلاً- عند خروجه من الخيمة، وابتعاده. ما زلت في دوامة ذكريات قريتي.. أنظر إلى السماء التي تشبه، في نظري، الصينية. وأتذكر الشمس المرتفعة الزرقاء خلف جبال آيي ضاغي في أوقات الصباح التي كنت فيها آخذ الحيوانات إلى المراعي في قريتنا. الشمس نفس الشمس. لكن دفء الأرض التي تضيئها تلك الشمس جد مختلف، كما أن تنفسها

مختلف. إيفان ألكسندروفيتش شيشكوف يدخل الخيمة. ينظر ببطولة. لكن الخوف واضح في هذه النظرات.

- بكم جندي رجعت يا طوران؟

- بسبعة.

- أين هم؟

- في الحدائق.

وبإشارة إلى الأسلحة المتجمعة في الناحية الأخرى قال:

- أعطهم سلاحاً، إننا ندخل التل الذي كنا بالأمس، وبعد ساعة واحدة ستبدأ مدافعنا في الضرب.

سلّحنا الجنود. وأخذنا الطريق إلى التل. شوارع كرانسوي خالية صامتة، وكأن كل الحياة قد انسحبت إلى تحت الأرض. تظهر فوهات البنادق من جوانب الحدائق، ومن الحفرات. وأحياناً تزحف مجموعة من الجنود كالثعبان تحت حواف أسقف المنازل. ويختفون وراءها. وهناك، خلف التلال، تتجه فوهات المدافع المرابطة تحت أغصان الأشجار الخضراء، تتجه نحو السماء، وتتجمع جنود المدفعية في الحفرات، خلف المدافع. يعكر صفو المكان بين الحين والحين صوت حركة دوران المحركات. وبين الحين والحين يترامى إلى الأسماع صوت أوامر حازمة وقصيرة، وكلما تقدمنا نحن، بدا السكون. بدا الخوف. يذكرني سكون كرانسوي هذا، بغابة بدائية مليئة بالوحوش. أما الجنود فيذكروننني بحيوانات مفترسة، وفهود وابن آوى. وقد عزم كل منهم أن يصارع الآخر ويمزقه.

نحن الآن - وبعد نصف ساعة - على تل الأمس. ينظر شيشكوف إلى ساعته ويقول:

- بعد خمس دقائق ستبدأ مدافع سليمان في الانطلاق.

يقول شيشكوف هذا، وهو يضع منظاره المعظم على عينيه، وينظر نحو التل، الذي فيه مدافع سليمان.

تمددت منكفئًا بجانب إيفان ألكسندروفيتش وأنا أتصور الدقائق ساعات. الدقائق تغرس ثوانيها مثل الإبر في قلب الإنسان. أنظر الآن إلى التل وأتخيل سليمان أمام ناظري. أود التواجد بجانبه. أرى نفسي مذنبا. ينظر إليَّ سليمان وكأنه إنسانٌ، محسوبة دقائقه. لماذا لست بجانبه؟ يقول الكوميسير شيشكوف ببطء وكأنه يهمس:

- انظر جيداً! سليمان سيطلق النيران.

- أسليمان فقط؟

- مدافع سليمان فقط.

- والمدافع الرابضة في حدائق كرانسوي.

- الهدف هو تجميع نيران العدو على سليمان، وبالتالي إعطاء الفرصة لفصائل مشاتنا، أن تستوي على المرتفعات الواقعة أمام الغابة. إذا استمر تبادل إطلاق النيران، بين مدافع سليمان ومدافع العدو داخل الغابة نصف ساعة، لانتهى الأمر. إني أفهم جيداً، أفهم تماماً هدف الكوميسير شيشكوف. أترك المنظار المعظم وأضع رأسي على الأرض الدافئة بشمس الصباح، وأدعو:

- اللهم احفظ سليمان وجنوده. اللهم احفظ مواطنيّ. اللهم احفظ عبيدك الصادقين!

تبدأ مدفعية سليمان عملياتها. صخب جهنمي.

يرتفع الدخان الملون في صدر الغابة السوداء. ثم أنين مدهش ومرة أخرى، ضربات وحشية تخنق الأنين. وبعد ثلاث دقائق تحولت الغابة إلى بركان. يضرب شيشكوف يده على كتفي في انفعال. ويقول:

- أحسنت يا سليمان! أحسنت أيها التتري! آه! مادوليتس. آه مادوليتس سليمان.

تبدأ المدافع الرشاشة في الحدائق الكائنة على سفح كرانسوي في الخلف. تبدأ في موسيقاها.

- تراتا - تا.. تراك - تا - تا - تا - تا.

وبين انطلاقات المدافع الرشاشة التي تطول أحياناً وتقصر أحياناً أخرى. يأخذ جنود المشاة، المنطلقون من الحفرات، في الهجوم، ما زالت الغابة كالبركان تنفث حممها ولهيبها، لماذا - ولا أدري- أجد نفسي مسروراً؟ جنود المشاة يختفون بين المحاصيل الصفراء يجرون نصف منحنين من الشمال ومن اليمين. الغابة تعوي كما لو كانت تنيناً جريحاً، فترتفع الأنفاس الملتهبة من صدره إلى السماء وكأنه حيوان اهتاج خوفا من أن يموت.

ترتفع طائرتان خلف الغابة وتطيران نحو التل الذي توجد فيه مدافع سليمان. سليمان ينظر نحو الطائرتين، وفجأة تتجهان نحو كرانسوي. وبعد لفة تقومان بها فوق كرانسوي تعودان مرة أخرى إلى مدافع سليمان. وبينما هما تطيران فوق التل تميل إحداها وتسقط داخل الغابة، ومع الضوضاء العظيمة يرتفع دخان شديد السواد من الغابة نحو السماء ويرتفع اللهيب معقوداً في انثناءات من داخل الدخان، ترعد مدافع سليمان بسرعة أكثر وكأنها تصفق لهذا النجاح.

وبعد نصف ساعة بالضبط تسقط أول قذيفة ألمانية أمام التل. إيفان ألكسندروفيتش يقول ومنظاره المعظم على عينيه ينظر بتركيز إلى الغابة، ويقول:

- آها. لقد رد الألمان.

وبعد دقيقتين انطلقت القذيفة الثانية من وراء التل، حبسنا أنفسنا، شيشكوف وأنا، ننظر إلى موقف سليمان. القذيفة الثالثة أصابت الجناح الأيسر. نيران سليمان تخف قليلاً. وبصوت خفيض يقول شيشكوف وكأنه يتحدث مع نفسه:

- الكلاب يأخذون سليمان مقصاً.

أريد أن أفهم معنى هذا، ترتفع بعد ثلاث ثوان أو خمس ومن وراء التل، ستارة من نار ودخان فظيعة. وكأن هذا الحريق لن يخمد ولن ينتهي. يقول شيشكوف:

- ها هو ذا ما يسمونه مقص نيران.

- من خلف التل وحتى السماء، تختلط حمم النيران مع قطع مختلفة من الأرض. أنظر إلى الأمام، يبدو شيشكوف وكأنه يتحدث مع نفسه ويستمر في حديثه قائلًا:

- إلى هنا انتهى أمر سليمان. لن ينجو أحد هناك.

- ألا توجد وسيلة قط، أيها الرفيق الكوميسير؟

- لا! لا توجد أي وسيلة، يا طوران.

يشير إيفان ألكسندروفيتش إلى التل الذي يقع أمام الغابة، ويقول:

- هل ترى هذا التل؟

- نعم.

- أظن أن النيران تأتي من خلف ذلك التل. ولا بد أن تكون مدافع هجوم العدو، متمركزة خلف ذلك التل، ولا بد للقضاء على نيرانهم، من عبور كل حقول المحاصيل، هناك تل صغير على الشمال قليلًا من التل. هل تراه؟

- نعم، أراه.

- أظن أن مؤخرة هاونات العدو تظهر من ذلك التل الواطئ. لكن ما بيننا وبين التل أكثر من كيلومترين. هل تستطيع أن تذهب إلى مدى كيلومترين على ركبتيك ويديك ومن بين الزرع؟

يرفع النظارة المعظمة من على عينيه. أجبته بقولي:

- هذا خطر لا داعي له. سليمان ما زال تحت النيران. والنجاة من هناك أمر صعب. تسود بيننا فترة صمت قصيرة يخيل إليَّ أن سليمان، وهو بين النار والدخان وأعمدة التراب، ينظر إليَّ بعينيه الحمراوين ويطلب النجدة. يداي وقدماي ترتعشان. إني خائف. لا أخاف الموت، لكني أخاف على سليمان. أخاف من عدم جرأتي. حتى لو وصلت لمساعدة سليمان أخاف أن يصيح بي غاضباً ويقول:

- أين كنت حتى هذا الوقت؟ لماذا لم تسرع إليَّ فوراً؟

لا أشعر بالراحة، سليمان في قلبي، يتحدث معي، يستدعيني، وأخيراً أدير وجهي نحو شيشكوف، وأقول:

- ائذن لي، أيها الرفيق الكوميسير بالذهاب.

يضحك الكوميسير شيشكوف ويكتفي بهز كتفيه ليقول:

- اذهب!

أنزل من التل زاحفاً. يأتي معي جريشة وهو يجري في نصف انحناءة. يحدثني وهو غاضب مني.

- عمّ تحدثت مع الكوميسير؟ إني سمعتكما. أنت لا تحبني. أنا أعرف هذا. لأني كافر. أليس كذلك؟ لكني ولدت في القرم. إني أحب القرم، وأحب التتار. لهذا فأنا ذاهب معك قد تموت وأحيا، وقد أحيا وتموت، أيها الملازم سليمان أنا أيضاً رفيقك.

يكبر في أعماق قلبي حب. والآن، وأنا أكتب هذه السطور أتذكر جريشة وأتذكر معه المرحوم أحمد اوزباشلي.. إن شعب القرم باقة ورد تتكون من زهور مختلفة.

يلحق بنا شيشكوف وهو يوجه نحوي زجاجة خمر، وهو يقول:

- خذ هذه يا صادق، فستلزمك.

آخذها منه. ننزل من التل. نعبر القصب. وقبل أن ندخل في الحقل المزروع، أقف على ركبتي عند حافة الأغصان والأعشاب وأمد الزجاجة إلى جريشة. يظهر في عيني جريشة الانفعال والسرور.

- آ- آ- آ! خمر الراقي!! أنت مسلم؛ وبالتالي فإنك لا تشرب الخمر. نعم أنا أعرف هذا.

يأخذ الراقي من يدي ويختفي بين أعواد القصب. أما أنا فلا زلت جاثياً على ركبتيّ أمسك التعويذة التي أعلّقها في رقبتي وأدعو قائلًا:

- يا رب! اللهمّ احفظنا! فإنك تحفظ عبادك المخلصين يا رب.

كانت الشمس حامية. نتقدم - وعلى يميني جريشة - على أربع، على ركبنا وأيدينا وبين الحين والحين يقف جريشة ويتحدث مع نفسه وأحياناً يهمس بأغنية.

أقول له: انتبه يا جريشة! لا ترفع رأسك كثيراً.

لا تخف سيدي الملازم. الألمان لا يروننني. انظر!

يقول هذا وهو يريني بعض أغصان، جافة أوراقها، يضعها فوق رأسه. وفي كل فتحة أزرار من ملابسه، تظهر نباتات صفراء. وهو نفسه، يزحف كما لو كان أغصاناً جافّة. وأحياناً يقف ليمسح عرق وجهه، ويمد إليّ زجاجة الخمر قائلاً:

- اشرب أنت أيضاً يا سيدي الملازم.

أرفض. إنه يريد أن يسقيني خمر الراقي بإصرار. فالسكير لا يخشى الموت! أقول له:

- لا يا جريشة. أخفِ خمر الراقي.

يوافق. ونتقدم. وبين الحين والحين أرفع رأسي، وأنظر إلى التل الذي فيه سليمان. نيران العدو خفّت قليلاً، مرة أخرى. لكن كل جسمي يرتعش عندما أتذكر أوضاع أصدقائنا.

نصل إلى حافة الحقل المزروع. نصعد إلى تل شديد الخضرة، مستوٍ، وصغير، نقف. أمسح عرقي، وأقول لجريشة:

- هل أنت مستعد؟

يزحف جريشة ويتقدم نحوي، ويقول بصوت خافت، لكنه منفعل:

- أنا مستعد يا سيدي الملازم. مستعد. لكن لا ينبغي أن نذهب سوياً، فالأرض مكشوفة، والخطر ماثل، أذهبُ أنا في البداية، ثم تأتي أنت.

يقول جريشة هذا، ولا ينتظر جوابي. ينطلق. يتقدم. وبسرعة البرق يجتاز الساحة المستوية ليرقد على رابية التل. تنقطع النيران فجأة وأنا ما زلت بين الزرع. يلف المكان صمت ثقيل وعميق. أرفع رأسي أحياناً، وأنظر إلى التل الذي يتواجد فيه سليمان مع المدفعيين. دخان بارود مختلط بالأرض، ارتفع بطول السرو، يلتف حول نفسه، ثم يسقط على الحقل المزروع. يرقد جريشة بجانب مدفعه الرشاش وكأنه

ميت بلا حراك. لا أستطيع السيطرة على ركبتيّ. وفي هذه الآونة بالضبط يدير جريشة وجهه ناحيتي، ويشير بيده نحوي أن آتي. وبنفس السرعة أعبر الأرض المستوية وأتمدد بجانب جريشة فيقول لي وكأنه يهمس:

- هل ترى؟

- نعم. أرى ثلاثة مدافع هاون، للعدو، في المساحة المستوية الواقعة بين التل الذي على اليسار وبين الغابة. وعلى كل مدفع ثلاثة جنود، أو خمسة. أغلب الجنود جاثٍ على ركبتيه وبعضه واقفٌ على قدميه. والبعض الآخر منهم في حركة يجرون جيئة وذهاباً. يحملون صناديق الذخيرة من الغابة. ألمس بيديّ المرتعشتين مدفعي الرشاش ومكان الرصاص فيه. ينظر جريشة نحو الألمان بصمت وهدوء. أما أنا فلا أستطيع رؤية وجهه لأني في الخلف. أسأله بهمس:

- هل أنت مستعد يا جريشة؟

يدير رأسه نحوي، وببسمة تظهر منها أسنانه البيضاء يقول:

- أنا مستعد.

فأصدرت الأمر بإطلاق الرصاص.

ضجة قصيرة، متكسرة، وحشيّة، يسقط على الأرض فجأة: ألمانيان كانا يقفان على قدميهما بجانب مدفع الهاون الخامس. وأصيب اثنان في رأسهما. لا يستطيعان الحراك. سيل طلقات مدافع، ثانيتان من الصمت، ثم سيل طويل من طلقات المدافع. أخذت الدهشة هؤلاء الألمان الذي يعملون على مدافع الهاون الأخرى، فهربوا يجرون نحو الغابة. في هذه الأثناء يحصد جريشة أجسام البشر بمدفعه الرشاش كما لو كان يقوم بعملية حصار. أنسحب أنا إلى الوراء قليلًا. نسي جريشة كل دنياه وهو يحمل هذه اللعبة الجهنمية. فمن ناحية يطلق النار بلا توقف، ومن ناحية أخرى يصيح بي قائلًا:

- اذهب أنت! اذهب من هنا.

أترك جريشة وأجري نحو التل الذي فيه سليمان مع جنوده المدفعيين. أحس بغاية السرور لتصوري أني سأنقذ سليمان، وبهذا الفرح سأعاتب سليمان معنّفاً فأقول له:

- أنت طفل. ما لك وللحرب؟ ما عليك إلا أن تمسك أمك من ذيل ملابسها وتسير معها.

سأسخر من سليمان. إني أقترب من التل. لا أحد بجانب المدافع الرابضة خلف التل. ترى هل تركوا المدافع وهربوا؟! إني على التل. الآن، أرى المدافع بوضوح أكثر. ها هي ذي فوهة مدفع منتصبة وعجلات مدفع منفصلة ترقد على بعد أربعة أو خمسة أمتار بعيداً عن المدفع. أنزل من على التل. أبحث عن البشر. لا أجد أحداً. أتقدم نحو المدفع الآخر. إني بعيد عن المدفع بخمسة أو عشرة أمتار جثة! اثنتان ثلاث. أربع جثث. أتوجه نحوهم. وجوههم بشعة. أين الآخرون؟ يلف المكان سكون عميق.

أقف. أستريح. الموتى بجانبي وكأنهم يستريحون معي. أنين يأتي من بعيد. صوت طويل وغريب. ينقطع الصوت أحياناً. يأخذ بعد ثانية أو اثنتين في إصدار أنينه "أو - و - ف. أو - و - ف".

أجري نحو الناحية التي يصدر عنها الصوت. جريح تغرق ساقاه في الدم، ويرقد بجانب مدفع مقلوب. أتوجه إليه أجثو على ركبتي وأسأله:

- أين قائدكم؟

فيشير بيده ويقول:

- لا تتركني. لا تتركني أيها الملازم! إما أن تنقلني أو تقتلني.

- لا تخف. لا تخف. سأنقلك أنت أيضاً. أين قائدكم؟

يمد يده مرة أخرى:

- ((هناك. لكن لا تذهب أنت إلى هناك. سيقتلونك. لا تذهب!" يبدو أن الجريح لا يدري ما يقوله جيداً. أنظرُ إلى ما حولي. يعلق بناظري صندوقان خشبيان على بعد خمسة عشر متراً. يشير الجريح إلى الصناديق.

- هناك. لا تتركني أيها الملازم.

وأخذ يردد هذا متوسلاً.

أترك الجريح وأذهب نحو الصناديق. تخرج من بين صندوقين قدمان بحذائهما أقترب. أرى الآن بوضوح أن الحذاء حذاء ضابط. قلبي في صدري يدق مثل اللكمة.

أهو سليمان؟ أقلب الصناديق. يرقد ورأسه تسبح في الدماء، مقلوب على وجهه على الأرض بين صندوقين. ثمانية من الموتى يرقد بعضهم بجانب بعض كما لو كانوا مصطفين؛ وعلى بعد حوالي ثماني خطوات أو عشر من جثة سليمان. أتوجه نحوهم. يا أيتها الأمهات والآباء الذين على قيد الحياة وتبكون الآن قائلين: ((أين أنت يا بني!" إن كاتب هذه السطور قد أغلق بيديه في ذلك اليوم عيون أبنائكم الجميلي الصورة: حسن الآق مسجدي، ومحمد الدُووَانكويلي وكريم وخالد الأوسكوتلوي وزكي الأوزان باشي وحسني اليالطوي وبكر وعثمان الكوزلووي.

نقلت جثة سليمان إلى جانب جثثهم. بكيت وأنا جاثٍ على ركبتي كثيراً عليهم. ولا أدري كم من وقت استغرقه بكائي. أفقت على صيحة من بعيد، على صوت أجش كان يصيح بي قائلاً:

- يا أنت! عد إلى حيث أتيت! هيا! سريعاً!

رفعت رأسي ونظرت إلى حيث الصوت رأيت هناك على بعد حوالي خمس وعشرين خطوة فوهة بندقية. نهضت على فوهات بنادقهم نحوي وينظرون إليَّ بحدة وغضب. يوجه واحد منهم القول إليّ. نفس الصوت السابق يصيح بي مرة أخرى ويقول:

- ابتعد أيها التتري الأسود! وإلا جعلت منك جثة عفنة تجد مكانها بجوارهم. اذهب وقل للمسؤول السياسي إن الحرب قد انتهت بالنسبة لنا.

لا أعي بما يحدث من حولي. طارت رصاصة تئز من تحت أذني، بينما كنت أسير نحو الجنود الموجودين في الحفر، فسريعًا ما انبطحت أرضًا. أطلَقَ الصوت الذي أمامي الشتائم الطويلة لي. وإذا بأزيز رصاصة أخرى عقب الصوت اختباتُ في المزارع بعد أن زحفتُ إلى الخلف ونحو التل الذي تركتُ فيه جريشة. كنت أتقدم وأنا منحن. وعلى يساري رأيت عينين ناريتين في رأس التصق شعره الأسود بجبهته التي تنضح بالعرق يحملها جسد نحيل. ولو كان الوقت ليلاً لخطر ببالي أنه رأس ذئب. كان هناك شيء حيواني هائل في هذا الوجه الطويل، في نظرات عينيه الغريبتين اللامعتين. وسرعان ما حركت يدي نحو مسدسي وقلت:

- من أنت؟

- أنا من رجالك يا آغا.

- هل أنت قيرغيزي؟

- نعم واسمي قليج باي.

- هل أنت جريح؟

- لا.

- كيف نجوت؟

جلس على الأرض وحكى لي وهو ينظر أمامه بعينين دامعتين:

- بمجرد أن فتح الألمان نيرانهم، تركت المدفع وهربت وأقسمت ألا أحارب من أجل الروس الكفار. لماذا أحارب من أجلهم يا آغا؟[١٦].

- اشرح لي كيف مات قائدك؟

- كنت أشاهد الموقف من هنا. لم يمت القائد من نيران العدو، يا آغا. في بداية إطلاق النيران مات أبطالنا المسلمون. وعندما خَفّت نيران العدو قليلاً، قام الصديق القائد بجمع جثث الموتى في مكان واحد. ثم تمرد الروس الذين بالجناح الأيسر وأطلقوا النيران على القائد. حاول البحث عن ملجأ يختبئ فيه. وكان كالحيوان أمام الصياد وقد حوصر من كل جانب. فاختبأ بين صندوقين فارغين. وهناك أطلقوا الرصاص عليه فحصدوه حصداً.

كانت كل كلمة من كلمات قليچ باي القيرغيزي تنغرس في قلبي كأنها الخنجر؟

- ولماذا لم تسرع لنجدته؟

- وماذا كان في يدي أن أفعله يا آغا؟ ماذا كان يمكن أن أعمله؟ لم يكن هناك شيء في يدي، حتى السلاح!

سكت. ثم دفن رأسه بين كفيه.

- والآن سأتحمل أنا ذنبهم.

أخذ قليچ باي يبكي باختناق وكأنه طفل اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه. أثّرت فيَّ دموعه قدر تأثير موت سليمان والآخرين. وبينما ننظر كل منا إلى

---

[١٦] آغا: لفظة احترام عند مسلمي تركستان تعني الموقر، المبجل، المحترم.

الآخر، إذا بقذيفة تنفجر في التل الذي تركت عليه جريشة. نظرت إلى التل. أرى بوضوح جريشة وهو ينزل إلى أسفل التل مهرولاً. وقبل أن يختبئ في المحاصيل، انفجرت طلقة أخرى على يمينه. يتدحرج جريشة على الأرض، ثم يقوم ليجري مرة أخرى، نحو الحقل المزروع. قذيفة أخرى على يساره قذيفتان. ثلاث. أربع. يختفي جريشة بين الدخان الملون والأراضي المرتفعة في الجو. لكن النيران لا تستمر طويلاً جريت مع انقطاع النيران، نحو جريشة، نبحث عن جريشة في الحفر التي أحدثتها القذائف. يرقد في إحدى هذه الحفر غارقاً في دمائه كم كبرت عيناه الصغيرتان وكم أصبح وجهه القبيح جميلاً! مسكين جريشة! ما زال حتى الآن حتى هذه اللحظة يأتي لكي يقف أمام عيني. رأسه بين ركبتي. ينظر إلى عيني ويقول:

- أنت جئت يا سيدي الملازم. جئت. أنا سأموت. أموت.

بدون تفكير كبير خلع قليج باي قميصه ولف به ساقي جريشة، ربطت حزامي على القميص وحملنا جريشة إلى كرانسوي. لقينا عربتين تابعتين للصليب الأحمر تتقدمان في طريق مترب. في إحداهما ترقد جثة مغطاة الوجه بالتبن. يعبث البعوض بالدم المتجمد في قدميها العاريتين المنتفختين المزرقتين.

وكان السائق يلف سيجارته كما لو لم يكن يرانا. سألته عن المستشفى فأشار برأسه إلى منزل صغير مسقف بالتبن واطئ، في داخل الحدائق على الجانب الأيمن. وعند خروجنا إلى الجانب الآخر من الطريق رأيت شيشكوف، يخرج من الحديقة ويتقدم نحونا، كان بجانبه عدة ضباط لا أعرفهم، قال:

- من الجريح؟

- جريشة. الذي أتى معي.

ثم نظر شيشكوف إلى قليج باي وقال:

- من هذه الحشرة السوداء؟

- إنه من فصيلة سليمان.

- أهو فقط الذي نجا؟

- نعم. هو فقط.

وسلمنا جريشة إلى رجال السلاح الطبي وذهبنا إلى القائد. إن الدفاع عن كرانسوي قد ظل بين كل مذكراتي أدمى فاجعة في الحرب.

(٤)

روما، في ٩/ ٥/ ١٩٤٦

ذهبتُ اليوم أيضا إلى الطبيب. هذه هي المرّة الثالثة التي أذهبُ فيها إليه، كان رأسي يؤلمني بالأمس ألما لدرجة أنّني لم أستطع قراءة ما كتبته في المذكّرات. شرحتُ للطّبيب الألم الذي ألمَّ برأسي. قال لي الطبيب - بعدَ أن كشفَ عليَّ من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ - أن ليس بي شيء. قال لي أيضا: "ستعيشُ

ببعضِ آلام تلمّ برأسك إلماماً يسيراً -مثل هذا الألم- إلى مائة سنة مقبلة". عدتُ إلى الفندق، وأنا مسرور. إنّ شعور الإنسان بأنه صحيحٌ مُعافى، لهوَ في حدِّ ذاته سعادة. وفي لحظات مثل هذه اللحظات، أجد نفسي وقد عزفتُ عن كتابة المذكّرات، وكأنّ كتابة المذكّرات ليست حياتي. إلّا إنّني عندما أخاف أو تنعكس لي صورة المستقبل؛ رديئاً مخيفاً أهرب من حياتي، وألجأ إلى المذكّرات. لكنّ سروري هذا لم يستمر طويلاً. ومرّة أخرى أويتُ إلى سريري، بأفكار سوداء. أرى كلّ شيء أسود؟ يقول الطبيب إنّك تخاف من شيء في الماضي، وظلّ هذا الخوف في داخلك وقد برز هذا الخوف ووضح. وأنت متضايق منه، لكن لا تُلقِ بالا؛ فستنسى مع مرور الزّمن، ولن يبقَ فيكَ أثرٌ لذلك.

لماذا أخاف؟ لا أعلم. لكن أتصوّر أنّ كلّ شيء لي في الحياة قد انتهى. في عام ١٩٢١ حدثت مجاعةٌ هائلة في القرم. ولم يعد هناك كلاب ولا قِطط في القرى. أكَلَها القرويّون الجوعى. أمسكوها كلّها وأكلوها. كنتُ في الثالثة من عمري في ذلك الوقت، ولا أتذكّر المجاعة. ثمّ ماذا حدث؟ في عام ١٩٢٧ حدثت هزّة أرضيّة في سواحل القرم. وأذكر هذا الزلزال جيّداً. تُرى هل هو سببُ خوفي؟ أصابني الخوفُ غالباً لكنّني لا أستطيعُ أن أقول هذا للطّبيب. لوعرف الطّبيب أنّني من القرم، فسيخبر الأمريكان. وسيسلّمني الأمريكان بدورهم إلى الرُّوس!

كان منزلنا عبارة عن مبنى جميل مبنيّ من الحجر. وفي طابقهِ الأعلى أربعُ حجرات وممرّ طويل وشرفة تطلّ على البحر. أمّا الدّور الأسفل فكان عبارة عن الإسطبل والمخزن الشتوي. أذكر أنّ والدنا قد أوى إلى فراشه في ذلك المساء متأخّراً لأنّه كان يقصّ علينا السيرةَ النبويّة. وفي منتصف تلك الليلة تقريباً هبّت رياحٌ شديدة فاستيقظنا كلّنا. أغلقت أمّي النوافذ. أخذت الحيوانات في الإسطبل تُخرجُ أصواتاً غريبة. يبدو أنّ أمّي لم ترَ رياحاً شديدة هكذا في حياتها. جاءت أمّي نحونا ونحن نيام واحتضنت كلّ واحدٍ منّا على حِدة. وهي تدعو له. كانت أصوات دعوات

أمّي متداخلة مع أصوات الحيوانات الجافلة، تحتنا، مع أصوات الرّياح أيضا. وكان أبي يبدو وكأنه ينتظر خطراً ما. فكان بين الآونة والأخرى يفتح شبابيك النافذة، وينظر إلى الخارج. غطّى ظلامٌ دامس نوافذَنا المواجهة للمارّة. لكنّا كنّا نرى من النافذة المطلّة على جبل آبي، القمر وقد شقّ السّحب الرّصاصيّة اللون هارباً نحو ظلام الشّمال. وأخيراً، دخلت الرّياح الهائجة حجراتنا وطيّرت ملابسنا وأغطيتنا وهدمت زجاج نوافذنا قطعاً قطعاً وكأنّه عناقيد ثلجيّة كسّرت جيّداً. ما كنت أراهُ جيّداً في تلك اللحظة: سحابٌ شديدُ السّواد يتّجه من الهضبة نحونا وكأنّه التّنين. انقطعتْ أنفاسُنا وأصبحنا كالمخنوقين، ثمّ اهتزّ بيتنا من أساسه بضجّة كأنّها قدِمَت من أعماق جهنّم، وانقلبَ الحائط الذي كنّا نرقد بجواره، انقلب كما هو إلى الخارج.. أطلقَ والدي صرخة مولولة مفادُها: أولادنا! أولادنا! لم أعد أذكر كيف نزلنا من أعلى السّلم المهدّم. وجدنا أنفسنا في الحديقة أمام البيت. وبدا الأمر لي وكأنّ اللّه سبحانه وتعالى ما زال غاضباً علينا. كانت الأرض تتحرّك بين الحين والحين من مكانها وبدا كلّ شيء يجمد بلا حراك في إطارٍ ضيّقٍ عميق. ترك نصف أهل القرية في اليوم التالي بيوتهم وهربوا. وبقينا نحن. قطع أبي أشجار البلّوط الأربع الشامخة أمام منزلنا، قطعها من منتصفها وغطّى ما بينها بأشجار طريّة ووضع الصفيح فوقها ليغطّيها بها. وصنع منزلاً أشبه بكوخ الفراخ. وبذلك قضينا شهرين في هذا المنزل الصّغير. أفكّر الآن: تُرى هل خفتُ في وقت الزلزال؟ أظنُّ أنّني خفت. عندما كنتُ أذهبُ إلى الماء في "عين محرم القرني" كنتُ أريدُ بشدّة أن يأتي معي أخي الصّغير بكر. وعندما كان يحدث زلزال ونحن في الطّريق إلى الماء، أجد نفسي فجأة أترك الأباريق النحاسيّة من يدي وأحتضن أخي بكر وأدعو.

وبعد شهرين، أقام والدي من جديد الحوائطَ المهدّمة، ونقلنا إلى بيتنا، ورويداً رويداً نسينا الزلزال، وأصبحت الحياة كما كانت قديماً لطيفة ولذيذة.

ها قد أصبح الوقتُ متأخّراً. لا أستطيعُ النّوم. لماذا لا أستطيعه؟ وإذا نمت هل أجد - عندما أستيقظ صباحا - النّاس والدّنيا كما تركتهم؟! يا إلهي! اللهمّ احفظني!

* * *

نترك عربات نقل الذخيرة التي تحترق ونتجه نحو برفومايسك. يأتي المساء، أسير بجوار شيشكوف. وجهه جامد حتى إنه يبدو مخيفاً لا أجرؤ حتّى على بدء الحديث معه. القمر من فوقنا ينظر إلينا. ومن بعيد، وفي صمت الليل وسكونه نسمعُ احتكاكَ حديد، وصوتَ بندقيّة. نتقدّم. أرى كلّ نظرة من نظرات ماريّا. وكأنّي بمفردي تحت القمر أسمعُ كلّ كلمة من كلماتها. أريد أن أعود إلى الخلف، إلى ماريّا.

يقف شيشكوف؛ وكان يسير في المقدّمة. ينظرُ إلى الآفاق ناحية الغرب. هناك حمرة تختلط بالأدخنة السّوداء في الأفق. يقول شيشكوف:

- برفومايسك تحترق. والكلاب في كلّ مكان.

يهمس بهذا إلى نفسه يحدّثها به. أحسّ بآلامه الداخليّة المميتة تنطبع في صوته. نتقدّم أكثر. أخرج الآن إلى طريق إسفلتي يضيئه القمر. نصل إلى غابة سوداء. نرى ثلاث عربات نقل بعيدة عنّا بما يقرب من خمسين متراً. نتقدّم ناحيتها لم يبقَ بيننا وبينها إلّا مسافة عشر خطوات. وإذا بصوت، صوت شاب يزأر:

- قف! مَن أنت؟

- أمين.

- مَن هناك؟ أجِب! سأُطلقُ النّار.

شيشكوف لا يجيب. عندما يرى الديدبان النوبتجي مجموعة جنود أمامه، لا يتحرّك كثيراً. يسأله شيشكوف:

- كم رقم الفصيلة؟

- الوحدات الصحيّة التابعة للواء السابع والخمسين مدرّعات رابضة في الغابة أيّها الأخ الكوميسير.

- من أين أنتم؟

- قدمنا من برفومايسك.

- المدينة في يد من؟

- عند خروجنا منها كانت النيران تلتهم المدينة، أيّها الأخ الكوميسير، ولا أدري حالها الآن. كان يوم أمس كلّه جريحاً.

نتقدّم نحو الغابة، لا نحسّ بأيّ أثر للحياة مطلقاً قبل دخول الغابة. المكانُ صامتٌ وساكن. ثمّ رويداً رويداً نسمعُ أنّاتٍ عميقة، وأحاديث قصيرة، وهمسا وكأنّ أرواحا في مقبرة موحشة، يتحدّث بعضها إلى بعض. رويداً رويداً يداخلني الخوف. أريد الخروجَ من الغابة، أضغط خطواتي. لكن عندئذٍ أسمع من بعيد صوتَ أنين. أقف وأستمع ومن بين عدّة همسات وأصوات ولا أدري كيف ولماذا يخيّل إليّ أنّ ذلك الصّوت يناديني؟ وبدون إرادةٍ منّي أدخلُ الغابة وأسير في اتّجاه ذلك الصّوت. وبين حين وآخر أقف وأستمع. وبعد انقطاع أصوات أقدام شيشكوف وجنوده من على الطريق الإسفلتي، أبقى تماماً بين أنين الجرحى والمرضى. أمامي مستشفى عبارة عن خيمتين. أمام الخيمتين كثيرٌ من الجرحى. يرقد بعضهم بلا حراك. ثمّ ترى هل ماتوا؟ جنديّان يسيران بين المرضى، وبين حينٍ وآخر ينحنيان على الجرحى، ثمّ يهمس بعضهم لبعضٍ بشيء. يدخلان الخيمة ويخرجان. أبحث عن الصوت الذي كان يناديني منذ قليل. لكن الأنّات، من الصّعب تفرقة بعضها عن بعض وتمييزها

فهي تتشابه. وأخيرا وعندما قرّرت الخروج من الغابة. سمعت صوتًا من خلف الخيمة يقول:

- اللّه، اللـ...ـه!

انطلقت من على الجرحى إلى ما وراء الخيمة. كنتُ أحاول تبيّن وجهه في الظلام وعندما كنت أنحني عليه، نظر إلى عيني وهو ما يزال يذكر اللّه.

- أأنادي الطبيب، يا أخي.!

كان ينظر إلى عيني بعينيه الواسعتين الملتهبتين، كان في الخامسة والأربعين وربّما الخمسين من عمره. كان يعضّ على شفتيه المرتعشتين. أغلق عينيه وقال:

- لا يا عزيزي! ماذا في يد الطبيب أن يفعله. أنا طبيب. طلقتان اخترقتا بطني. هل أنتَ مسلم؟ اسقني يا أخي في اللّه!

سقيته ماء. كان يصارع الموت، ووجهه كان أبيض، شديد البياض، وكأنّه الجير. حاول أن يقيم رأسه. انحنيتُ عليه قليلا. سألني:

- من أين أنتَ يا عزيزي؟

- قرمي؛ من القرم.

- قرمي؟ أنا قازاني؛ من قازان.. لا تنزعج منّي. سأقول لكَ شيئا.. هل تسمعني؟

ثمّ تمدّد. أمسكني من قميصي، شدّني نحوه وهمس في أذني بصوتٍ مخيف، وقال:

- لا تحارب.. نحن يا أخي دماءٌ مسفوكة في سبيل هذه الأمّة الظالمة.

استمرّت عيناه الكبيرتان داخل عينيّ، وقال:

- أنا من قازان، أنا تتاريّ من التتار. تعلّمتُ في قازان وأصبحتُ طبيباً. اسقني ماء يا أخي. في عام ١٩٣٥ أخذوني. أبعدوني عن زوجتي وطفلي وأحبّهما أكثر من روحي، حبسوني. ألقوني في السّجن. لماذا؟ لا أعلم. هلهلوني في سجون جي. ب. يو. وقبل شهرين أخذوني من السجن وأحضروني هنا، اخترقت رصاصتان ألمانيّتان بطني. أعرف أنّ الطبيبَ لن يفيدني، يا أخي! استمع إلى ما أقوله لك. دعكَ من الحربِ ولا تحارب.

كان وهو يقول لي هذا، يمرّر يده اليمنى الجريحة من صدره إلى عينيه، ومن عينيه إلى صدره. أصوات طائرات من بعيد. ما زال الطبيب يقصّ عليّ ما عاناه، أمّا أنا فكنتُ أُصغي سمعاً إلى أصوات الطائرة المقتربة من الغابة، أنّات الجرحى حولنا. صوت الطبيب انقطع فجأة. سمعت صوتَ أزيز طائرات؛ أثناء انحنائي لكي أعطي الطبيبَ المجروحَ ماء، أعقب هذا صوتُ انفجارٍ مدهش جعل الغابةَ تئنّ. حدثَ انفجارٌ بعيدٌ عنّا إلى حدٍّ ما. وبعد أن ذهبت الطائرات، رفعتُ رأسي، ونظرتُ إلى الطبيب القازاني كانت عيناه منغلقتين. اختفى وجهه الذي كان يبدو منذ قليلٍ مضطرباً، وتحوّلَ إلى وجهٍ أكثر جمالا. وبصوتٍ خفيضٍ قلت:

- ذهبتِ الطائرات، ونحن الآنَ في أمنٍ وسلامة.

ولم يُجب الجريح. كان بلا حراك، بلا حِسّ وكأنّه غاضبٌ منّي أخذتُ يدَهُ ووضعتها بينَ كفّيَّ قائلا له:

- أتريدُ ماء يا أخي؟

وإذا بورقةٍ خشنة، وجدتُها في يدي عرّضتها للضوء لكي أعرف ما فيها. إنّها صورةُ طفل، لعلّه ابنه. ورويداً رويداً قمت واقفاً على قدمي. وخرجت من الخيمة سألتُ الجنديَّ الذي بالخارج عن طبيب. قال لي وهو يشير نحو خيمة:

- في الخيمة.

دخلتُها وألقيتُ التحيّة، وقلت:

- الملازم طوران، من القيادة.

فإذا بصوتٍ غليظٍ يقول:

- هاها! من القيادة!.. اقترِبْ منّي. أيّ خبرٍ أتيتَ به؟

فهمتُ من لهجته أنّه طبيبٌ كرجي من بلاد الكرج. نهضَ واقفاً من على صندوق الذخيرة الذي كان يجلس عليه. وأوقد الشّمعة الموجودة في علبة الصّفيح المعلّقة على عامود الخيمة. كان رجلاً متوسّط الطّول، بديناً بعضَ الشّيء حلّت رهبة اليوم كلّه في وجهه الآن، وجهه الذي كان جميلاً فيما مضى.

- اجلسْ وقُصَّ عليَّ أيّها المُلازم، أيّ أخبار جئتَ بها؟

- لم أحضر أخبارا أيّها الطبيب الصّديق، أريد أن أعرف في أيّ وقت يمكنُ دفنُ الموتى؟

تغيّرت نظراته فجأة. قطّب حاجبيه، احمرّ وجهه، وصاح:

- موتى! موتى! ألا يوجد مَن يفكّر في الحياة؟! هل تعرف كم ميتاً في هذه الغابة؟ سبعون فقط من مائتي جريح، مَن يدفن مائة وثلاثين ميتا؟ تحت إمرتي ثلاثة جنود. ثمّ تظهر لي أنت لتسألني متى يُدفن الموتى؟! الموت! كانوا أحياء، ماذا يمكن أن يُعمَلَ لهم؟ لا قطن، لا ضمادات، لا دواء، ولا حتّى خبز! أتسأل القيادةُ وتهتمُّ بأحوالنا بهذا الشّكل؟ القيادة!! يا لكم! هؤلاء الذينَ لا يعرفون شيئا غير المرور أمام المجموعة وإلقاء الأوامر! عجباً متى يدفن الموتى؟ إنّ هذا ما يجبُ عليّ أن أسألكم عنه. إنّ مهمّتكم قتل النّاس. أمّا عملي أنا، فليس قتل النّاس ولا دفن الموتى، وإنّما إحياء النّاس. أنا أقوم بأداء عملي بأقصى ما أستطيع. هنا جرحى لم

يدخل الطعام جوفَهم منذ أسبوعين. أنا أنتظر منكم العونَ والمساعدة. أعيشُ منذ يومين وسط هذه الغابة أعيشُ بين الأنّات.

استمرّ انفجاره هذا فترة. شتمَ فيها القيادة. ثمّ هبط على الصندوق وأفسح لي مكاناً بجواره.

- اِجلسْ أيّها الملازم. تبدو وكأنّك شابٌّ رحيم، لا تحمل كلامي على أنّه موجّهٌ إليك. إيّاك! كيفَ عثرتَ علينا؟ وما أخار الجبهة؟

لمَ يبقَ أيّ شكٍّ في أنّ الطبيب إنسانٌ طيّب القلب. التصقتُ بحفّة صندوق الذخيرة. أخرج الطبيب الكرجي علبة الدخان من جيبه، ولفَّ سيجارة.

- برفومايسك في يد العدو. هل هذا صحيح؟

- لستُ قادماً من برفومايسك أيّها الطبيب.

نظر إلى وجهي مندهشاً:

- ألم تقل من القيادة؟!

- قلتُ من القيادة، لكن لم أذهب إليها منذ أسبوعين. أينَ هيَ؟ لا أعلم. كنّا أمس نمرُّ من هنا في المساء، وجدتُ أخي بين الجرحى. لم أتركه حتّى الصّباح. لكنّ جرحه كان شديداً، لم يستطع التحمّل؛ فمات.

تغيّر وجه الطبيب فجأة. انتهى ذلك الرجل الذي كان منذ قليل متوتّر الأعصاب، ينفث النار من فمه وحلَّ محلّه شخصٌ آخر. أخذ وجهه بين كفّيه وقال بصوتٍ خفيضٍ جدّاً، وهو ينظرُ إلى طرف حذائه المتّسخ:

- سامحني أيّها الملازم.

وبعد قليل رفع رأسه وأشار إلى ناصية الخيمة:

- هناك مجرفة خذها. وادفن أخاك، وهناك جنديّ أمام الخيمة قل له أن يساعدك.

أخذت المجرفة. وخرجت من الخيمة. وكان الصّبح في الخارج، في بدايته. وفي مكانٍ قريب من الطريق الإسفلتي، حفرتُ قبراً بين شجرتي بلّوط. وعندما أنزلنا - أنا والجندي - الجثّة إلى المقبرة، جاء الطبيب الكرجي وقال:

- لقد جاؤوا بالمسكين، أمس. وبجوار خيمتي، تحدّث كثيراً عن أسرته. ثمّ قال ما بوسعه أن يقوله. شتمنا كلَّنا.

لم أستطع التحكّم في دموع عيني عندما كان يُنزَلُ إلى القبر وصورة ابنه على صدره. كانَ هذا الطّفلُ في أعماقي يصيح بلا انقطاع قائلاً: "بابا! بابا!" يبدو أنّني كنتُ أفهم وللمرّة الأولى معنى الأبوّة. دفنّاه. وقبل أن نبتعد عن هناك دلفت إلى خيمة الطبيب وقدّمتُ له شكري. قال وهو يضغط على يدي مصافحاً:

- هل لك أخٌ غيره أيّها الملازم؟

قلتُ:

- نعم، لكنّه ليسَ في الجيش، إنّما في المنزل، بجانبِ أبي وأمّي. إنّ الإنسانَ الذي دفنتُهُ ليسَ إلّا أحد مواطني بلدتي. لم أكن أعرفه. وليست لي به صلة. أيّها الصّديق الطبيب. لم أرغب في تركه دون دفن.

ضحكَ الطبيبُ ضحكة نوّرت وجهه، وقال وهو يضعُ يدهُ على كتفي:

فلتحْيَ أيّها الملازم! أُحبّكَ الآنَ أكثر.

افترقنا. دخل الطبيب إلى خيمته. وصعدت أنا إلى الطريق الإسفلتيّ وأخذتُ طريقي من جديد نحو برفومايسك.

عندما وصلتُ إلى منطقة القيادة. كانت شمسٌ محرقة تلفح المكان. وعلى جانبي الطريق كانت جموعٌ كثيفة من الجنود تتجمّع، وكان الجنود جميعهم يسودهم الضعف لحاهم طويلة، ملابسهم جميعاً متربة، يعلوها الطين والدّم. الضبّاط يصيحون بالجنود ويشتمونهم. بعضهم كان يصدر الأوامر وفي يدهم المسدّسات. كان منظرهم جافًّا لدرجة أنّني لم أستطع أن أسأل عنهم إيفان ألكسندروفيتش وبينما أبحثُ في هذا الزّحام عن وجهٍ أعرفه؛ لمسَ أحدُهم كتفي. كان رجلاً قليلَ شعرِ اللحية، نحيفاً، متعَباً، شفتاهُ متدلّيتان، غريبا. نظرَ إلى وجهي وهو يضحك:

- لم تعرفني يا آغا؟ أنا قلبيچ باي. من فصيلة الملازم سليمان كرانسوي. هل تذكّرت؟

- تذكّرت، تذكّرت، أينَ مبنى القيادة؟

أشار قليچ باي إلى مدفعين كبيرين في الناحية الأخرى، على بعد حوالي مائتي متر.

- بجانب هذين المدفعين.

ثمّ وبإحساسٍ عميقٍ، قال:

- ألا تأتي معي يا آغا قبل أن تذهب إلى القيادة؟ أصدقاؤنا هناك. كلّهم مسلمون. أنتَ مُتعَب، وبذلك تكون قد استرحتَ قليلا.

أوافقُ، ونسيرُ سويًّا، بعدنا عن ازدحام الجنود، خلّفناهم وراءنا، نتقدّم عبرَ ماء، وبعدَ عشر دقائق نقترب نحو مكانٍ كثير الدّغل، أرى بين الأدغال حوالي عشرة أشخاص أو ثمانية. يقف بعضهم على قدميه، والبعض الآخر، يقف على ركبتيه، يقف قليچ باي ويقول:

- أليس اليوم هو الجمعة يا آغا؟ إنّ صديقَنا آق صقال لا يعترف بالجبهة ولا بغيرها إنّه يقيم الصلاة بمجرّد سنوح الفرصة. اِنتظِرْ هنا.

أجلسُ على الأرض، وأسأل قليچ باي:

- من هو صقال، هذا الذي تحدّثني عنه؟

- هذا الذي هناك، الطويل القامة، إنه أوزبكي من بخارى، رجلٌ حنون ولكن.. انظُر إلى المصلّين بين الأدغال، يملؤون بأصواتهم الهامسة قلبي بأشياء.. أشياء أحسّها فقط. لكنّي لا أستطيع فهمها، ولا أستطيع شرحها، أريد أن أنهض من المكان الذي أجلس فيه وأذهب بجوار هؤلاء الناس، أريد أن أجري إليهم، أريد أن أفرغ أمامهم كلّ ما في قلبي، أعيش معهم، أكون واحداً منهم، يُخيّل إليّ كأنّهم معي في الحياة دائما. هناك قوّةٌ في دعائهم. هذه القوّة تنتقل إليّ. إنّهم يعيشون مع اللّه وأنا أيضاً أريد أن أعيش وأنا أذكر اللّه في كلِّ نفَسٍ من أنفاسي. إنّ اسمَ اللّه الذي يصدر من أفواه ثمانية جنود أو عشرة من هؤلاء الأوزبكيّين في نفَسٍ واحد وهم يصلّون بين الأدغال، يُبيّنُ لي لماذا سأعيش وفي أيّ سبيلٍ سأحارب.

كان قليچ باي بجواري يلفّ سيجارة. سألته:

- ألا تخافون وأنتم تصلّون هكذا خفية بينَ الأدغال؟

- يقول آق صقال: سِر وأنتَ تذكرُ اسمَ اللّه. سلّمْ نفْسَكَ للّه، ولا تخَفْ بعدَ ذلك. فاللّه يحميك. ولا شكَّ في هذا يا آغا.

أريدُ أن أفهم كلّ كلمةٍ تخرج من فم قليچ باي، كنتُ أودُّ أن يتكلّمَ أكثر. قال قليچ باي يهدوء:

- أنا شابٌّ يا آغا، لكنّ ذنوبي كثيرة. أنتظر فرصة.

نظرتُ إلى هؤلاء الأوزبك الذين يصلّون وهم بين الأدغال، خطر ببالي أنّ آق صقال هذا الذي يتحدّث عنه قليچ باي، وليٌّ من الأولياء. انتهت الصّلاة. جلسوا كلّهم على الأرض. سادَ الجوّ سكونٌ عميق. ثمّ أنشدوا جميعاً وبأصوات حزينة رقيقة صادرة من قلوبهم، نشيد:

ماذا حدثَ لكِ يا تركستان الجميلة؟

ذبلت الورود في غيرِ زمان الذّبول!

لا أعلم لماذا لا تُغنّي الطيورُ في حدائقكِ؟

آه.. في حدائقك!

وجدت روحي - بهذا النشيد - ترغب في أن تنفصلَ عن جسمي، وتطير بعيداً، بعيداً، إلى حدائق تركستان الذابلة، الجافّة، العطشى.

* * *

وجدت شيشكوف والضبّاط الآخرين بجانب صناديق الذخيرة المكدّسة بين المدفعين الضخمين . مازال في وجه الكوميسير ، التعبير المر الذي كان عليه بالأمس . يترك الضباط بين الحين والحين الحديثَ ، وينظرون إلى الجنود الموجودين في المكان . هؤلاء الجنود الذين أخذت أصواتهم تعلو وترتفع ، يشتمون ، يتشاتمون . أصوات المدافع تأتي من بعيد . تسمع انفجارات متقطّعة . أعداد الجرحى الذين يرقدون على الدبابات التي جاءت تتزود بالبترول ، تكفي للدلالة على حالة الجبهة . الجنود المصابون بجروح ثقيلة ، يُحملون إلى الجنوب ، بسيارات النقل الكبيرة . أما الجرحى من ذوي الإصابات الخفيفة فيتركون فرقهم في الجبهة ويهربون . لذلك يقوم الضبّاط السياسيون والمسدسات في أيديهم بسب هؤلاء الجرحى وإعادتهم إلى الجبهة ثانية .

كانت المباحثات بين المكتب السياسي وبين الضبّاط ذوي الرتب الكبيرة تستمر طويلاً ، ساعات وساعات . على كل حال يبدو الجميع متعبين مرضى . يفكّر شيشكوف أن يهجم على برفومايسك المحتلّة فوراً بفرقتنا الموجودة بجوارها ، وأن يخف لمساعدة الفرقة الممسكة بالجبهة . كان قائد الفرقة والضباط الكبار الآخرون ضد فكرة شيشكوف هذه . أذكر أن قائد الفرقة يعترض على هذا قائلاً : إن الجنود - منذ أيام- جرحى وعطشى ، فما بالك بحرب العصابات . ولا سيّما أن من بين الجنود من ألقى السلاح .

كان الجنود يستطيعون استحصال قوتهم اليومي بأخذ مايجدونه في أيدي نساء أوكرانيا الفقراء . قبض جنود منظّمة الشرطة السريّة ، هذه المرة ، على العساكر الذين تركوا فصائلهم وفرقهم من أجل البحث عن الخبز في القرى ، وبأمر من ديوان الحرب أعدموهم فوراً بالرصاص أمام أعين جنود الفرقة . ضبّاط الفرقة كانوا يعرفون هذا جيّداً ، ولكن ، ماذا بأيديهم أن يفعلوا . إنّهم أيضاً من لازمهم إلى لوائهم ، كانوا ينتهزون الفرصة للاختفاء عن أعين منظمة الشرطة السرية التي لا يغيب عنها شيء قط ، يحاربون بهدوء وينتهزون الفرصة للهروب إلى جانب العدو قبل أن يموتوا برصاص أمتهم . أمّا هؤلاء الضبّاط الذين يجدون في أنفسهم الجرأة على نقد ضباط المكتب السياسي ، يصبحون أحب الضباط وأكثرهم احتراماً في صفوف الجنود . وكان هذا من الأمور المألوفة .

يطرح الآن قائد الفرقة ضرورة الانسحاب بكل الفرقة فوراً إلى نواحي الكسندوفكا وانتظار العدو هناك بكامل الاستعداد لملاقاته . الضبّاط الآخرون من ذوي الرتب الكبيرة أيضاً كانوا يؤيدون هذه الفكرة . وكان يبدو أن شيشكوف وضبّاط المكتب السياسي الذين معه لن يستطيعوا الإصرار كثيراً أمام فكر الأغلبية. بدأ التجهم البادي في وجه إيفان الكسندروفيش ، يزول رويداً رويداً ، وأخذ وجهه في الانبساط . حدث أثناء ذلك شيء غير متوقع . سمعت أصواتاً مضطربة وصياحاً

صادراً من داخل الازدحام في الجانب الأيمن . ظهر ضابط شاب ، فجأة ، بعد أن اخترق الزحام ، بملابسه وقد تمزّقت تمزّقًا ظاهراً ، والدم واضح عليه . كانت حالته رهيبة لدرجة أحدثت رعشة باردة في سلسلة ظهري الفقرية . وقف هذا الضابط بين كتلة الجنود وبين الضبّاط رافعاً يديه ويصيح بصوت متوحش قائلاً :

- اخترقونا ! لم تعد هناك جبهة . داسوا على أجسادنا بدباباتهم !حطّموا عظامنا !

وخرّ واقعاً على الأرض ، وآخذ يئن ويقول :

- آه يا أمي ! ساروا فوق أجسادنا !

كنت أحاول النظر في وجه الضابط الجريح . أسرع الضبّاط نحوه ، رفعوه من الأرض، وأخذوه بعيداً . بعد ذلك بدقائق معدودة ، وبينما أنا واقف بجوار المدفع ، إذا بيد تلمس كتفي . التفت كي أرى ، فإذا به شيشكوف . قال لي :

- تعال معي ياطوران .

ابتعدنا عن الزحام . وسرنا في اتجاه الميدان الذي اصطفت فيه سيارات النقل ، والمدافع ، والدبابات . توقّف شيشكوف قبل الوصول إلى الماكينات . ووضع ذراعه على كتفي ، وقال :

- خذ سيارتي واذهب فوراً إلى الكسندروفكا . لقد اخترقت الفرق الألمانية الجبهة . وإذا تمكّنوا من الوصول إلى الكسندروفكا قبل حلول المساء ، فسيعبرون بسهولة إلى الجانب الأيمن من بوك . خذ معك بضع صفائح بترول . واحرق الجسر الموجود في الكسندروفكا . ولكن بسرعة ! كم رجلاً تحتاج ؟

- يكفي اثنان

- خذ عشرة ، لمواجهة أي ظرف طارئ . كل دقيقة ذات قيمة . أسرع بالحركة.

وفي أثناء ركوبنا السيارة نصف النقل ، جاء قليبج باي وهو يجري في اتجاهي وكانت عيناه الصغيرتان تعكسان الفرحة .

- خذني معك يا آغا .

- وأصدقاؤك ؟

- وأنت ! ألست بصديق ؟

- هيّا ، اقفز .

أين هو الآن ياترى ؟ هذا الرجل الذي افتقدته في الكسندروفا . وجدته في معسكر أسرى تركستان بعد عام واحد . أمّا بعد ذلك .

الكسندروفا تبدو كأنها صامتة مهجورة . تبدو السماء صافية زرقاء بعد مطر أمس . كانت الروائح تصعد باردة من الحدائق الواقعة على ضفّتي النهر . وقفنا في مكان قرب الجسر . ينظر الأطفال والسيدات المسنّات إلينا ، من نوافذ المنازل المجاورة ، بعيون مفتوحة مندهشة . خرج رجل كبير السن أبيض اللحية من أحد البيوت واقترب منّي ؛ عندما كان الجنود يسكبون البترول على الجسر ، وقال :

- ألن تحرقوا الجسر يا بني ؟

قلت له :

- سنحرقه يا والدي .

- منذ ثمانين عاماً وهذا الجسر قابع في مكانة . سالت من تحته مياه تكفي لملء بحار . فاض النهر وتجاوز ضفّتيه ، لكنه لم يقو على هدمه .

- إذا كان النهر قد عجز عن هدمه ، فالنار ستحرقه .

قلت للجاويش واصل ايف ، و أنا ألتفت إليه :

- أوقد النار فيه ومن هنا .

اقترب مني الرجل المسن قليلاً وقال :

- قف . قف دقيقة واحدة ، فالجسر لنا حيوي يا ولدي .

- نحن الآن في حرب يا والدي . إذا انتهت الحرب ، سنأتي ، لنبني لقريتكم جسراً جديداً . ولن يكون خشبياً مثل هذا ، سيكون جسر جديد ، لأحفاد أحفادك .

- حسنا يا ولدي ، لكن الجانب الآخر ، فيه حيوانات ترعى . لابد من سوقهم من هناك إلى هنا ، اسمح لي لكي أقوم بتعديتهم .

- مستحيل يا والدي ، فلم يعد هناك الوقت لهذا .

تدخل الجاويش واصل ايف في الحديث قائلاً :

- الحيوانات يا جدّي ، ملك الكولخوز .

- فلتكن ملك الكولخوز ، إن هذه الحيوانات ، هي التي تساعدنا على الحياة ، حتى اليوم .

- العجوز على حق يا واصل ايف ، خذ شخصين واذهب ، وسق الحيوانات إلى هذا الجانب .

ذهب واصل ايف . وساق الحيوانات إلى الجانب الذي نحن فيه . أمّا نحن ، فسريعا أشعلنا النار في الجسر . وبعد خمس دقائق أو عشر ، ارتفع الدخان الأسود من الجسر الخشبي نحو السماء . واجتمعنا نحن بدورنا أمام منزل العجوز ، وعندما بدأت مع جنودي أكل الزبادي في الحديقة ، ظهر عدّة فرسان من بين المنازل المواجهة وانطلقوا نحو الجسر الذي كان يحترق بسرعة البرق . قمت واتجهت ناحية

الجسر ، لكن ضابطًا برتبة كبيرة يركب صهوة جواد قطع الطريق علي ، قبل أن أصل إلى الجسر .

احمر وجهه احمراراً ظاهراً وركزّ عينه الحمراوين على عيني ، وسألني :

- من أحرق الجسر ؟

- أنا .

امتقع لون وجهه ، قطّب تماماً ما بين حاجبيه ، وصدرت عن شفتيه كلمة واحدة فقط هي:

- أطفئها !

- أحرقته بناء على أمر قائد الفرقة السابعة والخمسين ، أيها القائد الصديق .

- اطفئها يا ابن الكلب ! وإذا لم تفعل ، سأدوس على ظهرك بالحصان ، وأنقلك إلى الناحية الأخرى وأنت هكذا .

همس قليچ باي وهو بجواري ، قائلاً :

- ديوّث !

أمرت رجالي أن يطفئوا النيران . وأسرعت إلى القرية استدعي الناس لمساعدتنا خرجت النسوة والفتيات الحافيات والأطفال من المنازل التي كانت صامتة منذ حين وأسرع الجميع لإطفاء الجسر وبعد ساعتين كاملتين ظهرت دباباتنا . أخذ الجنود الذين قدّموا من الخلف أماكنهم حول المنطقة وامتلأت الكسندروفا الصغيرة ، من أولها إلى آخرها بالجنود ووسائل الحرب . أمّا أنا ، فسرعان ماوجدت الكوميسير شيشكوف وشرحت الأمر له فقال :

- هذا أمر حسن ، سنخرج إلى الجانب الآخر من " بوك " لنلتحق بالجيش المنسحب نحو نيقولاييف .

كانت المنطقة مزدحمة ازدحام الحشر ، وامتلأت الحدائق بالدبابات وعربات المدافع .

إن الكسندروفا - التي كانت من قبل ساكنة - قد تحوّلت حالتها إلى حال يصعب معرفتها به ، فالضبّاط بياقاتهم المفتوحة وعيونهم الغضبى الحمراء يتصايحون . والمشاة وقد أخذوا في حفر الحفر على طول النهر في المنطقة ، وفي الخلف أيضاً ، وأخذت المدافع مواضعها في الحدائق . كان هناك نظام وانتظام يثيران الانتباه إلى الفِرَق التي تركت مرضاها وجرحها في الخلف . و عند تناولنا لطعام الغذاء إذا بنا نفاجأ بهجوم جوي . لكننا قابلنا الطائرات الألمانية التي كانت تتجه من الأعلى نحو الحدائق ، قابلناها بنيران قوية لدرجة أنها عادت إلى الأماكن التي جاءت منها دون أن تلقي قذيفة واحدة من قذائفها . وقرب المساء، أخذت الفرقة في الاستعداد لعبور الضفة اليمنى من " بوك" وانكب الجنود على إصلاح الجسر الذي أصابه الدمار إصابات واضحة . كانت الدبابات والمدافع من خلفها تقف في صفوف استعداداً لعبور الجسر . كنت في الخلف مع القيادة . الله يعلم ، ثم أنا ، مقدار السرور الذي انتابني عند اتخاذ قرار الانسحاب إلى نيقولاييف . كنت كأني ذاهب إلى القرم. لكنهم أخبروني وأثناء كلامي بأن قائد الفرقة يستدعيني . ذهبت إليه . وكان في غرفة سقفها منخفض ، ورطبة . وجدت هناك شيشكوف وقائد الفرقة وبعض ضبّاط آخرين وكان الجميع يحيطون بخريطة . دخلت الغرفة ووقفت بجوار الباب . قال القائد بصوت متعب :

- اقترب أيها الملازم طوران .

واقتربت منه ، فقال :

- استمع جيّداً . عندنا مسألة غاية في الأهمّية .

ضحك الكوميسير شيشكوف - وكان على يميني- ضحكة قبيحة وقال :

- اون هوروشي فويتس تاتارين مالوديتس . .

استمر القائد في حديثه .

- اعبر فوراً بمجموعة من العساكر إلى الضفّة المقابلة من النهر . وتحرّك نحو الشمال، وعندما تبتعد عن الجسر بحوالي كيلومتراً ، خُذْ وَضَعك . ولا تنسحب إلى الخلف إلاّ إذا جاءك أمر مني ! أفهمت ؟ ! تحرّك فوراً !

- سمعاً وطاعة أيها الصديق القائد .

وبعد نصف ساعة ، وبينما أعبر الجسر بمجموعة من الجنود ، إذا بي أجد قليج باي على ضفّة النهر .صب نظرات عينيه الضيقتين عليَّ ، وكان يضحك . ظننت أنه قادم نحوي، لكنه لم يأت . اختفى وهو يرجع بين الأشجار الخضراء في الحديقة . أحسست بغربة موحشة . كنت أشتاق إلى أحد بجانبي يهمس إليَّ بلغتي الأصليّة !

" واصل بيف" يسير بجانبي ، نظر إليَّ . بدت في أطراف شفتيه ابتسامة خفيفة . وكأنه يريد أن يقول شيئاً . قلت له :

- ماذا هناك أيها الجاويش !

قال :

- أبداً. . كل ما هنالك أننا نسير كالفلاحين العائدين من حقولهم منهكين .

- أنا متعب .

- وأنا أيضاً . وها هو ذا المساء يبدأ . ماذا لو عقد رجالنا معاهدة مع الألمان ، تنص على ترك الطرفين سلاحهما بمجرد أن يحل الظلام ، ثم ينام الجنود وينعسون . وفي الصباح يقومون ليبدأوا الحرب من جديد . أليست هذه فكرة طيبة ، يا سيدي الملازم ؟

- طيبة ولكن أين . .

- يذهب الجندي صباحاً إلى الحرب ، وكأنه ذاهب إلى الحقل . يستيقظ مبكّراً ، والدنيا مازالت في عتمة الصباح الأول . يحمل سلاحه ويبدأ إطلاق النار على العدو من الغابة الواقعة في طرف القرية . وأنت أيضاً تذهب إلى العدو، تحارب كل اليوم ، ولن تتعب ، ذلك كأنك تعلم أن ليس الموت في قدرك . وبعد انتهاء عملك في ذلك المساء ، ترقد وتنام نوماً هادئاً .

تدخَّل الجندي الذي يسير على جانبي الأيسر قال :

- لعلّك تفعل مثل الجندي الانكليزي ! تريد أن تشرب الشاي أيضاً أثناء الحرب . تقف وتطلب الشاي .

- إيه ! كيف تفكّر ؟ إن الصينيين يذهبون إلى الحرب بشمسياتهم . قد لا نكون في احترام الإنكليز ، لكننا مدنياً مثل الصينيين . ماذا تقول في هذا يا سيدي الملازم ؟ ما دامت الحرب تحرقنا بهذا الشكل ، فيجب علينا أن نعاملها مثلما العامل . علينا أن نبدأ الحرب منذ الصباح المبكر ، وعلينا أن نقتل - وحتّى حلول المساء - من سنقتله وعلى الذين بقوا على قيد الحياة حتى المساء أن يدعوا سلاحهم ويأخذوا قسطاً من الراحة . أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن !

- صحيح يا واصل ايف .

- قل في هذا ما تقوله ، أما أنا فسأكتب رسالتين أوضح فيهما كل هذا ، واحدة إلى هتلر ، والأخرى إلى أبي شنب[١٧] .

وتقدّمنا نحو الشمال ، إلى الضفة المقابلة من النهر . لم يكن في ذلك الجانب حديقة . عبرنا - أولاً - من بين الصخور ، ثم من بعد ، خرجنا إلى مكان مستور . كان في الأمام خمسة بيوت قروية قريبة بعضها من بعضها الآخر ، أسطحها من التبن ، ولكل منها حديقة. وغابت أشجار قليلة تغطّي المرتفعات الواقعة خلف المنازل. جاء الجاويش واصل ايف وهو يزحف على يديه و ركبتيه . وقال :

- أظن أننا ابتعدنا أكثر من كيلو متر من الجسر ، أيها الصديق الملازم .

نظرت إلى الجسر وقلت :

- قل للمدفع الرشاش رقم (١) أن يأخذ مكانه في الجناح الأيمن .

أشار واصل ايف إلى المبنى الطوبي الأحمر المربع الذي يبعد حوالي مائة وخمسين متراً .

- هذا المبنى سليم وخالٍ ، أيها الأخ الملازم ، فماذا لو اتخذناه موقعاً لنا ، ألن يكون هذا جيّداً ؟

- دعك من المبنى ، فالألمان لا يحاربون بالسهام أيها الجاويش . هذا المبنى لا يتحمل نيران المدفع . لا تقترب منه ! ادفع المدفع الرشاش رقم (٢) أيضاً إلى الموقع في أرض قريبة من النهر في الجناح الأيسر . اذهب أولاً أنت وانظر في الأرض ، وبيّن لهم مكانهم .

- سمعاً وطاعة أيها الملازم الصديق .

---

[١٧] يقصد ستالين.

انسحب " واصل ايف " زاحفاً على الأرض عائداً ، وبعد حوالي عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة جاء مرة أخرى إلى جانبي واستلقى ، وقال :

- الجناح الأيمن جيّد أيها الملازم الصديق . تبدو الغابة وتلك البيوت التي في الأمام ، تبدو من خلف التل الواطئ ، و كأنها الطبق . لكن شاطئ النهر في الشمال مكان جد قذر: العلب المحفوظة الفارغة . . الزجاجات . . الزجاجات المهشّمة . . القذارة . . كل قذارة الكسندروفكا هناك . على رقم (٢) أن يأخذ مكانه أمام تلك القذارة أو بعدها بقليل ، فإذا أخذ وضعه وراءها فسيكون وضعها أحسن ، معنى هذا أن خط الدفاع الطبيعي سيكون في الأمام ، وما دام الألمان متمدّنين فإنهم لن يتجاوزوا هذه القذارة بسهولة .

- حسناً ، فليكن خلف القذارة . الذين في الخلف عليهم النوم على الأرض وبين كل واحد وآخر عشرة أمتار . لا يرفع أحد منهم رأسه . هيّا ! اذهب الآن وتعال بعد انتهاء العمل ، لتكتب خطابين لكل من هتلر و أبي شنب.

- سمعاً وطاعة يا سيدي الملازم .

- وعلى الذين في العراء أن يحفروا لأنفسهم حفرا على وجه السرعة حتى لا نتأخر ، وعلى كل واحد منهم ألا يرفع رأسه من الأرض مطلقاً .

التفت وهو ينظر للجسر ، قال :

- من ذا الذي يحب أن يصاب رأسه ؟ لن يستطيع أحد رفع رأسه .

- ما زالت دباباتنا في الطرف الآخر من النهر . ولو كانت هناك سلحفاة لوصلت منذ فترة طويلة إلى الطرف الآخر . الطريق يستغرق ساعتين من بروفومايسك إلى الكسندروفكا . ولا أحد يعرف في كم ساعة سيجتاز الألمان . على كل حال ، أنا ذاهب . هل سأجدك يا سيدي في المكان الجديد ؟

أسرع " واصل ايف " يجري من حيث أقف ، إلى الجنود الذين يرقدون على مسافة حوالي مائة متر في الخلف ، وأنا أنظر بالمنظار المعظم تارة نحو المنازل التي أمامي ، وتارة أخرى التفت لأنظر بها إلى الجسر الذي يقع خلفي .

الدبابات والمدافع الثقيلة تقف في نفس الموضع في الضفّة الشمالية من النهر ، المنازل التي في الأمام ساكنة ولا يظهر فيها أي أثر للحياة . وآخر أشعة ضعيفة من الشمس تنطفئ في المياه الراكدة في النهر . ورويداً رويداً تتغيّر ألوان المنازل التي أمامنا ، والنهر ، والغابة ، وكل مكان . وتحوّلت الأماكن التي حولنا إلى منطقة فاقدة الحراك ، بكماء . وأنظر مرة أخرى إلى الجسر . ما زالت فصائلنا في نفس الموضع . أحدِّث نفسي قائلاً لعلّهم ينتظرون انسدال الظلام جيّداً . وأصبحت لا أرى خطراً قط في سكون الأماكن المحيطة بنا . تبدو الحرب وكأنها بعيدة جداً عنّا . يخيّل إليَّ أن ليس للحرب أدنى علاقة بنا . أريد أن أبقى في هذا السكون حتى الصباح . أرضى بأن أنهض في الصباح لأحارب . أتذكر كلمات الجاويش واصل ايف . هذا الجاويش على حق : الفلاح يذهب إلى حقله صباحاً ، وكذلك على الجندي الذهاب إلى الحرب ، بنفس الشكل . فالإنسان يرى حياته في الصباح ، سهلة براقة . والجندي كذلك . يأتي الجاويش واصل ايف زاحفا على الأرض وهو يمسح عرقه من على جبهته وهو يقول :

- كل شي مضبوط ، أيها الملازم الصديق . فليأت الألمان ، وإذا جاؤوا سيرون كيف نذيقهم العذاب . سنأخذ حقنا منهم ، وإذا بقي أحد منهم على قيد الحياة فإننا سنسوقهم إلى برلين . عندما توجّهت إليهم رأيتهم يكتبون خطابات إلى أهلهم وذويهم . انظر ! لقد تجمّع في جيبي حوالي عشرين خطاباً . آه لو لم أنس تسليم هذه الخطابات إلى القيادة عندما أعود .

- وأنت ألا تكتب ؟

- أمعقول ألا أكتب ؟ ! لقد كتبت بالفعل ! كتبت إلى حبيبتي . مسكينة ! إنها تتوسّل في كل خطاب من خطاباتها أن أكتب . وهي تنتظر مني رسالة كل يوم . وأنا بدوري أكتب . . لكنني أكتب بإيجاز واختصار . . أقرأ عليك واستمع :

« حبيبتي ناتاشا . لم أمت بعد . تحيّاتي » هذا كل ما في الأمر . . فليساعدني الله لأكتب لها مثل هذه الخطابات دائماً حتى تنتهي الحرب .

قمت لألقي نظرة على الجندي . طنّ شيء وعبر من تحت أذني . انكفأت سريعاً على الأرض . ودون أن أجد وقتاً لفتح عيني وإغلاقها بدأ وابل من النيران على الصخرة التي أرقد خلفها . دفع واصل ايف رأسه إلى صدره وقال :

- آه من هذا الملعون .

- هل أصبت يا واصل ايف ؟

- لا ، ياسيدي الملازم . لا شيء لا تتحرّك أنت . لقد رآنا هذا الشيطان . لا تتحرّك . أنا أرى القرية . . الدبابات في القرية . ينزل الجنود من الأماكن العالية الواقعة خلف القرية ، ينزلون إلى القرية ، و الدبابات تحت الأشجار .

- لا أظن أن الدبابات يمكن أن تفعل لنا شيئاً . فالأماكن المحيطة بنا صخرية . لكن بإمكان المشاة أن يهجموا وهم في حماية الدبابات .

- إذا استطعنا أن نبقيهم في القرية ساعتين ، نستطيع بعدها الانسحاب - دون خطر - نحو الجسر ، وسيكون هذا في الظلام .

- لن نستطيع الانسحاب يا واصل ايف إلاّ بعد صدور أمر بذلك من قائد الفرقة .

- هل ظن هذا الديوث أن بإمكاننا مقاومة الدبابات بالبنادق ؟ !

- ترى هل يعرف الألمان أننا نختبئ خلف الصخرة ؟

- أتريد معرفة هذا يا سيدي الملازم ؟

- اسألُ ! هل رأونا ؟

أخرج الجاويش واصل ايف « الكاب » [١٨] من على رأسه وضعها على أوج بندقيته . وبمجرّد أن أظهر البندقية فوق الصخرة ، بدأ سيل من الرصاص ينهمر فوقنا من اليمين ومن الشمال .

قال واصل ايف وهو يضع إصبعه في الفتحات التي أحدثتها الرصاصات في الكاب :

- الحمدلله ، أن لم تكن رأسي داخل هذا الكاب ، وإلاّ فإن الرسالة التي في جيبي كانت ستكون آخر رسالة إلى ناتاشا المسكينة . إنهم لن يسمحوا لنا برفع رؤوسنا من خلف هذه الصخرة .

- هل ترى المنازل جيداً ؟

- أرى ، من الشمال إلى اليمين ، نصف المنزل الأول ، والمنزل الثالث والرابع جيداً . ليس هناك عسكر في المرتفع الواقع خلف المنازل . الدبابتان القابعتان تحت الأشجار ما زالتا في نفس الوضع . غدّارون . أين كانوا طول النهار ؟ هل أثر خطر الحرب على عقولهم الآن؟.. ولم أستطع بعد إرسال خطاب إلى ناتاشا . إذا كتب الله نصيباً فإني سأكتب لها في الصباح خطاباً آخر أقول لها فيه إنني مازلت حياً لم أمت . مازال جنود العدو ينزلون القرية من المرتفع الواقع خلف القرية .

- هل عددهم كثير ؟

- لا أستطيع التحديد . إنهم يأتون في مجموعات . حوالي كتيبة .

يلتفت واصل ايف وينظر إلى الجسر .

---

[١٨] قبعة الجندي.

- لا أظن أن جنودنا يستطيعون العبور من على هذا الجسر . والألمان لا ينامون أيها الملازم الصديق . وبعد خمس دقائق أو عشر ، سيفتحون النيران على الجسر ، في ذلك الوقت لن تعجز الدبابات فقط عن العبور ، بل إن الفئران ستعجز عن ذلك أيضاً .

أخرجت ورقة من حقيبتي الجلدية وأخذت أكتب الآتي :

" تتجمع قوات العدو على بعد خمسمائة متر ، منا . أرى دبابتين وعددا من الجنود المشاة تقدر بحوالي كتيبة . لن ننسحب طالما لم يأت منكم أمر بذلك . توقيع طوران "

سلَّمت هذه الإشارة إلى الجاويش واصل ايف ، وقلت له :

- سلِّم هذا بنفسك إلى قائد الفرقة أو إلى الكوميسير شيشكوف .

- سمعاً وطاعة أيها الملازم الصديق .

يقول هذا وعيناه الصغيرتان تبتسمان وهو ينظر إلى عينيّ ، ثم أخرج خطاباً من جيبه الداخلي ومدّ يده به إليَّ وقال :

- خطاب ناتاشا ، يا سيدي الملازم . يعني إن متّ ، فعليك أن تزيد بضع كلمات تحت عبارة : " لم أمت بعد " .

يصافحني واصل ايف ، ويشد على يدي ثم ينسحب عائداً زاحفا ويختفي ، وراء الصخور وبذهاب واصل ايف ، أخذ العدو المتربِّص في الأمام أيضاً في إطلاق النيران . لم يعد من الممكن رؤية الجسر ، خلفنا ، من كثرة النيران . اختلط بعض الأشياء ببعض : الأرض والطين والماء و الدخان . يمر الرصاص من فوق رؤوسنا ، ويطير في استقامة الكسندروفكا ، وهو يصفر بألم . وصلت النيران إلى درجة من إثارة الدهشة حتى أنني لم أجسر على رفع رأسي . قال لي واحد ممن حولي :

- أسليم أنت أيها الملازم ؟

- أأنت واصل ايف ؟

- نعم أنا . رجالنا أخذوا مجموعة من المنازل هذه التي في مقابلنا ، تحت وابل نيرانهم. لم يأخذوا المنازل فقط ، بل أخذونا نحن أيضاً . أطلق رجالنا النار على ثلاثة أو خمسة تقريباً من الجنود كانوا قد أرادوا الانسحاب إلى الخلف . إننا بين نيرانين يا سيدي الملازم . لم تكن هناك إذَن أدنى فائدة من هذا الخبر الذي ترسله سيادتك إلى شيشكوف .

- لا . لا تذهب . فالعدو لم يبدأ هجومه بعد . أظن أنهم يرقدون في وضع الاستعداد للهجوم أسفل شجيرات الحديقة . خذ المدفع الرشاش رقم (٢) إلى الجناح الأيمن . وانتظر أمر إطلاق النار .

- سمعاً و طاعة أيها الملازم الصديق .

عاد الجاويش واصل ايف مرة أخرى زاحفاً . أخذ تأثير نيران المدافع الرشاشة عند العدو ، يزداد حيناً بعد حين . يغمر العدو بالرصاص - وبدون توقّف - جدران البناء الأحمر الذي يبعد عنا من اليمين حوالي خمسمائة متر ، وكأنه مطر ينهمر على الطريق المترب. أصبح مفهوماً من قذائف العدو المتساقطة على اليمين وعلى الشمال وعلى الخلف والأمام ، أنه يريد أن يأخذ المبنى بطريقة نيران الشوكة . . أخذ مشاة العدو في الهجوم بعد إطلاقه النيران المستمرة مدة خمس عشرة دقيقة . لم يكن يبدو أن رأساً سيرتفع من تحت هذه المدافع المدوية والقذائف والقنابل اليدوية المنطلقة . جاء صوت واصل ايف من على يميني :

- العدو يتقدم نحونا يا سيدي الملازم !

- لا تطلق النار يا واصل ايف . انتظر أمري . حتى إذا تقدموا منا أكثر . . .

إني أرى جيداً جند العدو الناهض للهجوم . أريد أن أحصيهم عداً . ثلاثة . خمسة . . سبعة . . العدّ يتداخل . يجري الجنود الخارجون من الحدائق ، يجرون نحو اليمين ونحو الشمال ثم يغيبون عن الأنظار ، ثم يظهرون وكأنهم يتدفّقون من تحت الأرض ويتقدمون نحونا معتدين . يداي وقدماي ترتعش وأحاول في نفس الوقت ألاّ أفقد رباطة جأشي . أمامنا منطقة مستوية تشبه كف اليد . بفضل هذا الاستواء سيتم إنقاذنا . يتقدم الألمان نحو ذلك الفخ . ستكون روح كل واحد منهم في يدي في حالة خروجهم إلى هذه الأرض المستوية . ترى هل يرى واصل ايف هذا الاستواء جيداً مثلما أرى . كنت أفكر في هذا بشك . صعبٌ للغاية ، وصولي إلي حيث يرقد واصل ايف . لكني أتخذ قراري . أتوجه زاحفاً نحو الجناح الأيمن . يرقد الجاويش واصل ايف بسكون بين مدفعي رشاش .

- أيها الجاويش واصل ايف ! هل ترى هذا الاستواء الذي في الأمام ؟

- أراه ياسيدي الملازم . أراه .

- لا تطلق النار . إيّاك أن تفعل هذا ، حتى يخرجوا إلى هذه البقعة المستوية . وانتظر أمري . أنا متوجه إلى الجنود الذين في الخلف . لا تخف . انتظر . انتظر أمر إطلاق النار مني . لا تخف . دعهم يأتون قريباً منا . واعلم أنك إذا خفت فإنك ميت .

- أنا لا أخاف يا سيدي الملازم .

- حسناً جداً . إذا لم تخف ، فغداً صباحاً تكتب خطاب آخر إلى ناتاشا .

أعود زحفاً إلى الصخرة التي كنت أرقد خلفها منذ حين .طلقات الرصاص المجنونة مازالت تئز في المكان . لكن النيران خفت . هكذا دائماً تخف النيران قبل احتدامها . يرقد جنود العدو في سكون في الحفر خلف الأرض المستوية . ينتظرون - غالباً - نيران الدبابات ومدافع الهاون الموجودة في الخلف . أرغب في تدخين سيجارة .

لم يحدث في حياتي كلها أن اشتهيت تدخين سيجارة بهذا القدر الذي يحدث الآن . قطعت على نفسي وعداً بأن أشعل سيجارة بمجرد أن يفتح العدو نيران مدافعه الهاون . تسقط قذيفة أمام البناء الطوبي الواقع على الجانب الأيمن . تراك . . بوم . . انطلاقات البنادق وأصوات المدافع يختلط بعضها ببعض . أصبحت الأرض المستوية التي في الأمام فجأة وفي لحظة واحدة ، لا ترى خلف ستار من الدخان مرافعة في السماء . صوت واصل ايف يأتي من بين ضجيج المدافع والقنابل .

- سيدي الملازم ! العدو في الأرض المستوية .

أنظر إلى الأرض المستوية ، وأنا أعتدل فوق ركبتي ؛ فأرى الجنود الألمان الذين يجرون في هذا الاستواء بين أعمدة اللهب والتراب الكثيفة المتصاعدة أمامنا . تمر قذائف الرصاص من فوق رأسي . الرصاص يغمر الصخور المحيطة بي وكأنه مياه المطر الشديد ، يصطدم بالصخور ، فينتقل إلى الأماكن الأخرى . وما قلته منذ حين لواصل ايف ، يردده الآن في داخلي صوت ما :

- لا تخف يا صادق . واعلم أنك إذا خفت فإنك ميت !

لا أخاف . إن هذا الصوت المنبعث من داخلي ، يمنحني القوة . العدو في الأرض المستوية . ترى هل يعلمون أن الموت ينتظرهم ؟ إنهم غالباً لا يشعرون بالخطر . كلهم واقفون على أقدامهم . يتقدمون ببطء يبدو أنهم أيضاً لا يخافون . لكني أحس بأني أقوى منهم . الألمان لا يستشعرون الخطر . وهذا ما أصبحت واثقاً منه . يتقدمون نحونا بلا خوف، ولا يرون موجباً للاختباء . يبدون أنهم مغرورون للغاية . أصيح وأنا أجمع في صوتي كل جرأتي :

- النار ، يا واصل ايف ، النار !

نفس الصيحة المنطلقة من صدر واصل ايف ، تضغط في لحظة ، على طلقات المدافع .

- النار ! يا رقم (٢) ! النار . . . يا لهم من !

طرا - طا - طا - طا . . طرا - تا - تا - تا - . إطلاق طويل وقصير وصوت قنابل اليد . مسرح موت حقيقي في الأرض المستوية التي أمامنا . مسرح حي ، أكثر رهبة من جهنم "دانتي" .

المدفعان الرشاشان كانا يعنيان بالنسبة لي حتى الآن عدد اثنين من مدافع الرش . أما الآن فإنني أدرك أن بعض قطع من الحديد ينضم بعضها إلى بعض يمكن أن تصبح شيئاً مروعاً . تصمت نيران العدو فجأة . أما بنادقنا فتمطر الموت دون توقف . يأتي واصل ايف نحوي وهو يجري .

- يحيا سيدي الملازم ! لقد كنت مصيباً في قرارك ، دقيقاً كالساعة السويسرية .

- انبطح أرضا يا واصل ايف !

- غداً سأكتب خطاباً إلى ناتاشا .

- اذهب يا واصل ايف إلى الرشاشين في الخلف وأطلق النيران دون توقف على المنازل التي أمامنا ، وعلى الحدائق . لا تترك مكانا دون نيران فالقوات الأسياسة للعدو هناك.

- لا أرى الدبابات أيها الصديق الملازم .

- لا بأس . عندما تأتي الدبابات ، ننسحب نحن ، إلى الخلف مائتي متر . الصخور التي في الخلف أكثر ارتفاعاً . ولن يستطيعوا عمل شيء ، لا تخف لا تخشى الدبابات ، نحن أيضا مدفعيون . اعمل كما قلت لك . حوِّل النيران إلى الحدائق .

- سمعاً وطاعة أيها الصديق القائد .

- اذهب أولاً لرؤية الرجال في الخلف . قل لهم أن يأخذوا وضعاً أفضل . ولا أظن أن في إمكان مشاة العدو أن يهاجموا ، لكن نيران المدافع ستكون أشد رعباً . قم بإحصاء الموتى والجرحى وتعال أخبرني بالنتيجة .

انسحب الجاويش واصل ايف إلى الخلف . انصبت كل نيران العدو على الجسر . لم أعد أرى جيداً ، الجسر الذي ظل خلف الدخان والأرض والماء المنبعث . عاد واصل ايف بعد عشر دقائق . حثا على ركبتيه بجواري وقال :

- ثلاثة موتى . ثمانية جرحى واثنان من الجرحى في حالة خطيرة والآخرون مازالوا يستطيعون استخدام السلاح .

- حسناً ، اجلس بجواري أيها الجاويش واصل ايف .

يجثو واصل ايف على ركبتيه ينظر بعينيه اللتين تخلوان من الرياء إلى عينيّ . يود أن يصادقني ويكون ظهيري . يمسكني من ذراعي ، ويقول :

- نعم يا واصل ايف . سيهاجموننا مرة أخرى قبل حلول المساء ، كما أنهم سيطلقون هذه المرة نيراناً أشد . إنهم يريدون أن ينزعونا من هنا ليحلوا محلنا ، ولو استطاعوا التسلل من بين هذه الصخور فإنهم سيتمكنون من السيطرة على الجسر ؛ بنيرانهم من كل جانب . هدفهم احتلال المكان قبل حلول الظلام . إنهم لن يستطيعوا عمل شيء في الظلام.

- لا أظن أن الجسر يمكن أن ينجو من نيران المدافع .

- يستطيع الجنود عبور النهر دون الحاجة إلى جسر .

- نعم يمكن للجنود العبور . لكن الدبابات لا تستطيع هذا ، وكذلك المدافع .

- والدبابات ! يا لها من دبابات . ب٢٧ و ب٢٨ والمدافع كلها قديمة . هل تعلم أن هذه المدافع ، مدافع من عهد القيصر نيقولا ؟ ومع ذلك أحسن من الدبابات . يمكن الحرب بها . أما الدبابات . . . هل تذكر دباباتنا ؟

- أمعقول ألا أتذِّكر !

- يسمون هذه الدبابات في بلادي " توابيت المدفعيين " . كان المسكين ينتظر دبابة جديدة وعندما تأتي الدبابات . . .

- هل هو حيٌّ يا ترى : جريشة ؟

- لا أدري يا واصل ايف . كان جرحه بالغاً ، هيا يا واصل ايف ، إلى الجناح الأيمن . . قبل إنهاء كلمتي انفجرت على يميني قذيفة . القذيفة الثانية في الخلف على بعد مائتي متر . . الثالثة . . الرابعة . . الخامسة . انبثق الحجر والدخان من الأرض . حصل بركان في الأرض . انطلق واصل ايف إلى الجناح الأيمن . أصبحتُ لا أستطيع رؤية شيء . السبب : اللهيب والدخان في المكان .

- يا واصل ايف ! واصل ايف ! أطلق النار على الحديقة المقابلة ! النار يا واصل ايف ! يصيح واصل ايف . لكن لم أستطع فهم ما يقوله . ازحف بشكل أو بآخر . أين واصل ايف ؟ تصدر من خلف الدخان أصوات وصيحات . أين واصل ايف ؟ لماذا لا تطلق رشاشاتنا النار ؟!

- واصل ايف ! . . . واصل ايف ! أطلق النار !

وأخيراً يصل صوت واصل ايف إلى أذني من بين هدير المدافع .

- رقم (٢) أصيب ياسيدي الملازم . الدبابات على يميننا . . الدبابات تطلق النار . الجنود المشاة خلف الدبابات . رقم (١) جريح . إنهم يسرعون نحونا . إننا ننتهي .

- انسحب إلى الخلف يا واصل ايف ! أسرع نحو مصدر صوتي . هل سمعت يا واصل ايف ؟

- لا أستطيع الجري ياسيدي الملازم . أنقذ . . . لا أستطيع الجري أيـ . . .

سكت واصل ايف فجأة . انطلقت سريعاً نحو المكان الذي كان الصوت يأتيني منه منذ حين . كان يرقد منبطحاً على الأرض ، على وجهه ، بين مدفعي رشاش . قلبته على ظهره . شعره الأسود : أصبح أكثر سواداً ، والشعر قد التصق على جبهته بفعل الدماء . أمسكت يده وكانت اليد التي أمسكت بها تبرد في كفي . أردت أن أخرج خطاب ناتاشا من جيب معطفه الداخلي . في أثناء ذلك تماماً انفجرت قذيفة على بعد ثمانية أمتار أو عشرة ، وقبل أن أجد وقتاً لكي أغمض عيني وأفتحها ، تصاعد التراب الممزوج بالدخان من على يميني وعلى يساري . لكني أتذكر أنني أخذت رأسي بين ذراعيَّ . لأحتمي من الأحجار ومن التراب الهاطل عليَّ . ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك ؟ لكن عندما فتحت عيني رأيت شخصاً فوق رأسي جاثياً على ركبتيه ، قاطباً ما بين حاجبيه يصب عينيه على عينيَّ . لاحظت بعد ذلك مباشرة أنه يوجه فوهة بندقيته إلى صدري . الرجل الواقف بجانبي يقف دون حراك البتة وكأنه تمثال حي . إلاّ أنه ينظر إليَّ بحدّة . كانت عيناه داميتين مثل عيون هؤلاء الذين يتعاطون الخمر كثيراً . كان يبدو في هذا السكون أكثر خطراً . أخذت أطراف شفتيه بعد ذلك ، وكذلك جناحا أنفه بالارتعاش رعشة حيوانية . قال وهو ينخز بندقيته في صدري :

- بولشفيك ؟

- لا .

يصيح مرة أخرى بخشونة :

- بولشفيك ! روسكي . . روسكي !

وكما أمسك بغطاء رأسي وهو يصيح بذلك ، ضغط بين إصبعيه على النجمة الحمراء التي فوق هذا الغطاء وحلّها كما لو كان يحلها بكماشة وألقاها إلى النهر . فهمت عندما أبعد فوهة البندقية عن صدري أنه وهب لي الحياة . لكنه كان دائماً يبدو قاسياً ودوماً كان يتصرف تصرف خشناً . أفرغ جيوبي وهو يسب بصوت وحشي . وألقى ما وجده إلى النهر : علبة دخان والولاعة الصغيرة وروبلين وهما كل ما معي من نقود . وجد في جيبي الداخلي صورة عائلية خاصة بي . ظننت أنه سيلقي بالصورة إلى حيث ألقى ما سبق . ولم يحدث ما ظننته ، بل العكس حصل . سريعاً ما ظهرت على طرفي شفتيه ابتسامة ذات معنى، وانمحت سريعاً خطوط الحدة الموجودة بين حاجبيه وقال وهو يمد يده بالصورة إليَّ وقال :

- بابا . . ماما . . بابا .

أخذت الصورة من يده ونظرت إلى وجهه بابتسامة رحيمة صادرة من قلبي . لكن وجهه تغيّر مرة أخرى ، واتخذ تعبيراً خشناً مهدداً . وقال مرة أخرى :

- بولشفيك ؟

- لا . .

أردت أن أفهم الجندي بفخر من أي أمة أنا .

- تاتاري " تتري . . أنا تاتاري " .

يبدو أنه لم يفهم ما أردت قوله ، فلم تنفرج علامات الخشونة التي في وجهه . وبنفس الصوت قلت له :

- أنا تاتاري . . تركي . . تركي .

ابتسم هذه المرة ، وفجأة ، استدار إلى الخلف . وصاح بضابط منكفئ على وجهه داخل حفرة في الخلف ، صاحبه قائلاً :

- آيني توركيش أوفيسيير ، هرلوتنانت ! تروكيش أوفيسيير . اقترب مني الضابط وهو نصف مائل وهو يجري وقال أشياء للجندي الذي أخذني أسيراً . تحدثا طويلاً وهما ينظرن إلى الجثث الألمانية الراقدة في الأرض المستوية ، ثم التفت الضابط نحوي . تطلع إلى وجهي ، ضحك ، وقال وهو يتحدث بلغة نصفها ألمانية ونصفها روسية مشيراً إلى الموتى .

- كوروشي صولدات ، تي ، كروشا . تسهيركوت صولدات .

- ثم شدَّ على يدي مصافحاً .

كان الجنود الألمان يجرون نحو الجسر في مجموعتين . أخذ الظلام يزحف وأصوات الحرب تنحني وتبتعد عني رويداً رويداً . أنهضني الجندي الذي بجواري ، على قدمي ، وسرنا نحو المنازل المقابلة : هو في الخلف وأنا في الأمام .

القسم الثاني: الأسير

(٥)

روما في ٣٠ / ٥ / ١٩٤٦

أريد أ أنهي القسم الأول من مذكراتي ، هنا . تبدأ في حياتي مرحلة أخرى ، حياة أخرى ، حياة أخرى ، حياة رهيبة . أريد أن أسجل حياتي هذه ، هنا أيضاً . هل أستطيع تسجيلها ؟ لا أدري . على كل حال ، لن يحدث هذا ، في هذا المساء ، فرأسي محموم . ربما في الغد . ربما أصبح في الغد " طوران" القديم ، مرة أخرى بعد أن أطرح مخاوفي جانباً . أرى أحياناً وجوه الموتى ومن عرفت من الناس ، أراهم في ثنايا لهيب حياتي الجديدة هذه ، وأصبح وكأني أسمع صرخاتهم الرهيبة وأنّاتهم . ربّما أستطيع الكتابة .

هكذا حاربنا . مات كثيرٌ منّا ، وراحوا في ملف النسيان ، راحوا بلا مقابر وبلا شواهد قبور . راحوا ، ونُسوا في الوديان وفي سفوح الجبال ، في الصحاري المقفرة ، بعيداً عن الوطن ، بعيداً جداً .

كثير منا ينتظر أثناء نفينا في البلدان الأجنبية ، المدد والعون من الله تعالى . جرحى ، مرضى ، فاقدو الأقدام ، فاقدو السيقان ، أنصاف أجساد . . . إنهم ينفون مَنْ بقي في وطننا القرم : أطفالنا ، آباءنا بلحاهم البيضاء ، أمهاتنا ، بناتنا . يملأ الشيوعيون بهم عربات الحيوانات والقطارات وينفونهم إلى غابات سيبيريا البعيدة الوحشية . أمة تئن وهي تنادي قائلة : "الوطن ! الوطن !" وهي تحت سوط العدو ،

إن العداء الرهيب الذي بدأه بوتمكين عام ١٨٧٣ ، يتمه اليوم هؤلاء الثملون فاقدو الإحساس . خلال مائة وستين عاماً من الظلم والتعذيب ، انسحقت أمة عظيمة شجاعة أبية ، داخل صفائح الموت في غابات سيبيريا السوداء الوحشية وفي نيران صحاري أوروبا وفي البحار الغائرة . ذابت هذه الأمة واختفت . الباقون أبعدوا نفياً ، عن وطنهم .

أفكّر : لماذا اضطهدت روسيا بكل هذا الشكل الذي يخلو من الرشف ، هذه الأمة التتارية العظيمة الشجاعة الشريفة .

قال لي روسي من أنصار فلاسوف[١٩] ، متحضر للغاية ، أثناء حديث مثير بيننا في قهوة في وارسو عام ١٩٤٣ ، الكلمات الآتية :

- إن حياتكم هذه التي تتسم بالأسر ، إنما تعني حماية كل روسيا . أيمكن أن تكون روسيا روسيا بدون القرم وقفقاسيا وتركستان ؟ إن روسيا سواء كانت روسيا البيضاء أو روسيا الحمراء ليست ضد أفكاركم الاستقلالية فقط ، بل ضد وجودكم نفسه . واعلم أن روسيا المستقبل وبعد هذه الحرب ، أياً كان لونها ستكون ضدكم . ولهذا أقول لك : عليكم أن تنسوا الماضي وعليكم بالتفكير في مستقبلكم .

كنت أعلم هذا منذ أمد طويل . لذلك لم أعترض . لكني عندما كنت أبتعد عن هذا الضابط قلت له : « سأقتلك في أول فرصة » . . ماذا كان يمكن أن أقول له غير ذلك. تُرى هل كان لهذا الكلام صداه في نفسي عندما كنت أواجه الألمان ؟ لو لم يكن هذا لكنت هربت ونجوت . إذن سأسير في الطريق الذي يدلني عليه قلبي . سأحارب . . سأقتل كل ضابط بل كل من يتلفظ بالسوء ضد أمتي التي بذلت دماءها منذ السنين الطويلة في سبيل وطنها واستقلالها.

---

[١٩] فلاسوف: جنرال حارب ضد الروس بجيش من الروس الذين سقطوا عند الألمان.

في ذلك المساء ، نقلني الجندي الألماني إلى المنازل المقابلة وأغلق عليَّ إسطبلاً ؛ إسطبلاً مظلماً . لم يتحدث إليّ ولم أتحدث إليه طوال الطريق . كان ذلك نتيجة لعدم معرفتي جيداً بمعنى الأسر . كنت مسروراً بالنجاة من عاصفة النيران . كان يخيّل إليَّ أن هدير المدافع وأصوات انطلاقات البنادق - وكانت تبتعد عني رويداً رويداً - أنها آخر أنَّات الحرب . كنت أظن أن الحرب قد انتهت بالنسبة إليَّ . فكّرت في البداية أن الحرب شيء غريب ، وكان ذلك قبل إحساسي بالوحدة في الإسطبل ، وأن ديدباناً يقف بسلاحه أمام الإسطبل ، وأنه لا يتركني . وبدون إرادة بدأت أرى هذا الإحساس لم يستمر طويلاً . استيقظت في أعماقي ذكريات حلوة . فكرت في بلادي الجميلة . تذكرت كل حديقة في قريتي وكل أشجارها وكل بيت فيها ، وعيون الماء ، والمياه . ثم رأيت وجه أمي بكل جماله ، وبكل رحمته . كانت تنظر إليَّ بعينيها الباسمتين . أردت أن ألمس شعرها الأبيض وأربت عليه حتى الصباح وأضغط رأسها على صدري . كانت أمي أحياناً تختفي من أمام ناظري . وكنت أحاول استرجاعها مرة أخرى أمام عينيّ . في ذلك الوقت كان ألماني يندس بيننا ويصيح ، وعيناه قد امتلأت دماً ، وكانت رهيبتين ، وحاجبها مقطّبين ويقول : "بولشفيك ! روسكي . . روسكي !" . ثم نمت . وفي الصباح التالي وجدت عندما استيقظت عدة أسرى في الإسطبل . كنت لم أشعر بأن أحداً ألقاهم في الإسطبل . كلهم متعبون وكانوا مثلي منهكين . بينهم جرحى ، وكانوا يتحدثون بصوت خفيض . فتح باب الإسطبل بعد قليل ، وامتلأ الداخل بضوء الصباح اللطيف الذي في الخارج . كانت الحدائق الخضراء التي تظهر من فوق أكتاف الجنود الألمان المسلحين الواقفين أمام الباب ، تتمتّع بالدفء تحت أشعة الشمس. بدت الدنيا لي وهي بلا حرب ولا نار ولا موت ، جنة من الجنان . أخذت أفهم رويداً رويداً أن دنياي تختلف عن دنيا الموجودين معي في الإسطبل . وعندما وقفت على قدمي وأردت السير نحو الباب ، رأيت بجواري إيفان الكسندروفيتش شيشكوف . كان يرتدي ملابس ممزّقة من على ظهره ، قذرة وبلا أوسمة . كان وجهه يبدو مضطرباً جداً .

مريضاً مرهقاً . نظر إلى عينيّ وكأنما كان يريد قراءة ما بقلبي . ابتسمت . اتجه برأسه إلى الأمام وفجأة رجع إلى الخلف وسار ناحية الجانب الآخر من الإسطبل . فهمت من حركته أنه لا يريد التحدّث معي . هل كان مغتاظاً مني لأنني وقعت في الأسر ؟ ألم يؤسر هو أيضاً؟ ! ربّما لأنني ورجالي لم نستطع مقاومة هجوم العدو ؟ ! ماذا يمكنني أنا أن أفعل بثلاثين رجلاً ، في الوقت الذي لم يستطع هو المقاومة بألف جندي . لم أفهم معنى حركة شيشكوف هذه إلاّ بعد يومين . قبيل مساء أحد الأيام جاء الألمان وأخذوا من يحمل رتبة كومسيسر من الموجودين بيننا . وذهبوا بهم إلى حيث حفرة عميقة على أحد أطراف ألكسندروفكا ، وأجلسوهم على ركبهم على حافة هذه الحفرة التي كان الألمان قد جعلوا الأسرى يحفرونها بأيديهم ، ثم قام الألمان بإطلاق الرصاص على رؤوس هؤلاء الذين أخذوهم من بيننا . شيشكوف فقط هو الذي بقي حيّاً منهم . كنا معاً في معسكر كيفوجراد ، ثم بقي هو في كيفوجراد وأرسلوني أنا إلى معسكر أوصان .

عند اقتراب الظهر ، جاء الجندي الألماني الذي أسرني قبل يوم إلى الإسطبل ودعاني إلى الخارج . خرجت . نسير الآن في شارع ضيق ممتد بين الحدائق . أخاف قليلاً ، ولكن كنت أفكر في الوجهة التي سيرسلونني إليها ، أكثر من تفكيري في الموت . ربما يطلقون سراحي ؟! . . من يدري ؟! ولكن هل يمكن أن يطلقني من إساري بينما الحرب مازالت دائرة ؟! أتلفت حولي : حياة لطيفة وعذبة . وكأن الحياة انبثقت من الأرض وسيطرت من جديد على هذه الأراضي التي استوت بالأمس فقط بأنفاس الموت المكونة من اللهب . ربّما أن الدنيا تبدو هكذا أمام عيني أنا فقط . خرجنا من منطقة الحدائق . نقترب الآن من منزل صغير ؛ انهار سطحه التِّبْنيِّ انهياراً قليلاً . أرى أمام المنزل ، في الفسحة البيضاء ، مطبخاً عسكرياً وكان أحدهم يتجول بجانب المطبخ ، وكان يرتدي قميصاً أبيض اللون ، وكان طويل القامة يشبه المصارع ويبدو مسروراً . أفهم أنه الطاهي . توجه الألماني الذي معي إلى هذا الطباخ وقال له أشياء ، يتحدث عني ، ثم يتركني بجانب الطباخ ويرجع . ينظر الرجل ذو

القميص الأبيض إليَّ شذراً ، ثم يشير وهو يضع يده على كتفي إلى الحطب والفأس الذي بجوار جدار المنزل أفكر أنهم جاؤوا بي هنا لكي أخدم . أضحك من أعماقي . اشتغلنا لحساب الروس سنوات طويلة ، وقعنا في الأسر ، وعلينا الآن أن نقطع الأخشاب للألمان !!

- أنا راض بقطع أخشاب غابة كاملة وليس خشباً بسيطاً فقط ، إنما فقط يا صديقي حَرِّرْ أمتي .

يهمس الألماني بأشياء ثم يحدّث نفسه ، أقوم بكسر الأخشاب ، وتنظيف المطبخ . وإحضار حذاءه المتسخ وأنظفه له ، وأنظف أيضاً بذلته الرسمية وأعمل فيها الفرشاة . وعند المساء ، يعطيني حساء في علبة طعام معلّب فارغة ، من صفيح صدئ . وعندما أجلس إلى الجذع الخشبي الذي كنت كسرت أخشابه ، أجلس لكي أشرب الحساء ، ساعتها يأتي نحوي ويضع يده على كتفي ويقول :

- تورك جوت ! تورك تسيهر جوت .

لكن بسمته تخلو من اللطافة ومن الرحمة . تبدأ الآلام في نفسي . تتجمع . أفكر في هؤلاء الأسرى الذين تركتهم في الإسطبل ، جياعاً مرهقين ، أفهم أن الحساء الذي أعطاه لي الرجل في العلبة الصفيح الذي أحمله في يدي إنما كان فقط من أجل أنني تركي . لا أدري لماذا يخيّل إليّ أنني بعت تركيتي بثمن بخس ؟ وأخيراً تركت العلبة الصفيحية بجانب الجذع الخشبي وأقوم واقفاً على قدمي . قال لي الألماني وكأنه يأمرني :

- كل ! كل !

لا أستطيع الأكل . شيء يقف في حلقي . أريد وأنا أحرك رأسي أن أشرح للألماني أنني لا أستطيع الأكل . تتغيّر ملامح وجهه ، وفي لحظة ، يرجع إلى الخلف وينظر في عيني كأنه حيوان متوحش عزم على تحطيم من أمامه ، وشفتاه

ترتعشان . ينفتح جناحا أنفه وينغلقان . يتحول إلى حالة مخيفة . يضطرب . أفكر في أي ذنب اقترفته حتى يصبح هكذا؟! اللهم احمني . يبدأ التوتر يتملكني .

يصيح الألماني وهو يشير بيده إلى العلبة الصفيح قائلاً :

- نيخت جوت ! نيخت جوت .

أفهم الآن أن الألماني قد غضب لأنني لم أشرب الحساء ، وبينما أظن أن هذا لن يستمر طويلاً ، وقبل أن تطرف عيناي ، يقلب الألماني بقبضة يده العلبة ، وينطلق نحوي . أسقط أرضاً بلكمة قوية تنزل على فكي . يقدح في عيني برق ، وقبل أن أجد وقتاً لكي أقوم يأخذني الغبي أسفل ساقيه ويبدأ في تسديد ركلاته إليّ . ينزف الدم من أنفي حتى أذني وتنشق شفتاي . يداي ووجهي ينزفان دماً ، ثم ينهضني على قدمي وكأنه يمسك بتلابيبي ويدفعني أماه ويسوقني إلى الإسطبل . ويسدد إلي ركلة أخرى عندما أخذنا طريق الحديقة بعد خطوتين أو ثلاث خطوات . يضربني على رأسي بلكمة ويدفعني . أجثو على ركبتي ، أتكوّم على الأرض ، أزحف . تعوي الكلاب في الحدائق وحتى وصولي إلى الإسطبل ، ولا أدري هل السبب في ذلك الألماني أم حالي الغريب ؟ لا أدري . أدير أحيناً رأسي يمنة ويسرة في خوف . أرى خلف نوافذ المنازل الواطئة ، النساء كبيرات السن ، كنت أيضاً أرى الفتيات لكنهن يبتعدن عن النافذة بمجرد أن يروني . الألماني أمام الإسطبل يمسكني من ذراعي ويقذف بي إلى داخل الإسطبل . أتكوم وأنا منطرح أرضاً على وجهي بين الأسرى . ينظر الأسرى نحوي نظرات دهشة وتعجّب ، ثم رويداً رويداً يبتعدون عني وهم يتحدثون بصوت خفيض :

- ضد ألمانيا . .

- إنه كوميسير من المفوضين السياسيين الروس .

- لم يُضرب هذا الديوث إلاّ قليلاً ، كان يستحق القتل .

لا أستطيع إخراج صوتي . لا أحد ينظر إليّ ، لا أحد يعرفني . أرى هناك بجوار الحائط إيفان ألكسندوفيتش بكتفيه العريضين ، وهو يدير ظهره إليّ . يخيّل إليّ أن شيشكوف بعيد عني جداً . أنهض بهدوء على قدميّ وأنسحب ناحية ناصية مظلمة في الإسطبل . وهناك بقيت كطفل يتيم لا أحد له ، أبكي وأنا أنظر إلى الدماء التي جفّت في ذراعي وبين أصابعي .

يبدو الجاويش "واصل ايف" أمام عينيّ . يا إلهي !! لماذا لم تخترق مخي تلك الرصاصات التي اخترقت رأسه مساء أمس ؟ !

لكني أحسست ، في تلك الليلة ، بآلام قلبي ، أكثر من إحساسي بآلام عظامي . رأيت أمي تتجّه نحوي ، في منتصف الليل ، كانت تسير على الأسرى النائمين في الإسطبل، وقد ارتدت ثوباً أسود من الحرير . الثوب يمتد من رقبتها حتى كعبي ساقيها . وكان شعرها مضطرباً ، تمسك في يديها سيفاً دامياً تشهره نحو الأمام . استيقظت . قمت واقفاً على قدمي وأنا أَخُرُّ عَرَقاً ، فاختفت أمي من أمام عيني . أهي رؤيا ؟ . . لقد رأيت أمي ، بعدها مرتين أخريين ، وهي تشهر سيفاً دامياً وتسير نحوي ، بنفس ثوبها الطويل الأسود ، وشعرها مضطرب بنفس الشكل .

وصل قسم آخر من الأسرى إلى الإسطبل مساء ١١ أغسطس ، وبذلك وصل عددنا إلى خمسمائة . امتلأ الإسطبل كثيراً حتى وقفنا ليلاً - وحتى الصباح - على أقدامنا . وفي اليوم التالي - مبكراً - جمعنا الألمان في ميدان في طرف القرية . وحولنا حلقة من الجنود المسلحين . نحن في وسطهم طوال اليوم ، استمعنا إلى الأخبار التي أتى بها الأسرى الجدد . يقول هؤلاء الجدد إن الفرق الألمانية كانت تتقدم نحو الغرب بسرعة البرق . وإذا تقدم الألمان بهذه السرعة فإن موسكو ستسقط مائة في المائة خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . كان مما لا شك فيه أن الهجوم لن يفقد سرعته ، ذلك لأنه ليس ثمة أحد يرغب في الحرب ضد ألمانيا في صفوف الجيش غير

الكوميسيرات هؤلاء المفوضين السياسيين ، ففي بعض أماكن أوكرانيا قام الفلاحون بالتمرد .

ينظر الأسرى الذين يستمعون إلى هذه الأخبار ، ينظرون إلى روسيا التي تتلوى وتتقلص تحت الاحتلال الألماني ، كما ينظرون إلى شيء ميت عديم الجدوى . في تلك الأثناء ظهر من بين الزحام صوت يصيح قائلاً :

- الخبز ! . . الألمان قادمون . هناك خبز في عربيات النقل . سيعطوننا خبزاً . وفجأة يحل صمت على المكان . الخمسمائة أسير - كأنهم إنسان واحد - ينظرون إلى الأمام . . إلى أربعة من الألمان يتقدمون نحو الميدان بخطى ثقيلة . يمسكون بطانية سوداء ، من أطرافها الأربعة يتماوج الزحام مثل بحر ثائر . يجري هؤلاء البشر الجائعون منذ أيام عديدة بلغ الجوع فيها لديهم ذروته . يمدون أياديهم وينظرون بنظرات وحشية نحو الألمان الذين يقفون في المرتفع المقابل . لكن أحد الألمان صاح قائلاً :

- إلى الخلف ! إلى الخلف ! أيها الخنازير !

تقف الكتلة البشرية فجأة في المكان الذي هي فيه ، ثم تبدأ في التراجع خلف ذلك الصوت وكأنها رأت كل ألمانيا الكبيرة والمخيفة . كنت مازلت مستغرقاً أفكر في الأخبار التي أتى بها « الجدد » منذ قليل . يتراجع الروس . تسقط موسكو خلال أسبوعين أو ثلاثة ، وتنتهي الحرب . تنتهي الحرب وتولد أمتي ثانية . يا ربي ! هل ما أراه حقيقة ؟ أرى دولتي ، أرى أمتي الصاعدة وهي تنهض من تحت الذلة وآلاف أنواع الظلم و المشقّة . أرى في بلادي الحرة ذات السيادة ، الأمهات لسن باكيات وإنما فرحات ضاحكات مستبشرات . وأرى أولادنا و آباءنا السعداء . أرى مآذن مساجدنا الدقيقة الصنع ، أراها تحت ضوء الشمس ، وأرى مدارسنا المشمسة وقرانا التامة الاخضرار . ما قيمة دموع عيني بجانب كل هذا ؟ فليضربوا رأسي

بالرصاص ، وليسفك الرجال السيّئون دمي . ماذا يكون اضطرابي بجانب هذا المستقبل الذي ينتظر شعبي ؟

أتيه فخراً . أحس كأنني وطن ، وأنا بين الخمسمائة أسير في الميدان . وبينما كنت أغرق في سعادتي هذه ، إذا بضابطين ألمانيين قادمين من الرابية المقابلة . ثم أخذ الجنود ، الخبز الموجود داخل البطانية ، وأطاحوا به في الهواء . الكتلة البشرية الأسيرة الصامتة ، الخائفة تتمرد فجأة . كم تغير هؤلاء الناس في لحظة ؟ كانوا ينظرون كالحيوانات . أصبح كل منهم لا يعرف الآخر ولا يشعر بأحد ولا يستمع لشيء . أصبحوا وكأن ليس لهم علاقة قط بالعالم ، وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً ، كأنهم ومنذ أن ولدوا لا يعرفون شيئاً ولا ينتظرون أمراً ، إلاّ الخبز . حدث أثناء ذلك شيء لن أستطيع نسيانه قط . رمى الألماني بالخبز الذي يمسكه في يده ، رماه وسط زحام الأسرى . ومرة واحدة امتدت ألف يد إلى الخبز . وخرجت نفس الأنَّة الغريبة من خمسمائة صدر . توحشت وجوه خمسمائة أسير وتفظعت ، ذابوا مشقة ومعاناة . أفواههم يعلوها الزبد . تصارعوا كالمجانين ، نهش بعضهم بعضاً بأظافرهم . عضّ بعضهم بعضاً وجعلوا أنفسهم يسبحون في الدماء . أما الألمان الذين كانوا في المقدمة راحوا – بعد أن ألقوا الخبز على زحام الأسرى – يطلقون القهقهات العالية . وبعد نصف ساعة عادت وجوه البشر الذين كانوا يتصارعون من أجل الخبز . عادت تعبيراتهم القديمة ، المسحوقة ، المسكينة . وهذا الانفعال والاضطراب الذي كان منذ حين . وعادوا إلى أماكنهم القديمة بهدوء ، بلا صوت ، وبخطوات ثقيلة . ينظرون بأعينهم إلى الأماكن التي مزّقها الخبز المبارك الذي كان منذ حين .

في صباح ١٤ أغسطس ، قام الألمان بنقلنا بسيارات النقل إلى مدينة كيفوجراد . ربما يريدون أن يستعرضوا الأسرى أمام الأهالي . نزلنا من سيارات النقل في طرف المدينة وعبرنا من وسطها وسرنا حتى المعسكر . كان الأمر يبدو ،

وكأن عاصفة الحرب التي مرت من هنا قد أخذت الحياة معها وذهبت . الشوارع فارغة ، المنازل والدكاكين مغلقة والمكان كله يغط في هدوء عميق . أحياناً يمر من أمامنا ، كلب ضال ، يتلفت يمنة ويسرة ، وهو يهز ذيله . وعلى أول الناصية امرأة حافية القدمين تضغط ابنها على صدرها . وكانت تبحث عن زوجها بيننا وهي تمسح دمع عينيها بيدها .

نعبر السوق ، لا أثر لإنسان فيه ، ترقد في الميدان عدة عربات بدون عجلات يتراءى لنا سوق بلدة " المسجد الأبيض " (آق مسجد) بينما نحن نعبر من بين روائح السماد القديم والتبن الفاسد . نعم هذا المكان يشبه سوق بلدة المسجد الأبيض (آق مسجد) . ترى هل آق مسجد الآن خرساء لا صوت لها مثل هذا المكان ؟ ثم نعرج على أحد الشوارع . أرى كنيسة أمامنا . أسمع أصواتاً غريبة ، تأتي إلى مسمعي من بعيد . نقترب من الكنيسة . الناس على أبواب الكنيسة وقفوا ينظرون إلينا . نصل إلى مركز المدينة . الجنود الألمان الشباب يعبرون من على يميننا وشمالنا بنظراتهم الحادة . يبدون وكأنهم تلقوا تربية شديدة وقاسية وظالمة ، أكثر من تلقيهم الفداء والتضحية . وأخيراً نقف أمام بناء ، أسدلت عليه شباك حديدية ، وهو بناء من طابقين ، أبيض الجدران ، كان هذا المبنى فيما قبل مركزاً للمخابرات السرية . ويجعل الألمان منه الآن ولمدة ما معسكراً للأسرى . أبواب البناء الحديدية تفتح ، وعند عبور هذه الأبواب يعطي الألمان كل خمسة من الأسرى ، كيلو واحداً فقط ، من الخبز . نأخذ خبزنا ثم ننضم إلى الأسرى الذين اجتمعوا في الفناء المربع العظيم . يتم تقسيم كيلو الخبز الواحد بمهارة وبشكل يتناسب مع حق خمسة من الأسرى فيه . يقسم الرغيف أولاً ، إلى خمس قطع متساوية ، لا بد أن يوافق كل أسير من الخمسة أن كل جزء من أجزاء الرغيف الخمسة ليست أكبر من الأخرى . ثم يقوم واحد يدير ظهره إلى الخبز وإلى الأسرى الأربعة ويأخذ كل قطعة بيده ويسأل :

- من يأخذ هذه ؟

يقوم الأسير الذي يدير ظهره ، يقوم بالإجابة قائلاً : أحمد أو إيفان أو بترو ، وهكذا ، وبعد أن ينادي على أسماء الأسرى الأربعة مع القطع الأربع تبقى له القطعة الخامسة ، لا يستجاب للاعتراضات ، ويختفي الأسير الذي يأخذ خبزه في الزحام .

يحدجنا الأسرى القدامى بنظراتهم . يفحصوننا من قمم رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا ، وكانوا يسألوننا قائلين :

- ماذا عن الحرب ؟

- أما زال المفوضون يحاربون ؟

- متى وقعتم في الأسر ؟ وأين ؟

بحثت في ذلك اليوم عن مواطن من مواطنيّ في كل الزحام . لكني لم أستطع العثور على وجه أسمر ولا على عينين توقظ نظراتهما في قلبي الأحاسيس الدافئة . إن أكثر الأسرى: روس وأوكرانيون . فريق منهم ، كان هؤلاء الذين كانوا يأكلون خبزهم منذ حين ، حين أكلوه ، مثلما تأكل الحيوانات العلف وهي تضع رؤوسها في المخلاة ، أما الباقي ، فكانوا يغنون أغاني قازاقية محترقة ، بأصوات غليظة .

للشعوب خصائص ذاتية ، وكذلك للشعب الروسي خصائصه الذاتية أيضاً . ومن ضمن الخصائص الذاتية للشعوب الروسي : أن يجثو على ركبتيه سريعاً أمام قوة يحس أنها تفوقه . لم أقابل أسيراً طوال أسبوعين من الأسر ، حدثني عن بلاده التي تحترق ألماً ، وتعرضت للاحتلال . بالعكس تماماً . كانوا يبدون أنهم على استعداد لأن يحبّوا ذلك الذي غلبهم وسحقهم في ذلك المساء ، وبينما كنت أجلس بمفردي بجوار الحائط ، سمعت خمسة أشخاص أمامي يتكلمون بلغة أجنبية عرفت من بزاتهم الرسمية أنهم جنود رومانيون . كنت رأيت خمستهم في مبنى القيادة في كرانسوي بعد وداعي لجريشة . خمستهم أيضاً كانوا قصار القامة تعلوهم القذارة

، ويشبهون الغجر ! كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي رجالنا في كرانسوي وكانوا في ذلك الوقت في حالة يرثى لها ، شبعوا ، كانوا في غاية السرور لسقوطهم في الأسر. دهشت الآن عندما رأيتهم بيننا . في الغالب أن الألمان أسروهم أيضاً مع فرقنا . لكن حركاتهم وأحاديثهم لا تمت بصلة لوضعهم كأسرى . يدخنون حتى إنهم كانوا بين حين وآخر يصرخون في الأسرى النائمين . رأيت أسيراً كان يجلس بعيداً ، قد نهض وابتعد عندما رأى الرومانيين يتقدمون نحونا . سألته حينئذ :

- من هؤلاء ؟

- رومانيون .

- أأسرى هؤلاء أيضاً ؟

- كانوا أسرى ، إنهم سيأخذون الأحذية الجيدة من قدمي أي أسير عندما يرونها ، إنهم متحالفون مع الألمان .

ثم نظر إلى قدمي وقال : في قدميك حذاء جيد ، لا تظهره لهم أيها الملازم . ثم ذهب .

بقيت وحيداً تماماً بجوار الحائط .

كنت أفكر قائلاً :

- لو أن ديوثاً منهم مسني ، لقتلته .

كان للأسير الحق فيما قال ، فلقد أوقعوا أسيراً في الأمام ، وأخذوا حذاءه من قدميه. مسكين ذلك الرجل ، إنه يجري خلف الرومانيين ، يتوسل إليهم وهو يمد يديه إلى الأمام ، يبكي . كان يريد حذاءه . والرومانيون أيضاً . كانوا بين الحين والحين يعودون إلى الخلف ويوجهون لكمة إلى الأسير ، ثم يميلون إلى أسفل وينظرون أيضاً إلى أقدام الأسرى النائمين في الفناء . والآن ، يتوجه واحد منهم

نحوي . إبليس قصير القامة ، نحيف ، أسمر نحيل الوجه ! يداه في جيبيه ، يركّز عينيه على حذائي . يتقدم نحوي وهو يصفّر :

- لو مد يده عليّ . لو مسّني . .

يقف بالقرب مني على بعد ثلاث خطوات . كان وهو يصفّر ينظر إليّ وعيناه تنتقلان من على حذائي إلى وجهي ومن وجهي إلى حذائي ، وكلّما نظرت أنا بدوري إلى وجهه أحس بأن قوة مدهشة تجمّعت في نفسي . قبضتا يديَّ تثقلان ، ومن ناحية أخرى أحاول أيضاً أن أكون رابط الجأش . تقدّم خطوتين أخريين ووقف بجواري ، وأخذ ينظر ، وكأنه تاجر خبير ، بسكون ، إلى حذائي. وفي اللحظة التي مس فيها إحدى فردتي حذائي ، اسودت الدنيا أمام عيني . أنهض واقفاً . أصيح قائلاً :

- ابتعد . . ابتعد . .

وعندما انحنى الروماني مرة أخرى على حذائي اتخذت قراراً سريعاً ، ألقيت بنفسي عليه . كنت كالحيوان المفترس . وجه الروماني تحت قدمي ، وقد احمر الوجه احمراراً شديداً . خاف أصدقاؤه الذين جاؤوا لنجدته عندما رأوا الرعب المفزع في وجهي. ودون أن ينطقوا بكلمة واحدة ودون الدخول في معركة أخذوا الجريح وذهبوا. وابتعد الروس- الذين يتفرجون علينا - ابتعدوا بهدوء وببطء . الحقد والقوة اللذان انتاباني منذ حين ، يتولان عني رويداً رويداً . أحس بالغربة والوحدة ، تقف في حلقي وببطء الآلام التي تجمعت في داخلي . لماذا ضربت هذا المسكين ضرباً مبرحاً ؟ هل من الصحيح أن تضرب من هو أضعف منك ؟ هذه الأسئلة التي أطرحها على نفسي كانت أكثر مرارة من كل شيء . ولم تنته المسألة على هذا . فبعد نصف ساعة حضر نحوي أصدقاء الروماني الجريح . وكان معهم جاويش ألماني طويل القامة ، عريض المنكبين ، أشقر اللون ، أشعر بالاشمئزاز من عجزي أكثر من اشمئزازي من أي شيء آخر ، عندما أفكر في أنني سأكون مجبراً على تسليم حذائي لرومانيين . لم أكن أستطيع ضرب الجاويش الألماني المسلّح . ضربات قلبي

تسرع في الدق . ركبتاي ترتعشان . أردت فجأة أن أرمي نفسي على الأرض وأظل أضرب رأسي على أحجار الفناء حتى تتهشّم.

أشار الروماني الجريح نحوي بيد مرتعشة ، كان يدل الجاويش الألماني عليّ . اقترب الجاويش مني ، ونظر إليَّ : أولاً إلى حذائي ، ثم إلى وجهي . لكنه لم يستطع قول شيء ، يفكر عميقاً وينظر تارة إلى حذائي وتارة إلى وجهي . وكان صامتاً . ثم التفت فجأة إلى الرومانيين، وصاح بصوت وحشي :

- ابتعدوا عن هنا !! ابتعدوا أيها الكلاب ، ابتعدوا أيها اللصوص ، بأي حق تتصرفون هكذا تجاه الضابط .

وقع صوت الجاويش الألماني كالرعد بين الرومانيين ، هرب خمستهم إلى خمس جهات، وتفرقوا كأنهم صغار الفراخ الجبلية ، تجمع حولي الروس الذين كانوا يتعقبون هذا المشهد الذي حصل منذ حين . ثم بدأوا يتحدثون إليّ باحترام كبير .

نمت هذه الليلة بجوار الحائط ، وفي الصباح ، في ساعة مبكرة جداً منه ، أيقظني أحدهم بأن شَدَّ ياقتي . فتحت عيني فإذا بي أرى الجاويش الألماني الذي صاح بالرومانيين مساء أمس ، وقد انتصب فوق رأسي . أصابتني الدهشة ، في البداية ، ثم ، وعندما رمى بجانبي ، بجانب رأسي ، حذاء مشاة قديم ، طويل الساقين ، كان يحمله في يده، أدركت سبب صياحه مساء أمس بالرومانيين ، وفهمت سر زيارته لي في الساعة المبكرة ، ولم يكن في وسعي حل آخر . سلّمت الحذاء إلى الجاويش وارتديت الحذاء القديم الذي أعطانيه.

(٦)

روما، في ١/ ٦/ ١٩٤٦

جلستُ أمام نافذة حجرة الفندق المطلة على الحديقة أفكر في القرم وفي بيتي. وكان الصداع الذي انتابني بالأمس قد زال. لكنني لن أفكر، لا في المساء الماضي ولا أيضاً في المستقبل! وليكن ما يكون!

الواقع أنّ حياتي في هذه الدنيا قد انتهت حين غادرت قبر ماريا في ضفاف "الاين" في "تيرول" في شهر مايو من العام الماضي. في ذلك اليوم نزلت جمرة في قلبي وكأن كبدي قد احترق. ولم تهدأ نفسي يوما بعد ذلك اليوم، وإني راضٍ بالبقاء والمعاناة، هكذا يسوقني الشيطان دائماً إلى طريقه. يا ربي! أحيني في عَالمك واحمني.

قررت الأسبوع الماضي أن لا أكتب المذكرات، لكني بدون المذكرات أحس بالاضطراب، أكثر منه بالفراغ النفسي. كيف أستمر! كيف أكتب! أريد أن أكتب، أحترق لأنني أريد الكتابة، لكني لستُ كاتبا، فكيف أكتب! لا أستطيع - حتى أنا - فهم بعض كتاباتي. أجد نفسي أفكر في كيروفجراد بعد أن اتخذت القرار بالتراجع عن المذكرات. والآن أيضاً وأنا أكتب هذه الأسطر، أجد كيروفجراد أمام عيني.. مساء أمس وأنا في السرير، خُيّل إليّ أنّي أرى معسكر كيروفجراد مدة طويلة. ولم يفارقونا لساعات عدة، وها هم معي هنا يرقد ثمانية أسرى أو ربما عشرة لم يبقَ منهم إلا جلد عظام. أفواههم مفتوحة. أرى أسنانهم الصفراء. والذباب يدخل من شفاههم إلى حلوقهم، وليس هناك ما يظهر منه أنهم بشر إلا عيونهم المنطفئة، يرقدون دون حراك. دون إحساس.. إنهم لا يتحركون ولو حتى قيد أنملة. كل واحد منهم ينتظر أجله، أما الأجل فلم يأتِ بعد. لكنه سيأتي. قد يأتي هذه الليلة، وربما في الغد.. لكن هؤلاء الناس يحتاجون إلى الموت. والواقع أنّ كلا منهم جنازة حيّة. ينظرون إلى عينيَّ، ولا يطلب أحدٌ منهم النجدة.

أوف!.. كيف خطرت كتابة المذكرات على ذهني! أليست لحظات نوم هادئ أفضل من مذكرة..؟ لن أفكر. غداً صباحاً سألقي بكل ما كتبته إلى النيران لتحترق.

فقد تحترق أفكاري السوداء مع مذكراتي.. لن أفكر! ولن أكتب! أنا لم أمت، الحمد لله، لم أمت! كان ذلك زمن الحرب. كم من الناس حاربوا ورأوا الموت قريباً منهم وهؤلاء لم يكتبوا مذكراتهم ولم يتعبوا رؤوسهم، يعيشون، وسعداء، لماذا لا أستطيع أنا أيضاً حب الحياة مثل هؤلاء الناس؟! لست سعيداً مثلهم. أتقلب في السرير، أدفع رأسي الغريبة تحت المخدة، لن أفكر في أيام الأسر التي عشتها. كيف أنام؟ أنا لا أستطيع النوم. كنت في العام الماضي أجلس عند رأس ماريا في وقت مساء في السقيفة الخربة، على ضفاف "الاين". ماريا المسكينة كانت مثلي أيضاً، مؤرقة مسهدة، لكنها كانت تريد مني أن أنام، وعندما قلت لها: "لا أستطيع النوم، لقد طار مني" فكانت تقول: "أغمض عينيك وعدّ، عدّ حتى المائة، فإذا لم تستطع النوم، فعدّ مرّة أخرى، عدّ حتى الألف، عدّ دائماً، وستنام". تذكرت كلامها هذا مساء أمس فأخذت في العد واحد.. اثنان.. خمسة.. عشرة.. مائة.. أرى أننا لم نعبر سوق (أومان) وأرى المشنقة الموجودة في الميدان.. خمسة أشخاص معلقين على المشنقة، ينتفض كل جسدي تحت اللحاف الأحمر الحرير.. كان ينبغي لي ألا أفكر. كان ينبغي لي ألا أعدّ.. مائتان.. مائتان وواحد.. مائتان واثنان.. وأمام عيني: أقدام هؤلاء وهي مقطوعة مرتفعة عن الأرض تهتزّ اهتزازاً خفيفاً. ما أفظعه من موت! رأيت أنواعا مختلفة من الموت، وأفظع نوع منها هو تسليم الروح على مشنقة. لو قيل لي اختر طريقة تفضلها لتموت بها، فماذا كنت أختار؟ لو قيل لي أبالرصاص؟ لقلت نعم أموت بالرصاص. الذين يموتون ضرباً بالرصاص، يموتون وهم يخبئون الحياة في أجسادهم، أما الذين يسلمون الروح على المشنقة والذين يموتون جوعاً ومرضاً، فأظن أنهم يتراجعون عن الحياة قبل أن يموتوا. كان الروس أيضاً يشنقون الجناة.. مثلي.. وأنا إذا لم أحب الحياة أو بالأصح لم تحبني الحياة فلأذهب بعد الموت أينما أذهب، أريد أن أحمل معي الحياة. أيتها الحياة الحلوة: إني أخاف الموت عندما أفكر فيك! ولكن يا ترى أليس في الدنيا شيء أقوى من الموت؟ لو لم يكن موجوداً فإني لم أكن أحيا حتى الآن.

وإذا كان موجوداً لماذا لا أراه ولا أحس به؟ ربما لأني لازلت شاباً. ربما لم أفطن بعد جيداً إلى ما تعنيه الحياة. ربما إني أريد من الحياة أعمالاً؛ لا تستطيع الحياة أن تعطيها لي، ولا لغيري. أأنا فقط الإنسان الضعيف في الحياة؟ في كيروفجراد: كان الأومباشي مصطفى الآق مسجدي، أقوى منّا وأصحّ وأشجع منّا، رعانا مثل الأب. لم يكن يأكل، ويقدم لنا الأكل. كان رجلاً مثل الجبال. من كان يتصور أنه سينهار؟ لكنه لم يستطع مقاومة معسكر "أومان"، انهار ومرض.

أظلمت الآفاق. تغيرت ألوان الحديقة رويداً رويداً. احترقت النجوم في السماء وهبط صمت مطلسم في حجرتي. كنت كأني خجلت من نفسي عندما تذكرت الأومباشي مصطفى الآق مسجدي. أكنّ له في نفسي الحب والاحترام. ابتعدت عن النافذة أفكر في مصطفى رحمه الله وأنا أتمدد على سريري.

في اليوم التالي الذي أخذ فيه الجاويش الألماني، الحذاء من قدمي، لم أتحدث مع أي شخصٍ قط، في ذلك اليوم بدأت بالنسبة لي حياة جديدة، لكني لم أكن مستعداً بعد، لتلك الحياة الجديدة. لم أكن قد فكرت في يوم من الأيام - حتى حينها - أنني سأبتعد عن الحياة التي عشتها. كان هنالك ألمٌ في نفسي. أشمئز من كل الناس. كل شخص في نظري: عدو. وأتصور أن كل شخص ينظر إليّ بعداء. كنت أحس في الحياة الجديدة بضرورة الحرب من أجل الحياة، ولهذا أيضاً أنفر من كل الناس. كنت راضياً بالعودة مرة أخرى إلى الجبهة وإلى الحرب. ضد من؟ ضد أي أحد. وفي أي سبيل. ولشرف أي شيء كان. فقط ألا يكون في سبيل هذه الحياة التي تدور حول جدران أربعة. فقط أخرج من بين هؤلاء الناس. في ذلك اليوم، وكل اليوم، فكرت في الهروب من الأسر. أخذونا بعد يومين إلى معسكر آخر. وهنالك بدأ الأسر بكامل معناه. عندما دخلنا "شتالاك٣.." [٢٠] فهمت أن الأسر أصعب وأشد وأمرّ من كل شيء. مبانٍ طويلة حمراء وميدان واسع جداً، وخلف المباني فوهات

---

[٢٠] شتالاك كلمة ألمانية معناها معسكر، تجمع، معتقل.

المدافع الرشاشة الموجهة نحو الميدان. أبراج مضاءة، والأسلاك الشائكة بين المباني الحمراء، وفي الأبراج كان الألمان يطلقون الرصاص على كل أسير يقترب من الأسلاك.

كان الميدان مزدحماً كأنه المحشر. وكان أكثر الأسرى مشغولين بقتل القمل الموجود في قمصانهم وبناطيلهم. كان بعضهم مقملاً للدرجة التي كانوا فيها يأخذون القمل من قمصانهم بقبضات أيديهم، ويطرحونه جانبا، ويلفت النظر أيضاً هؤلاء الأسرى الذين يرقدون هنا وهناك بلا حركة. ولا يتضح فيما إذا كانوا موتى أم أحياء. لا يبدو عليهم شيء. بعضهم كان يتجول وعيناه في الأرض وكأنه معتوه. والجسد المسجّى على الأرض لا يمكن معرفة موته إلا بعد يوم أو يومين، وأحياناً ثلاثة أيام وأربعة، وذلك بعد أن ينتن جسده. كانوا يجمعون الموتى بجوار الحائط كما يجمعون الحطب. يبدو قلب الميدان مزدحماً دائماً، عند دخول الشتالاك، تقدمت نحو الزحام، سوق. ليس هناك شيء ناقص إلا الطعام. يقدمون هنا نصف سيجارة مع علبة صفيح فارغة، كل شيء هنا موجود بوفرة، الأمشاط، موسى الحلاقة، الأحزمة، الخواتم، حتى ما تستخدمه السيدات من الطلاء. وفي جيبي صورة أسرتي وبكر، وليس في جيبي غيرها، معنى هذا أنني لن آخذ شيئاً من السوق. أنسحب إلى أحد الأركان. أنظر إلى دنياي الغريبة هذه، لكي أتعود عليها. مرة أخرى أبحث عن مواطن يؤنسني. ولكن أين؟! كل واحد يفكر في نفسه، كل واحد يحمل في قلبه مرارته ودنياه، وفي الوجوه لا يمكن عمل شيء إلا قراءة آثار اضطراب الحياة فقط. لا أحد ينظر إلى أحد. لا أحد يتحدث مع أحد.

يأتي المساء، أين سأنام؟ أريد أن أجد مكاناً أنام فيه. أرى مكاناً في جانب الميدان، مكاناً فارغاً، ليس فيه أحد. أتقدم إليه.

الروائح الكريهة تصيبني بالغثيان، قبل أن أجد طرف الميدان الذي أتوجه إليه أرى في الأمام حفر قضاء الحاجة، طويلة وعميقة، وسرعان ما أتجه إلى اليسار وأسير نحو المباني الحمراء. الحجرات مملوءة حتى نوافذ الباب، يتصارع الأسرى أمام

الأبواب بعنف وقسوة من أجل الدخول، أقترب من الأسرى، يدفعني أحدهم في صدري:

- ليس هناك مكان يا صديقي، ليس هناك مكان، ألا ترى؟ إننا نختنق. ليس ثمة مكان في السماء سحبٌ رصاصية ثقيلة. الجو يبعث على الضيق، كما يبدو أن المطر في طريقه إلى الهطول ليلاً، ما زلت أبحث عن مكان في الميدان ولا بد أن أجد مكاناً، فالسماء تبدو وكأنها ستمطر ليلاً. أتقدم ببطء. يبدو أنني دست على يد أحدهم، يشتمني وهو يصيح:

- أعمى!.. أعمى.. ألا فقئت عيناك!

- أصوات غاضبة أخرى تشترك مع صوت ذلك الإنسان.

- ابتعد!

- هل تظن نفسك في حديقة؟

- هيا ابتعد عنّا.

كم من مرة وقعت على هؤلاء المساكين، وكم من ركلة تلقيتها منهم. أحس بأني ضعيف عاجز، أشمئز، ليس من هؤلاء الناس الذين لا يحبونني، وإنما من نفسي، وأخيرا أذهب مرة أخرى إلى تلك الحفر السابقة. أصبحت لا أبالي بهذه الروائح الكريهة.. أجلس على حافة حفرة. أحس بانتفاخ في فمي يتسرب رويداً رويداً. يا ربي! يا لهذا من ظلم! ولأول مرة في حياتي أفهم أنني في مكان ليس فيه أمل في الخلاص. أبكي ورأسي بين كفيّ، مثل طفل ضال.

ينتصب في هذه الأثناء أمامي إنسان، فأرفع رأسي وأنظر إلى وجهه، يحدجني بنظرات من عينيه الكبيرتين اللتين استطاعتا رغم ما عانتاه، الاحتفاظ بجمالهما، عيناه رحيمتان. إنه ضعيف نحيف لكنه يبدو كقوة هادئة صامتة من

خلال عينيه هاتين. يمكن أن تكون قوتهما تكمن في أني أحبهما. أريد أن أتحدث إلى الرجل. سبقني هو وسألني بصوت خفيض:

- هل أنت تتاري؟

انطلق قلبي وبدا كأنه سينفجر عند سماعي صوت هذا الرجل وجدت نفسي أنهض على قدمي من فرط اضطرابي.

- كيف عرفت هذا؟

- أنا أيضًا قرمي. فهمت ذلك من وجهك. هنا مجموعة من تتار القرم، إذا كنت مهتمًا فتعال آخذك إليهم.

أفهم فوراً من كلام هذا القرمي أنه قرمجاك[٢١].

- ولماذا لا تكون معهم؟

يسير دون أن يجيب عن سؤالي. وأنا بدوري أسير بجانبه. يقف قبل الوصول إلى جدار المبنى الأحمر وهو يشير إلى الأسرى.

- بجانب الحائط هناك.. خمسة أشخاص يجلسون معنا..

- أراهم..

- إنهم تتار.. وأنت أيضًا.. اذهب إليهم.

ومضى يقول:

السماء ملبدة بالغيوم. ويبدو أن الليل سيكون مطيراً. جانب الحائط هو أحسن مكان وقت المطر. تلتصق بالحائط فتنجو من المطر. إياك أن تقول لا بد من الدخول إلى الغرف لأنهم قبل أسبوعين أخرجوا ثمانين ميتًا من الغرف وكان ذلك

---

[٢١] القرمجاك: اليهودي من القرم.

في صباح ليلة مطيرة. وفي هذا الميدان ٢٨ ألف أسير. وفي المطر يريد كل واحد أن يدخل الغرف، أستودعك الله.

وجدت نفسي أمسك بذراعه أثناء ما كان يهمُّ بالذّهاب.

- تعال معي. ففي هذا المطر مكان لنا جميعا. ألست مواطناً لي؟

- ليس هناك مطر بعد.. كل ما هناك: حائط.. أحياناً تصدر من خلف ذلك الحائط أصوات تؤذي راحة الإنسان. قد تسمع أنت أيضاً تلك الأصوات في هذه الليلة. أنا لا أخاف الموت لكني أحب الحياة كثيراً.

ثم مال على أذني وهمس قائلاً:

- وهناك أيضاً أوكرانيون يعرفونني وأخاف منهم.

ثم صافحني ومشى.

أنظر إلى مواطنيَّ الذين يرقدون بجوار الحائط، يتحدثون بأصوات خفيضة. أتقدم. وعندما أصل إليهم ألقي السلام عليهم. ينهضون سريعاً، ويمدون إليّ أياديهم. يبدو أنهم جميعاً من عائلات طيبة. فيهم رقة وحياء. واحد منهم فقط ينظر إليّ بنظرات جافة بعينين ناريتين، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره، طويل القامة، عريض المنكبين. لكنه لم يكن دائماً جافّاً. وجهه المؤمن يبدو أحياناً جافّاً وأحياناً أخرى مسروراً. وعندما يأخذ مظهره الجاف، يلوي بشكلٍ قبيح شفتيه الغليظتين تحت شاربه الكثّ، وعندما يضحك كانت أسنانه الحادة تظهر مثل أسنان الذئب، بيضاء مثل الصدف، عنده دائماً ما يشغله يدق مسماراً في حائط، يعلق بطانية، ينظف حذاء، بقطعة قماش في يده، وعندما لا يجد ما يفعله، فإنه إما يصدر الأوامر إلى الآخرين، أو يغني. وكان الآخرون يستمعون إليه بصمت. كان ذلك هو الأومباشي مصطفى الآق مسجدي. يضع الأومباشي مصطفى الآق مسجدي الآن، يده على كتفي ويقول:

- قرمي إن شاء الله؟

- نعم، قرمي، من آق مسجد.

- أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ يحيا أهل آق مسجد، كلهم كوسة طازة، يا ملازم.

تمتد يد بيضاء من تحت البطانية:

- آه يا مصطفى آغا، ليت لسانك كان حلواً مثل قلبك.

تتلوى شفتا مصطفى بقبح.

- اسكت يا ولد. أنت مريض. وهذا يتعب معدتك.

ثم يلتفت إليّ ويقول:

- أول بيّاع كوسة هو عثمان الآي واصلي. هذا الذي ينام تحت البطانية. وهو تحت البطانية منذ أسبوعين، ولا يفعل غير ذلك. أكل أخونا هذا كوسة نيئة من بستانٍ، على الطريق، أثناء نقل الألمان لنا إلى كيوجراد، وكان هذا سببا في مرضه.

يحاول عثمان بصوت ضعيف أن يظهر نفسه بأنه كان معذورا في هذا:

- كل الناس أكلوا، وأكلت أنا مثلهم.

- "كل الناس أكلوا، وأكلت أنا مثلهم" انظر إلى هذا الكلام! هل معدة المسلم مثل معدة الكافر؟

- وما الذي يدريني، أليست المعدة معدة؟

- معدة الكافر ضخمة وسيئة مثل معدة الخنزير. لا تفرق بين الحلال وبين الحرام تأكل ما تجده. أليس لهذا السبب يكون شكل الكافر مثل الخنزير؟ أما أنت فمسلم.

كلنا ننظر إلى عثمان ونضحك. عثمان أيضاً يضحك.

وبينما نحن هكذا نستمع إلى كلام مصطفى آغا، الذي يبدو مضحكًا أحياناً، جافًّا أحياناً أخرى، إذا بروسيٍّ منهك يقترب منه، زاحفاً، عندما اقترب الروسي منّا قليلا قام الأومباشي مصطفى وأخذ يأمر "جودت" الذي يجلس بجواري ويقول له:

- خذ مكانك إلى يمين عثمان، يا جودت، واحمِ المريض، فالمطر قد أوشك، والروس يلحقون بنا.

ثم يقول للروسي المقترب منا:

- إلى الوراء توفاريج! إلى الوراء. ألا ترى أن ليس لك مكان هنا. يقول هذا وهو راقد على الأرض، ثم يهمس قائلاً:

- إن مكانكم إنما هو بجوار حفر الغائط يا قوادون.

تحدثنا في ذلك المساء، طويلاً، عن الوطن، وتذكرنا عائلاتنا وشكونا من الأسر ورثينا لنصيبنا، قال مصطفى الذي يستمع إلى شكوانا:

- هيا يا كوسة! اشكروا الله إن نجانا! هل هذا أسر؟! إننا نشتم الروس في وجوههم. أهذا أسر؟ هذا حرية!

كان في وجه مصطفى آغا، في ذلك المساء، جمال متوحش؟ لكن شفتيه كانتا تتلوى ووجهه القبيح يعبس. كنا نرى قلبه قبل أن نرى تغير وجهه، حتى وهو في الدقائق التي يبدو فيها جافًّا ومرعباً. ومنذ ذلك المساء وقد رأيت قلب مصطفى

الرحيم، فأحببته، وكنت أفكر وأقول: "إن هذا الرجل إنما هو بالنسبة لنا منقذ، وهو شيء أشبه بالولي".

الظلام يحل بالميدان. أذكر جيداً جداً، مصطفى آغا وقد أخرج نصف رغيف من كيسه، وقسمه إلى ستة أقسام. وكان نصيبه أصغر من نصيب كل واحد منا. علقت عيناه عندما كان يأكل خبزه بالروسي الذي جاء إلينا منذ حين، وكان ينظر دون أن ترمش عيناه إلى فم مصطفى. لم يلتفت مصطفى إلى يمين أو شمال، وإنما قام ونهض بعد أن حدّث نفسه بأشياء. ذهب إلى الروسي وأعطاه خبزه الذي كان يأكل منه. لكن الروسي المسكين يخاف ولم يكن يجرؤ على مد يده إلى الخبز الذي في يد مصطفى. قال له مصطفى بصوت مرتعش:

- خذ.. خذ.. ولا تخف.

رويداً رويداً مدّ الروسي يده، وأخذ الخبز وضغطه على صدره، واختفى في الظلام. عاد مصطفى إلى مكانه. جلس. أخذ رأسه بين راحتيه واستغرق في تفكيرٍ عميق.

لم يمطر المطر الذي انتظرنا هطوله تلك الليلة.

كان الميدان مظلماً وصامتاً. وكان القمر الذي يظهر أحياناً من بين السّحب الرصاصية اللون، ينثر أضواءه على بحر الأسرى وهم يئنون.

كان لعثمان المريض، وجهٌ رقيق، ومتحضر عنا جميعا. ربما يبدو كذلك لأنه مريض. استيقظ حب عثمان في قلبي في ذلك المساء. ذهبت ونمت بجواره وبمنتهى الهدوء قلت له:

- هل نمت يا عثمان؟

- أهو أنت يا حضرة الملازم؟

- أنا.

- لا أستطيع النوم. الجو مختنق لكن المطر لن ينزل. انظر إلى السحاب إنه يتفرق ويذهب.

وسكت. كان ينظر بعينيه الواسعتين إلى السحاب الرصاصي.

- أيمكن أن تعطيني معلومات عن مصطفى آغا، يا عثمان؟

لم يتكلم عثمان في البداية، بل حتى لم يتحرك، ولم يهتز فبدا كأنما لم يسمع سؤالي.

- عثمان!!

لاحظت الدموع الظاهرة في طرف أهداب عثمان الطويلة السوداء. لاحظتها في ضوء القمر وهو يتخلص من السحب الرصاصية. ثم، وبعد قليل، أخذ عثمان يتكلم بصوت بدا مخنوقاً.

- معلوماتي.. إنه من آق مسجد. ويطلقون عليه اسم الأومباشي مصطفى الآق مسجدي نسبة إلى بلدته.. أحضرني إلى هنا، قرمجاكي..

لم يكن مصطفى آغا يتحدث عن نفسه قط. لكن جودت حكى لي عنه. في الصباح سيكون هناك بجانب الأبواب القريبة ازدحامٌ كالحشر. آلاف الأسرى ينتظرون الصباح بجوار تلك الأبواب. يأتي الألمان في الصباح ويأخذون مائة بل مائتين من بين آلاف الأسرى ويسوقونهم إلى الخدمة. وعند عودة هؤلاء في المساء، تلقي النساء الأوكرانيات الخبز عليهم، السعيد منهم هو الذي يعود بخبز، والتعيس هو الذي لا يعود بخبز. لم أكن أعرف هذا إنما حدثني به جودت أيضاً.. ذات يوم، استطاع مصطفى آغا أن يخرج للعمل. مصطفى يستطيع أن يقوم بنفسه بعمل عشرة أشخاص. دهش الألمان كثيرا لما يستطيع مصطفى القيام به من عمل لدرجة أنهم

الآن، وكل صباح، يأتون إلى المعسكر ويأخذون مصطفى للعمل. وعندما يقترب المساء يعبئون كيسه بالخبز. وفي كل مساء، يطعمنا الخبز الذي يكسبه وكأنه يطعم أطفاله. يفكر فينا أكثر مما يفكر في نفسه.

سكت عثمان، ولم أثقل عليه، بدوري، بالأسئلة. أغمضت عيني وفكرت في القرمجاك الذي كان معنا منذ حين.

في اليوم التالي، ومن الصباح وحتى المساء، وأنا أبحث عن اليهودي القرمي بين الأسرى. لم أجده في أي مكان. لكن بعد يومين رأيت ما لن أستطيع طوال عمري أنساه. كان هذا أفظع ما في النكبات التي مرت بي في الأسر.

كنت أتحدث مع عثمان المريض بجوار الحائط، أصوات تصدر من طرف الميدان. وازدحام يتكون في ذلك المكان. وبعد خمس أو عشر دقائق إذا بحوالي ثمانية أو عشرة جنود أوكرانيين يدفعون أمامهم ثلاثة من الأسرى اليهود، ويسوقونهم وهم يصيحون بهم نحو الألمان الواقفين بجانب الأبواب. وقبل وصول الأوكرانيين إلى الأبواب، تجمع جمع آخر عند حافة الحفر. لكن هذا الجمع لا يشبه قط ذلك الازدحام الذي كان منذ حين في طرف الميدان. على حافة كل حفرة، مجموعة من الأسرى يطلقون القهقهات نحو داخل الحفرة. وكانت هذه أول مرة لي في الأسر أجد الأسرى يضحكون. كان بعضهم يشير بيده إلى الحفرة ويستدعون الشرطة الأوكرانيين. وشرطة المعسكر كانت تُختار في أغلب الأحيان من بين الأوكرانيين. وبعد قليل وصل إلى جانب الحفرة شرطيان يحملان عصاهما. كنت أكتفي بالتفرج على الأسرى الذين يضحكون ويقهقهون، من بعيد، لأني تلقيت في ذلك الصباح أمراً من مصطفى بألا أترك عثمان المريض بمفرده. سألت أسيراً وكان يمر من جواري بعد أن ابتعد عن الحفر:

- ماذا يحدث هناك؟

فقال:

- ألقى بنفسه إلى بيت الخلاء.

قال هذا ثم مضى. ولم أفهم ماذا يقصد. ومن شدة حب الاستطلاع، تركت عثمان وانحشرت في الزحام المتجمع عند أطراف الحفرة. والآن.. أرى بوضوح أرى اليهودي القرمي الذي جاء بي منذ يومين وجدته بين الأسرى الذين ملأوا أنوفهم بالسخريات والقهقهات. أألقى المسكين نفسه في هذه الحفرة. هل وقع فيها قضاء وقدرا؟ لا أدري.. إلا أن هذا المنظر كان يتراءى لي أمام عيني بين الحين والحين. رجال الشرطة يصيحون به ويضربونه بالعصيّ على ظهره، يسوقونه إلى الأبواب. أما هو فقد وضع يديه على صدره وأخذ يتقدم بسلبية واضحة: دون تمرد ودون طلب النجدة. يقع أحياناً على الأرض تحت العصيّ النازلة على ظهره، ثم يقوم ليستمر في السير. التجمع أخذ في التفرق. تتبعت اليهودي القرمي حتى اختفى من أمام ناظريّ. إلى أين أخذوه؟ لا أدري. وإنما كانوا في ذلك اليوم وكل يوم يقتلون اليهود خلف الحائط الذي كنا نرقد أسفله.

يحدث زحام فظيع كل يوم في الصباح أمام الأبواب. يتجمع كل مَن في الميدان من الأسرى الذين يستطيعون الوقوف على أقدامهم، أمام الأبواب، ويتصارعون كالحيوانات المسعورة ساعات بأصوات مرعبة وأنين رهيب. يكون الزحام في أشده في حوالي التاسعة. الشرطة الظالمة تهجم من الخلف لكي تشق هذا الزحام وتسوق الأسرى إلى خلف الميدان. يضربون المساكين بالسياط وبالعصي وبالحديد، على ظهورهم وعلى رؤوسهم. يقع كثيرٌ منهم على الأرض يعوي. فيهم من يبكي كالطفل، لكنهم لا يرغبون في الانسحاب إلى الميدان الخلفي.

يتزايد عدد رجال الشرطة خلف جدران زحام الأسرى. يرقد كثير من الموتى تحت الأقدام. يتصدّى الجرحى ورؤوسهم تغرق في الدماء، يتصدون للشرطة التي أسالت الدماء. يموج الزحام. ترتفع إلى الهواء الأيدي التي تريد أن تمزق الشرطة

من داخل الزحام إرباً إرباً وتتقد العيون بنيران الانتقام. يتراجع رجال الشرطة من الأوكرانيين، بعد أن فهموا خطورة الوضع. يحل محلهم أمام الباب مجموعة من الجنود الألمان ببنادقهم. تفتح الأبواب، وأوامر شديدة، طراق! طاق.. طاق.. وينقطع فجأة صوت الزحام المسعور الذي كان قبل عدة دقائق، ثم يخترق الصمت، أصوات بنادق متوالية. الأسرى، في رعبٍ يجرون تحت السقيفة، ملاصقين للجدران. لا صوت في كتلة البشر الهائلة. عدة أسرى بجانب الأبواب يتلوون مضرجين بدمائهم ثم يسلمون الروح. ينتفض جسدي ويرتعش. ولا بد أن أصدقائي أيضاً يفكرون في مصطفى، حتى إنهم ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ولا يجرؤون على التحدث.

- لا تخافوا، مصطفى آغا لا يدخل الزحام.

يتوجه خليل نحو الأبواب، بوجه شاب مؤمن، وبعد قليل يخبرنا قائلاً:

- لا تخافوا، مصطفى آغا ليس هناك. ثمانية أشخاص وقد يكونون عشرة رأيتهم مجروحين في سيقانهم. واحد منهم مجروح في صدره، وأظن أنه أسلم روحه لله. إنه لا يتحرك.

انتظرنا مصطفى طوال اليوم بنفاذ صبر، وعندما اقترب المساء جاء مصطفى بجانبنا وجلس، وحقيبته على كتفه، يداه ووجهه وشعره يسبحون في بحر من الغبار والتراب.

كان يبدو متعبا لكنه كان سعيدا. التفت إلى عثمان وقال:

- ماذا هناك يا عثمان؟ تنظر إليّ كأنك قرد؟

قال عثمان بصوت خفيض:

- كنا ننتظرك يا مصطفى آغا.

- ماذا هناك حتى تنتظرني؟ أذهبتُ إلى حفل عرس.. يعني؟

اسْتَلْقَى أرضاً، راح يفكر، ثم واصل كلامه قائلاً:

- رجلنا العجوز في آق مسجد الآن. ومصطفانا! ومن يعلم لعله يفكر في الفتيات الأوكرانيات. آه، يا لكم من "كوسة"! لو لم تكونوا موجودين لكنت اليوم أطعم أبناء المسلمين في قرى أوكرانيا.

ثم ضحك ضحكة أبرزت أسنانه البراقة. لم ننطق نحن ببنت شفة. مسح مصطفى التراب العالق بوجهه. أشعل سيجارة. لكنه لم يستطع تحمُّلَ صمتنا كثيراً. وفجأة قام على قدميه وصاح قائلاً:

- يا لكم من أصحاب حس مرهف وكأنكم أولاد سيدة رقيقة الروح! ما هذا كله؟ عدة كفار أصيبوا في سيقانهم. ماذا حدث؟ فليمت هؤلاء الديوثون! ما لكم وهذه؟ ومرة أخرى لم نستطع أن نرفع أصواتنا. إلاّ أن عثمان قال:

- اليوم هم، وغداً نحن.

كان قلب الأومباشي مصطفى مليئاً بالخير، رغم كل مظاهر الجفاف البادية على وجهه أراه الآن ولأول مرة، غاضباً، محتداً. قال:

- في اليوم الذي ترونني أخاف فيه من الموت، لن تجدوني بينكم.

قال هذا، ومشى.

لكن، لا عثمان، ولا أي أحد آخر منا كان يخاف الموت.

كنا نحب مصطفى، ليس لأنه يطعمنا، إنما كنّا نحبه لأن قلوبنا وأرواحنا قد توحدت. كنا نعتبر أنفسنا إخوة. كنا نحس باضطراب عندما يغيب واحد منا.

أرى أن الأمة التتارية تعيش في كل أدوار تاريخها كجسد واحد. ولهذا فإن هذه الأمة مستقبلاً، إما أن تعيش قوية سليمة وكبيرة. وإما أن تنتهي تماماً. هكذا كنت أفكر. أحياناً أرغب في أن يعتمد قيام أمتي على أسس علمية وحقوقية

ودينية. مثلما هو حادث في بعض الأمم النصرانية. في تواريخ هذه الأمم نكبات وكوارث مختلفة. لكن هذه الكوارث تُذهب بالضعفاء وبالمرضى من داخل هذه الأمم. يتزايد الأقوياء خلال العهود، أحياناً بشكل سري وأحياناً علناً، ويثورون رويداً رويداً. أما نحن، فإن الأقوياء فينا والضعفاء، واحد. نساق إلى النصر كأننا نجري معا. ونساق دائماً هكذا، إلى الهزيمة، ولهذا فإننا، كما أننا لا نستطيع أن

نعيش بدون الأومباشي مصطفى فإنه هو أيضاً لا يستطيع أن يعيش بدوننا. ولم يمر وقت طويل حتى عاد. حدجنا كلنا بنظرة من نظراته بعينه التي كانت عاتبة منذ قليل، من قمم رؤوسنا حتى أخامص أقدامنا، ثم جلس بجوارنا، وقال:

- يا صادق! إذا أردت أن تبقى معنا، فيجب عليك أن تتخلى عن رتبتك

فقلت:

- لا يبعدني عنكم إلا القدر؟

- أبعدوا عنا منذ أسبوعين، الضباط، بأن أخذوهم إلى معسكرات أخرى. سأجد لك ملابس، استبدل بها ملابس الضباط هذه.

نهض من جانبي. وبعد نصف ساعة، عاد وفي يده ملابس. قال لي وهو يلقي بالملابس تحت قدمي:

- خذ! لكن نظفها من القمل قبل أن تلبسها، فقملنا يكفينا، ولا نريد قمل الكفار.

ارتديت الملابس. وبقدر ما كان البنطلون ضيقاً، كان القميص واسعا جداً. كان شكلي سيكون مضحكا للغاية حتى إن مصطفى وصحبه من ورائه كانوا قد أطلقوا قهقهاتهم وقالوا:

- أنت تشبه صورارفو[٢٢].

في تلك الليلة نمنا يحتضن بعضنا بعضاً، وتذكرنا الوطن. غنى الأومباشي مصطفى أغنية "يا زينب الجميلة! يا زينبي" غناها ونمنا.

مصطفى المسكين: كم كان يسره سرورنا. يفرح ويسعد مثلما يفرح الأطفال ويسعدون إذا وجدَنا شبعانين وسعداء.

لم تستمر - للأسف- هذه الحياة طويلاً. فذات مساء، عاد مصطفى مهموماً. لا يتحدث مع أحد. أخذ رأسه بين كفيه وراح يفكر. لكنه قال فجأة:

- أنا لا أخشى الأسر ولا الجوع ولا الموت.

طار النوم من عيني في تلك الليلة. فكرت في مصطفى كثيراً. كان هناك شيء يهمه ويقلقه. اصفر وجهه وأصبح كالمريض؟ كان هناك شيء يحدث، لكن.. ما هو؟

علمنا في اليوم التالي، أن الألماني الذي كان يعمل مصطفى معه، قد ذهب إلى الجبهة. الموقف يسوء من يوم إلى يوم. منذ أسبوع ونحن جياع لم نأكل شيئاً. يموت كل يوم في الميدان، أكثر من مائة أسير، يموتون من الجوع والعطش والمرض. كان بيننا أسرى ضعفاء ومرضى. مرضى للدرجة التي لم نكن ندري أنهم يرقدون موتى بجوارنا. الجوع يمحو جسمي يؤثر في نخاعي ويرتفع إلى مخي. يتراءى لي الخبز، شريحة من رغيف القرية. ويظل هكذا ساعات لا تبرح صورتها رؤياي. يحدث أحياناً كأني أرى الخبز بين كفيّ، فأجد نفسي أود أن أقرب يدي من فمي وأعضها. أعلنوا ذات صباح أنهم سيفرقون أكلاً على الأسرى. ذهبنا زحفاً إلى الأبواب قالوا بالميكرفونات في نواحي الميدان الأربعة:

---

[٢٢] صورارفوا: جنرال روسي قيصري مشهور.

- انتبهوا - انتبهوا - إذا سادت الفوضى أثناء توزيع الطعام فستنطلق النيران من الأبراج.

ومع ذلك لم يوزعوا علينا شيئًا إنما عزفوا في ذلك اليوم وحتى المساء موسيقى الجاز والفوكسترول والتانجو.

أعلنوا في اليوم التالي - مرة أخرى- أنهم سيعطوننا طعاما. ومرة أخرى استمعنا إلى الموسيقى من الميكروفونات، ببطون جائعة، طوال اليوم لكنهم في اليوم الثالث أرسلوا لنا الشرطة الأوكرانيين فنادوا بنا إلى نوبة الأكل، أعطوا كل أسير خمسين جراماً من الخبز ونصف لتر، حساء. انتظمنا في صف وأخذنا ننتظر الدور، الأسرى الذين يخرجون من المطبخ يتجهون نحو الحائط، وكثير منهم اتجه إلى جانب الجدار من فرط خوفهم، على خبزهم، أداروا ظهورهم لإخوانهم وأخذوا يأكلون خلسة وفي سرية. كنت أراقب كل هذا بدقة. كان أكثر الأسرى يشربون حساءهم في علب صغيرة من الصفيح الفارغ الذي كان أصلاً علباً لحفظ المأكولات. أما الذين لم يكن معهم مثل هذه العلب فقد كانوا يأخذون حساءهم في قبعاتهم، يشربون وعندما ينتهون يظلون مدة طويلة يديرون قبعاتهم على أفواههم، أما المرضى والمرهقون لدرجة عدم قدرتهم على الوقوف في الصف على أقدامهم فقد كانوا ينظرون بصمت إلى هؤلاء الذين يشربون الحساء. ينظرون إليهم بأفواه فاغرة وعيون متسعة. ولم أستطع أنا الحصول على خبزي إلا في منتصف الليل. كان لون الحساء أخضر وكان بالخبز من الحصى والتبن واللَّبن ما يجعل له شكلاً خاصّاً، لكنه كان ألذ من كل خبز أكلته في حياتي حتى ذلك اليوم.

لم يعد الأومباشي مصطفى منطلقاً مثلما كان. مقاومتي للجوع ملحوظة فقد كنت أكثر من يتحمله. يرقد بجوار الحائط وينام عدة ساعات. وعندما يستيقظ تثبت عيناه على نقطة ويظل كذلك. لم أعد أرى وجهه الذي كان قبل أسبوعين، نضراً مليئاً بالصحة. لقد أصبح مصطفى في حالة يأس لا نهاية لها.

مهما حاول مصطفى إخفاء هذا إلا أننا كنا ندركه ونفهمه. إن غرق إنسان سليم وسعيد، في التفكير، وفي اليأس، يتضح بسرعة، من شأن الاضطراب أن يطفئ سريعاً إنساناً سليماً. وكان مصطفى ينطفئ سريعاً أمام عينيّ. ورغم ضعفي وقلة حيلتي فإن شيئًا ما بداخلي كان يدفعني أمام أصدقائي، صوت في داخلي كان يقول لي أسرع لمساعدتهم، وقبيل مساء، اتخذت قراري، ذهبت إلى الأبواب في منتصف الليل دون أن أشعر أحداً بذلك. تجمع جمع كبير بجانب الأبواب قبيل الصباح، وخلفي، خلف الأسلاك الشائكة، آلاف الأسرى جياع، مسعورون، مستعدون ليقاتل بعضهم بعضاً. كنت أفكر في إخوانهم الذين أسلموا أرواحهم مضرجين في دمائهم منذ أسبوعين. لكن كنت اتخذت قراري: أن أخرج من المعسكر لأحضر الخبز لأصدقائي. سأنجح بمفردي في العمل الذي لا يفلح في تحقيقه مائة شخص. سأكسب ذلك الخبز وأطعم به مصطفى وعثمان وجودت وخليل.

يدق قلبي بشدة عندما اقترب منا ديدبان مسلح ببندقية، خلف الأبواب ذات العيدان الحديدية، يخيل إليّ أنه سيقتلني عندما ينزل البندقية من على كتفه. لا يخرج صوتاً. يأتي ويذهب أمام الأبواب خطوة خطوة وكأنه يعد خطواته. يصبح الصباح. الازدحام خلفي يزداد تداخلاً. ثمانية أسرى وعشرة هم الذين بيني وبين الأبواب التي أمامي. يدفعونني أكثر وأكثر. تبدأ الشتائم والصياح والأنين بين الأسرى الذين ورائي، لكني كنت اتخذت قراري. لا أخاف. سأحضر هذا المساء خبزاً إلى المعسكر. وعندما يسألني مصطفى "أين كنت؟" ، سأخرج الخبز من حضني وأضعه بجانبه. ماذا لو أطلق الألماني النار عليّ؟ يتجمع الجنود الألمان أمام الأبواب. فيهم غير مسلحين. السلاح هو أخوف ما أخافه. وجه السلاح جاف ورهيب. أتصور الجنود غير المسلحين: متحضرين، رحماء، قلوبهم طيبة. لماذا كلهم غير مسلح؟! يتقدم واحد منهم نحونا. طويل القامة. أشقر. يقف خلف ستارة الباب الحديدية أرى الآن وجهه جيداً. لا تبدو الرحمة عليه. لكن لا أدري لماذا أجده يضحك. حاجباه الغزيران الأصفران يغطيان عينيه اللتين هربتا إلى الحفرة. هذان الحاجبان مع

جبهته الضيقة وشعره الجاف المنتصب كالفرشاة، كل هذا يشكل صورة لحيوان. يداه خلف ظهره يضحك وهو يبتسم لنا دائماً، يرفع نحونا عصاه الجلدية التي أخفاها وراءه، يهزها ويضحك. هل يضحك علينا إنسان يريد أن يضربنا؟ إنه يضحك. يمد الأسرى أيديهم.. يريدون سيجارة. لكنه لا يجيب. إنما يضحك كالقرد وهو يهز عصاه. كم من وقت مضى. ولم نرَ فيه إنساناً يضحك وهو ينظر إلينا. يموج الجمع المزدحم عندما يفتح الديدبان المسلح الباب رويداً رويداً، يتغير فجأة وجه الألماني الذي يضحك، يجف وجهه وهو ينظر إلينا ثم يندس بيننا من

فتحة الباب ويصيح قائلاً:

- إلى الوراء، أيها الخنازير! إلى الوراء!

أمن المعقول أن يفسد فجأة، إنسان طيب، هكذا؟! ، لم نستطع أن نفهم تغيره. لم نصدق هذا، فكان يصيح بوحشية ونحن نضحك، لم يكن الضحك رغبتنا إنما نضحك لأنه كان يضحك لنا. لكن في عينيه لمعان خائن ووحشي. يندس بيننا من فتحة الباب. يضرب على وجوهنا فقط، بل وعلى رؤوسنا. يصيح كالمجنون يركلنا بقدميه ويشتمنا. نحن لا نرجع إلى الوراء إلا في حالة واحدة وهي إطلاق الرصاص علينا. لكنه، الآن، وسطنا ونحن حواليه ننظر إليه، لم يعد الآن يشتم، يذهب ويجيء أمام الأسرى، يهز عصاه ويضحك، أقول في نفسي: "هذا الديوث، ألم يجد لعبة أخرى غير ما هو عليه؟" وبينما أنا هكذا، إذا به يقف في وسط المكان ويرمي سيجارته التي كان يدخنها، تحت أقدام الأسرى، فإذا بهم ينطلقون على الأرض كالحيوانات الكاسرة، يتصارعون بأصوات رهيبة وأنّات مفزعة، من أجل نصف سيجارة، وبينما الأسرى يتصارعون فيما بينهم، وهم على الأرض، إذا بالألماني يضرب مجموعة منهم بعصاه. ترى من فاز بالسيجارة؟ لا أدري، إلا أن جميع الأسرى صاحوا بعد أن نهضوا من على الأرض وهم يقولون:

- ارمِ، واحدة أخرى! ارمِ!.

لكن الألماني لم يلقِ سيجارة أخرى، بل أخذ جولة أخرى ماراً من أمام الأسرى وفي الوسط رفع عصاه إلى الهواء وقال:

- من يريد أن يخرج للعمل؟

كنت أنا - تقريباً- الذي فهمت هذا السؤال قبل أي أحد آخر، فرفعت يدي قائلاً:

- أنا.

أشار إليّ بعصاه، ليستدعيني بجواره، خفت أن يضربني "علقة" لكنه لم يفعل شيئاً. لا أستطيع التعبير عن سروري عند خروجنا من الباب. لكن للأسف لم تستمر هذه الفرحة طويلا، وصلنا أمام مبنى قيادة "الشتالاك" وجدت ما لا يمكن نسيانه، كان كرسي خشبي فاخرٌ بجوار السلم الحجري، ذهب الألماني وجلس على هذا الكرسي وأنا واقف أمامه، أشعل سيجارة، وأشار إلى طوبتين بجوار الحائط وقال:

- ائت بالطوبتين إلى هنا!

أحضرت الطوبتين، وضعتهما على الأرض تحت أقدام الألماني، أمرني وهو يشتم أن أحمل الطوبتين في يدي، لم أفهم مراده، لماذا يصيح بي ويشتمني؟ لا أدري. كنت أريد العمل. العمل بكل ما بي من قوة. أكسب الخبز وأحضره إلى مصطفى. قال لي الألماني، بعد أن أمطرني بوابل من الشتائم:

- أمسك بالطوبتين وضعهما على رأسك.

أمسكت الطوب ووضعته فوق رأسي. الألماني يجلس على كرسيه يدخن سيجارته يأمرني بعصاه الجلدية وكأنه قائد أوركسترا:

- نزول على الأرض! قيام!

نزلت أرضاً ثم قمت، بناء على أوامره عدة مئات من المرات ورويداً رويداً. وقف كل شيء في حلقي. وصوت من داخلي يقول:

- اسحق هذا الحقير بالطوبتين اللتين في يديك.

لكني لا أستطيع عمل شيء. لماذا؟ أكنت أريد أن أعيش؟ رويداً. رويداً أدرت ظهري إلى الألماني لم ير بكائي وفرحت بهذا. نعم لا أدري كم مائة مرة هبطت على ركبتي ثم قمت واقفاً وأنا أحمل الطوبتين وأنا منقاد للعصا الجلدية. وبعد نصف ساعة قام الألماني من على كرسيه وتقدم نحوي وجعلني أرمي الطوبتين على الأرض وأعطاني سيجارة من سجائره وأخذني إلى الأبواب وساقني مباشرة إلى الميدان.

ولم أتحدث إلى أحد في ذلك اليوم. إلا أني طواله وأنا أفكر في الناس وفي الحياة وفي الموت.

وهناك قطعة من طريق حياتي الذي سرت فيه حتى الآن، تحرق ذكراها نفسي. إني اجتزت ذلك الطريق، لكني كنت أنام في بعض الليالي وأنا أغرق في العرق وأظن نفسي وكأني ما زلت في هذا الطريق. ما زالت أنّات ذلك الطريق مسموعة في أذني. ولهب ذلك الطريق ما زالت ترتفع أمام ناظري.. أعرف جيداً أنني الآن في غرفة في فندق من فنادق روما.. ومع هذا أسائل نفسي: لماذا أخاف كل هذا الخوف وأرتعش كل هذا الارتعاش..؟ ما زلت أرى ذلك الطريق واضحاً بكل مآسيه. أريد - لو أستطيع- الكتابة أن أبدأ هذه القطعة من طريق حياتي بأسماء عثمان وخليل وجودت وأنور.

يا إخواني الأحبّاء الأعزاء!! لقد كنت معكم على ذلك الطريق الدامي، عندما كان يمسك بعضكم بأيدي بعض أثناء توجهكم إلى الموت. لقد انفصلت أرواحكم الحلوة عن أجسادكم، في الأماكن البعيدة، عن بلادكم، أثناء غربتكم، في الوديان

التي تخلو من الطيور الطائرة والقوافل العابرة.. يا إخواني: إني أكتب هذه السطور، وأنا أستمد القوة مما منحتني أرواحكم، وكأني أسمعها في نفسي، أتذكركم بعينين دامعتين أتذكركم وأنا أرى الشباب التتاري المؤمن، من وراء ستارة ضبابية. نعم إنكم تعيشون في قلوب الشباب وستظلون تنتقلون هكذا من جيل إلى جيل، وستعيشون في القلوب طالما أن اسم التتار يعيش ويحيا.

لن أنسى طوال عمري، أنْ جاء مصطفى ذات مساء إلى جانب الجدار وهو منفعل. كان في عينيه بريق مختلف، بريق غريب، برك على الأرض، على ركبتيه، وبشكل هامس ولكن بصوت حاد قال:

- هيا، انهضوا فنحن ذاهبون.

سألناه جميعا وبنفس الصوت الهامس:

- إلى أين؟

كان يحدثنا وهو يضع ملابسه الداخلية في الحقيبة، عما سمعه من الشرطة الأوكرانيين.

- غدا صباحاً، سيأخذ الألمان من هذا الشتالاك حوالي خمسمائة أسير منا، ليسوقوهم إلى الخدمة في القرى القريبة من كيفورجراد.

وذهبنا في نفس المساء إلى جانب الأبواب، في انتظار الصباح.

لو رميت إبرةً أمام الأبواب قبيل منتصف الليل، ما سقطت على الأرض، وأريد تصديق كلام مصطفى، قد يكون فيه خلاصنا.. الجنود الألمان يتجمعون قرب الصباح وراء أبواب المعسكر، وكلهم مسلحون.

تتكاثف على التوالي كتلة البشر التي خلفنا، وعند ابيضاض الجو نرى في الميدان كل الأسرى الذي يستطيعون الوقوف على أقدامهم وقد تجمعوا كلهم أمام

الأبواب. هناك شيء سيحدث، ولكن ما هو؟ هل سيذهبون بنا إلى القرى؟ ربما.. كل هؤلاء الجنود المسلحين لنقل خمسمائة أسير جائع نصف عريان.. الزحام الآن مسعور ويزداد سعيراً، وكان الخبر الذي قاله لنا مصطفى عند المساء قد انتشر. بعض الأسرى كان يصيح قائلاً:

- الألمان سيطلقون سراح الأسرى.

كل واحد منا يصدق هذا الخبر، يؤمن به، ويفرح له، بل حتى وجدنا بين الأسرى من يهتف بحياة ألمانيا. عينا مصطفى علينا. يقول لنا متوسلا:

- أمسكوا أيديكم بعضها ببعض ولا تتركوها حتى الخروج من الأبواب ماذا يحدث؟ هل سنذهب إلى القرى؟ ربما! المحاصيل تفسد في الغيطان. ولم يعد هناك أحد يشتغل في القرى. رأى الألمان أن يذهبوا بنا إلى القرى ليشغلونا هناك بدلاً من أن يغلقوا علينا المعسكرات ويقتلونا جوعاً. ترى ماذا يقول الأومباشي مصطفى؟ هيا لنخرج إلى القرى وفي أول فرصة تسنح. هيا إلى القرم! ولنتخلص من هذا الميدان فهذا وحده يكفي. تسري هذه الأنّات إلى داخل نفسي ولا أستطيع النظر إلى الدموع، فأنا إنسان متعود على الحرية. لقد نشأت تحت شمس القرم ولا أستطيع تحمل هذه الروائح. لنخرج إلى القرى أولاً، ثم وفي الظلام سأقتل هؤلاء الديوثين المسلحين وسأهرب وسأجعلكم تهربون أيها الكوسة! لا تخافوا!.. هكذا قال مصطفى.

وحدات جديدة تظهر خلف الأبواب، وكان الجنود في انتظار هجوم للعدو.. أوامر حادة وقاطعة، كلمات، سلاح، أصوات، استعداد الأسلحة استعداد على أشده، لا تبدو له نهاية، ماذا سيحدث، أرى جيداً من بين الأصابع الحديدية في الأبواب. الجنود على صفين. حائطان مشغولان بالجنود المسلحين على جانبي الطريق الذي خلف الأبواب. يخرج ضابط طويل القامة، نحيل الجسد، دقيق الملامح، ويتجه نحو الأبواب ومعه مترجم والمترجم يبدو تشيكيّاً أو بولونيّاً، يقول بلغة روسية قبيحة للغاية:

- كل خمسة من الأسرى سيأخذون رغيفًا واحداً، لن تأكلوا الخبز هنا. الأسير الذي يأكل الخبز هنا، يُضرب بالرصاص فوراً.

كرر هذا الكلام مرتين، ثم فتحت الأبواب، وكان في يد مصطفى خبز.

نجري خلف مصطفى ونحن ننظر إلى اليمين وإلى الشمال. الجنود على الجانبين ينظرون إلينا نظرات جافة، ننحرف إلى اليمين، نخرج إلى طريق إسفلتي نرى على الجانب الأيسر صفوفَ جنود مسلحة، وسيارات نقل ورشاشات في سيارات النقل. ولم أرَ جنوداً ألمانًا بهذا الشكل في مكانٍ واحد، لم أرَ ذلك القدر من الجنود حتى في الجبهة. نتقدم يجري الجنود الألمان على يميننا وعلى يسارنا كأنهم كلاب حراسة. أنظر إلى الجنود القادمين من ورائنا. كم عددهم؟ لا أدري. لا أستطيع أن أرى نهاية للطابور على كل حال، لا بد أنهم أكثر من ألف.. ربما ألفان. أمضي بين ناس خرس، المنازل فارغة، جوانب المكان صامتة، وكأن الدنيا جميعها حبست أنفاسها وتستمع إلى أنّاتنا. نخرج من المدينة. مصطفى لا يتكلم قط. الاضطراب واضح على وجهه. يبدو أن أشياء سيئة للغاية تتولد في داخله. أريد أن أتحدث، لكن الألمان يصيحون دون توقف. يدفعوننا من خلفنا بقواعد بنادقهم. لن نجري هكذا، غالبا، وبنفس السرعة طوال اليوم!! يبدو أنهم يريدون إخراجنا فوراً من المدينة. قد يعطوننا عندما نخرج من المدينة فرصة للراحة قليلاً، إننا في أطراف المدينة ونواصل التقدم بنفس السرعة وأنا أمسك عثمان الشاب من يده، مصطفى بين خليل وأنور يسبقوننا. وجودت وراءنا. ألتفتُ بين الحين والحين إلى جودت وأنظر إليه. فيقول لي بصوته الحزين:

- لا تخف، يا ملازم، لن أتخلف، لا تخف!

نحن الآن في سهل. بعد أن كان الألمان يجرون من على يميننا وعن شمالنا، أخذوا يبتعدون عن صفوف الأسرى بحوالي مائة وربما مائة وخمسين متراً، وبابتعاد الجنود الألمان خرج من الصف بعض الأسرى الروس الذين يسيرون بجانبي. يجثون

على ركبهم، وفي لحظة اقتسامهم الخبز إذا بـ.. طاك.. طراك! ثلاث طلقات.. أسيرٌ ينهار على الأرض، وقطعة خبزه بين ساقيه، وقبل أن أراه جيداً إذا بي أسمع أنة خرجت من صدر جودت في الخلف ويصرخ قائلاً:

- آه يا أمي..

لم يبرح هذا المنظر مرآي حتى الآن، أمسك مصطفى بجودت من وسطه. دم صديقه ينزف ويسيل من بين إصبعيه إلى أطراف حذائه، رأس جودت يتدلى إلى الخلف، ينظر دائماً إلى أعلى وكأنه ينتظر شيئًا من السماء، وجهه جميل، وجهه نوراني، وأنا أكتب هذه السطور أجد ركبتيَّ ترتعشان، ويهتز قلبي وتتجمع على جبهتي نقط من العرق البارد، وتحترق نفسي لهيباً. جودت بين ذراعي مصطفى. عثمان وخليل وأنور غطوا وجوههم بأيديهم يبكون مختنقين. يقبل مصطفى - وبلا توقف - عيني جودت، ويئن ويقول:

- آه يا أخي! آه يا أخي!

يمر الأسرى من على اليمين ومن على الشمال زاحفين قائمين واقعين. ولا أحد يلتفت إلينا ولا يتكلم معنا، وبعد قليل إذا بصوت بجوار مصطفى يقول:

- هيا يا صديقي: فالموتى لا يُبعثون الآن. أخرجه إلى حافة الطريق، اتركه وامش أنت!

تظهر في حدقتي عيني مصطفى لهب سوداء. ينطلق فوراً نحو الروسي الذي قال له هذا الكلام. أظن أنه سيخنق بيديه الداميتين ذلك الروسي ويمزقه إرباً إرباً. يدفع الروسي من صدره ويقول له:

- امش! اذهب إلى ما أنت فيه.

الروسي لا يذهب، ينظر بصداقة إلى وجه مصطفى الآخذ في التوحش.

- لا تتخلف كثيراً. إن الألمان يضربون سريعاً من يتخلف عن الطابور ومن يخرج من الصف.

- ومن أين تعرف؟

- خرج ثمانية عشر ألف أسير من معسكر كيفوجراد. ولم أرغب أنا في الخروج. لكن الألمان دخلوا الغرف وأخرجوا الأسرى السالمين عنوة. وعند التقدم داخل المدينة كنت أنا في أخريات الطابور. لم يقتلوا أحداً داخل المدينة. لكن عند الخروج منها قتلوا كل أسير تأخر عن الطابور ثلاث خطوات. وكم سقط من الموتى في الخلف! آه لو تعلم!

يبكي مصطفى. يشكّل جسد جودت، بين ذراعي مصطفى، كل وجود مصطفى، وكل حياته. يقبّل - دون توقّف - عيني جودت اللتين لا يراهما. يبدو أننا تخلفنا حتى أصبحنا في نهاية الطابور. أصوات البنادق تختلط بالآهات، وبعد قليل، الأسرى من يميننا ومن شمالنا يتصارعون، يسرعون، يجرون، وهم يقولون:

- أسرعوا، خلصوا أنفسكم، أيها الإخوة، أسرعوا بالنجاة.

وإنه لأمر صعب للغاية: تَرْكُ جسد جودت والذهاب، لكني أفهم رويداً رويداً أنه لا حيلة غير تركه. يصعب أن أقول هذا لمصطفى وللآخرين، يبدو أنني كنت أكثر زملائي خوفاً من الموت، ورغم هذا، فإني أقسم في داخلي أني أنا أيضاً لن أترك جسد جودت حتى يتركوه هم. وأخيراً، قام الأومباشي مصطفى بنقل جسد جودت إلى حافة الطريق. أرقده على العشب الأخضر، وجثا على ركبتيه بالقرب من رأسه.

إننا في نهاية الطابور، نرى سيارات النقل وفوهات المدافع الرشاشة وقد اتجهت إلى الأسرى المسوقين، وفجأة يبدأ سيل من طلقات الرصاص. يداي ترتعشان وركبتاي كذلك. أسمع قهقهات الألمان. يتقدم ثلاثة من الأسرى يترنحون وكأنهم سكارى بين سيارات النقل الألمانية: طاق. طاق.. طلقتان فقط ويقع أسيران في

منتصف الطريق. أنظر إلى أصدقائي. يا ربي! ما هذا الاضطراب؟ نخرج من الصف. دوم! صوت بندقية أخرى. الآن، وفي وسط الطريق، وعلى بعد خمسة عشرة خطوة من هذين الأسيرين الراقدين أرضا: أسير ثالث يقع منكفئًا على وجهه أرضًا يتجندل في دمائه. نتبادل النظرات أصوات طلقات من البنادق مرة أخرى. والرصاص يمر أزيزه أسفل أذني. في هذا الوقت يأخذ مصطفى رأسه بين كفيه ويقول:

- عفوك إلهي! عفوك إلهي.

ثم يقوم على قدميه ويختفي بين زحام الأسرى. ونحن بدورنا نترك جسد جودت مسجى على حافة الطريق ونجري في أعقاب مصطفى.

عثرت على مصطفى في الزحام بعد نصف ساعة. كان كمن فقد عقله. لم يكن يتحدث مع أحد منا. لم يكن يرفع رأسه من الأرض ولم يكن ينظر إلى أحد منا. عبرنا في ذلك اليوم من قرية. لكننا لم نرَ إنساناً ولا حيواناً. كان المكان مغلفاً بالسكون. لم يعد أحد يقول إن الألمان يأخذوننا إلى القرى. وعند المساء وقفنا في واد ممتد فسيح. الأسرى وهم تحت السحب الرصاصية المنخفضة يئنون ويدخل بعض في أحضان بعض وينامون. لم نكن نتحدث قط. وكانت في عيني مصطفى نظرات منطفئة ولا معنى لها، حتى إني كنت أخاف من أن يحدث له شيء، وكنت أدعو وأقول: يا رب: كن معه حتى لا يحدث له مكروه.

وفي اليوم التالي، في ساعة مبكرة من صباحه استيقظت على أصوات البنادق وصيحات وحشية يطلقها الجنود الألمان، أردت الوقوف على قدمي فخيّل إليّ لأن أسفل ركبتيّ: عبارة عن قطعتي خشب، وسريعاً انهرت على الأرض وعثمان بجانبي. أمسكني من وسطي وقال:

- قم يا صادق آغا. قم. لا تتأخر.

ولم أكن أستطيع القيام، كنت كإنسان فقد ساقيه. لكن عثمان المسكين كان يتوسل إليَّ قائلاً: قم يا صادق آغا. قم، نزعت حذائي. جاء مصطفى ليساعدني، لف خرقة من القماش وقطعا من القمصان القديمة، لفها على ساقي. تقدمت مستنداً على كتف عثمان. عشنا طوال اليوم في محنة ورعب. كنا نأمل الخلاص عندما كنا نمر بكل قرية. لكننا عندما نخرج من قرية كنا نتطلع إلى القرية التالية بأعين دامعة مرة أخرى. كنا نخرج ذا ت مساء من قرية فحدث حفل من نار ومن دم بكل معاني الكلمة. نزل بعض الأسرى إلى البساتين الموجودة على جانبي الطريق. لم يطلق الألمان النار عليهم رغم رؤيتهم لهم. عاد هؤلاء الأسرى من البساتين وانخرطوا في صفوف الأسرى ثانية وكانت الكوسة والبنجر في أيديهم. مئات الأسرى الذين رأوا هذا المنظر، انطلقوا هم الآخرون بدورهم إلى البساتين. وفي تلك اللحظة حدث ما حدث: أخذت فوهات المدافع الرشاشة تصيب الأسرى بوابل من رصاصها. لا أدري كم شخصا استطاع النجاة من هذه العاصفة النارية؟

وبينما نحن نتقدم، كانت تتجلى في أعين خليل وعثمان الشاب نظرات غاية في الغرابة: عندما كان ينظران إلى أفواه الأسرى الذين كانوا يأكلون الكوسة والبنجر. وحتى الآن، ما زالت صورة هذين الوجهين الشابين تتراءى لي. وجهان شابان بريئان أبيضان كالحليب، غَضَّان. هذان الوجهان اللذان ظهرا لي فجأة بين النار والدم فرأيتهما، إنما أعطتهما لي أمتي كأسلم إيمان وأقوى إيمان. لن يخرجا من عقلي حتى آخر نفس في حياتي.

يحل الظلام. البرد مفزع. غطت السحب السماء. كذلك تبدو كأنها ستمطر. خليل بجانبي يقول بعض أشياء لكني لا أستطيع فهمها جيداً. إنه يبدو مريضاً. يتلفظ بكلمات لا أدري ما إذا كانت أنيناً أم سبّاً أم شتائم. أذهب إليه يمد يديه فجأة إليَّ. لكنه ينهار، قبل أن أصل إليه ويقع على الأرض. يحاول - وهو يرتعش- أن يشرح لي بعض الأشياء.

- ماذا بك يا خليل!

لا يجيب، لكنه يمسك بقدمي وهو يرتعش. ورويداً رويداً يحل الظلام بالمكان، عربات النقل البعيدة تضيء الصحراء بأنوارها الكاشفة، وهي على الجانب الأيمن من الطريق. نخرج إلى الصحراء وننام تحت أضواء القمر الطالع بين السحب المتفرقة في منتصف الليل، كان الأسرى يرقدون في الوحل. إنه منظر يتفوق على جهنم دانتي.

- واستيقظنا في الصباح الباكر على صوت الألمان المختلطة بصيحاتهم المتوحشة. كان ذلك هو اليوم الثالث على خروجنا من المعسكر، لقد أصبح ذلك اليوم من أسود أيام حياتي. وكنت أخاف من كتابته. لم أفكر في كتابته وقت أن شرعت في كتابة مذكراتي. آه لو كنت فكرت في هذا من قبل، ربما لم أكن أبدأ قط في كتابة مذكراتي. أكتب هذه الأسطر مع رنين صوتيّ خليل وعثمان، في أذني.

خليل يتقدم بسكون، إنه بجانبي وعلى وجهه تعبير مخيف، في المقدمة يسير مصطفى مهتزاً كأنه سكّير، وبجواره أنور. إنه أيضاً مثلي حافي القدمين. لم يلبس حذاءه في ذلك الصباح، كان يحمل حذاءه على كتفه فقد كانت الحاجة ما تزال إليه. أما عثمان فقد كان يسير خلفي قليلاً. كنت أحياناً أسمع أنينه. وهو يقول:

- آه يا أمي! ترى هل أستطيع التحمل؟!

سمعت بكاءه فالتفت إلى الخلف وسألته:

- ماذا جرى يا عثمان؟

لم يجب. لكن دموع عينيه، تنساب على وجنتيه تاركة فيها آثاراً متسخة. وبنفس الأنين قال:

- آه يا أمي، أأستطيع التحمل؟ أأستطيع التحمل؟!

وبينما أخفف عن عثمان ألمه، إذا بخليل، فجأة، يأخذ رأسه بين كفيه ويلقي بنفسه على الأرض يعوي كالحيوان وهو ينهش الأرض بأظافره. وعندما انحنيت أريد إنهاضه على قدميه، عض يدي، قال له عثمان وقد جاء بجوارنا مسرعاً:

- أجننت يا خليل؟ أجننت؟

وتجمعنا بعد قليل - كلنا - حول خليل. ينظر مصطفى إلى خليل عاتباً. مسكين خليل، عيناه في الأرض، ويداه وقدماه ترتعشان. يقترب عثمان من خليل، يريد أن يمسكه من كتفه لكنه يخرج في تلك اللحظة من الصف وهو يأخذ رأسه بين يديه، ويغيب في الوادي هل ينوي الموت؟ يا ربي!!! يصيح مصطفى من خلفه قائلاً:

- عد يا خليل! عد يا خليل!

وخليل لا يسمع. رأسه بين يديه ويجري بسرعة البرق نحو الوادي. نحو سيارات النقل الألمانية. يجري عثمان خلف خليل وهو يصيح به. أمسكت بكل من مصطفى وأنور: من ظهرهما، ثلاثتنا أيضاً ننظر إلى خليل وهو يجري نحو سيارات النقل. وفجأة صوت بندقية. يتوقف خليل، وكالسكّير، يتقدم خطوتين أو ثلاثاً ثم ينكفئ أرضاً على وجهه طلقة ثالثة من خلفه.. في هذه المرة ينقلب عثمان خلف خليل على بعد ثماني خطوات أو عشر.

يغطي مصطفى وجهه بيديه ويبكي وكأنه يختنق. يده طوال النهار على كتفي وهو بجانبي. يستغفر الله ويرجوه رحمته.

في اليوم الرابع من خروجنا من المعسكر، يختفي أنور في زحام الأسرى. أبحث أنا ومصطفى عنه حتى المساء فلا نجده. ماذا حدث لأنور؟ أهو أيضاً لقي نهاية عثمان وخليل لا أدري. في تلك الليلة أيضاً كان المطر ينزل غزيراً. طوال الطريق الذي سرنا منه صباحا كنت أنحني لأشرب من المياه المتجمعة في الحفر، عندها يبدو مصطفى كأنه يعاتبني على هذا، فلا ينظر إلى وجهي. لحيته الفاحمة السواد الخشنة الكثة

وقد استرسلت. وعيناه قد انتفختا من البكاء. إن رؤية إنسان قوي متين وقد أخذه الانهيار، ليضيف إلى الإنسان مرارة أكثر من تلك التي يحسها! أسأله أحياناً لمجرد الاسترسال في الكلام:

- هل سنستطيع التحمل يا مصطفى؟

فيهز رأسه فقط دون فتح فمه. ولا أستطيع جيداً فهم ما يعنيه. وبدوري لا أسأله أكثر. وبينما نعبر من قرية خربة، إذا بمصطفى يضع في يدي شيئاً كأنه معوذة، ويقول:

- خذ هذه واحتفظ بها يا صادق.

يقول هذا وفي قوله ذلك الهدوء المخيف الذي يغشى الناس الذين يصرون على ضروسهم حتى يكبتوا صيحاتهم. وعندما سألته قائلاً:

- وما هذا يا مصطفى؟

- رأيت الدموع المتجمعة بين جفني عينيه. أفك عقدة هذا الشيء الذي يماثل المعوذة، فيخرج منها شعر أسود مجعد.

- من شعر السيدة؟

- لا. إنه شعر ابنتي عائشة. تركتها في المنزل رقم ١٥ شارع قنطار. وفي لحظة يبدو أمام عيني المنزل رقم (١٥) في شارع قنطار، وفتاة لطيفة بشعر مجعد وعينين سوداوين تقف على عتبة الباب. أخرج من جيبي الداخلي صورة بكر وأمدّ يدي بها إلى مصطفى. شوق قلبين يعانق بعضهما بعضاً وكل منا يبكي على صدر الآخر. قد تكون بعد هذه الدقيقة، بداية التغير في نفسي. إن هذا لإحساس غريب!

هناك تل بعيد، عند عبوره يخيّل إليّ أنني سأدخل ضفتي "صالغير" ومنهما إلى حديقتنا الخضراء. وفي نفس الدقيقة وبينما أنا على ذلك، يختفي من

أمام ناظري، التل الواقع على الناحية الشمالية. والآن، أمامي أكوام من الأرض الصفراء الطويلة. صالغير خلف أكوام هذه الأرض. آه لو أستطيع عبور هذه الأكوام. سأشرب من مياه "صالغير". فقط أجتاز أكوام الأرض هذه. كم قريبة منا هذه الأكوام. يا الله!! ألا أجتازها؟ منذ متى ونحن نسير؟ كم هي بعيدة أيضاً أكوام الأرض هذه!! لو أستطيع التحمل!! قليلا.

يخيل إليَّ في كل دقيقة أن جبل "آيي داغ" سيخرج من آفاق السماء بسفوحه. هذه السفوح التي لا لون لها. وخلف الجبل، جبل آيي داغ: سواحل البحر الأسود العذبة: درمان كوي، قيزيل طاش، كورزوف، والماء البارد.. الماء.. الماء.. الماء يا ربي. نقطة ماء.. لكن عليَّ أن أعبر أكوام الأرض الصفراء الطويلة هذه التي أمامي. ثم يحدث ما يحدث. أخرج منها فقط! يأتي مصطفى بجواري زاحفا. لماذا لا يجري؟ لماذا؟ يبدو أن خليل وجودت وعثمان وأنور بجواري. لماذا لا يجري هؤلاء الأطفال ذوو القلوب النقية؟.. آه لو أصعد على أكوام الأرض الصفراء تلك.. يرتفع شيء طويل دقيق إلى السماء خلف الأكوام يا ترى.. أهي مئذنة جامع طوقال في آق مسجد؟ أذكر.. أذكر أن الروس هدموا ذلك الجامع في عام ١٩٣٤.. ولقد شاهدت سقوط هذه المئذنة من نافذة فصلنا في المدرسة. آه.. ذلك الجامع.. ذلك الجامع.. دار العبادة والإيمان، التي ارتفعت وأقيمت بأيدي أجدادنا، بأياديهم المشققة التي جمدت طبقات جلودها. هدموا الجامع، وانتهى.. وسليمان؟! أين هو الآن؟ أصوات الشباب القادمة من السماء، وأصوات أجدادي ذوي الشعر الأبيض الصادرة من تحت الأرض، تأخذني إلى تلك النواحي. آه لو أصعد على أكوام الرمل الأصفر هذه.

وفجأة أرى أن الأكوام قد انتهت. أرى مكانها في المرتفع ثلاثة منازل، أسطحها من التبن. نسير في اتجاه المنازل. إن شمسا تغطيها طبقة رقيقة من الضباب. حمراء اللون، في حجم الصينية، تختبئ رويداً رويداً خلف المنازل، أفيق رويداً رويداً. تهز النساء الملتحفات بالشالات في حدائق المنازل وفتيات أوكرانيا

الشابات، أيديهن لنا بالتحية، نقترب من الحدائق. الإنسان الإنسان والبشر الحق. الناس الطيبون الذي يحيوننا يرفعون لنا أيديهم بالتحية. فماذا عن الألمان؟ إنهم يجرون من على يميننا ومن على شمالنا ضائعين. لم نعد نسمع أصوات البنادق. منذ الصباح ولم أسمع صوت بندقية، لماذا؟ ماذا يحدث لم أفكر في هذا قط..

نسير أمام الحدائق. أخذت النساء رؤوسهن إلى أكفهن. يبكون وقد أخذن يهتززن والفتيات الشابات يلوحن بأيديهن وبينهن النائحات والصائحات. صوت بجواري يسأل:

- أين نحن؟

- النساء في الحديقة يصحن بصوت عال، يقلن:

- أومان! أومان.

نجتاز تلك المنازل. وتبدأ المنازل الواطئة من على اليمين وعلى الشمال. في حدائقها عدة نساء وفتيات. وبينما نعبر من أمام المنازل هذه إذا بامرأة شابة ترتدي ملابس بيضاء - وكانت حاملا - تجري نحونا. وفي يدها خبز تحمله، وعندما رأيت الألماني الذي يسير بجواري قد شهر بندقيته تجاه المرأة، إذا بقلبي يصعد إلى حلقي، تضع الخبز على رأسها وتجري نحونا. صاحب إلقاءها الخبز إلى الأسرى صوت انطلاق البندقية، تتوقف المرأة. تحاول العودة إلى الحديقة، لكن قبل وصولها باب الحديقة، تترنح. تقع على الأرض.. على ظهرها.. وفي صدرها بقعة حمراء فاقعة.. لكن الذي رأيناه وعانيناه قد أخرجنا من نطاق الإنسانية حتى إننا واصلنا مسيرنا دون أن نفتح لنا فماً، بل حتى دون أن ننظر إلى المرأة الراقدة على الأرض.

ندخل المدينة. أمامنا كنيسة. وعلى جانبي الطريق حائطان من النساء والفتيات، مناديلهن في أفواههن، يبكين. كثير منهن يردن الجري من جانب

الجنود الألمان لإلقاء الخبز الذي في أيديهن إلينا. يا لشجاعة الفتيات الأوكرانيات ذوات الخدود التفاحية والعيون الخضراء.

إني أدهش من شجاعتهن المتناهية التي تخلو من أي أثر للخوف من الرصاص ومن الموت. في هذه الأرض المملوءة بالنار وبالدم وبين ألف محنة ومحنة، لا نجد نيران الرحمة متوقدة إلا في عيون تلك الفتيات. وكأن الحياة لم يبق لها بقاء إلا في أعينهن فقط. نساق بين الألمان ونجري. وهم يَجْرون صائحين بنا، عن يميننا وعن شمالنا. نحن الآن في شارع ضيق، وأطفال ألصقوا وجوههم النحيفة الدقيقة على زجاج نوافذ المنازل ينظرون إلينا مشدوهين. مساكين هؤلاء الأطفال. أيشاهدون هذه الأيام المرة، وهم في هذه السن الغضة. تُرى أيقولون في ذهابهم إلى النوم هذا المساء:

يا جدتي! احكي لنا حكاية!

ندخل في ميدان واسع يشبه السوق. لا نسمع صوت الألمان المتوحش المفزع. على اليسار هيكل من حديد أحمر، لبناء كان في وقته شامخاً، والآن محترق. أرى من خلال الحديد مجموعة عربات سكة الحديد. لا بد أن يكون هذا المكان محطة سكة حديد. هل ينقلوننا إلى القطار؟ لا.. إننا نصعد من المرتفع الذي على اليمين ثم نجد أنفسنا بعد قليل في واد. يخطر في ذهني الآن أن الألمان سيسوقوننا إلى الموت المحقق. خاصة بعد أن تركنا خلفنا المدينة والناس. أبحث عن مصطفى. لا أثر له. أخاف. أين مصطفى؟ لو أجد مصطفى وأمسكه من يده، في هذه الحالة لن أخاف من شيء. حتى من الموت. أريد أن أبكي مثل الطفل وأنادي باسم مصطفى. نحن الآن في السهل. لم يطلق الألمان النار بعد. آه لو أجد مصطفى وأمسك به من يده قبل أن يبدأوا في إطلاق النار!

ومرة أخرى أرى أمامي أكوام الرمل الأصفر التي كانت منذ حين. أرتعش.. إلى أين نحن ذاهبون؟ أإلى الموت مسوقون؟ لا.. لا.. أين مصطفى؟ شارع قنطار.. المنزل

رقم خمسة عشر. على عتبة المنزل، عائشة بشعرها الأسود المجعد.. إذن أين مصطفى؟ إننا نذهب إلى القرم. إن خلاصنا هناك، فيما وراء أكوام الرمال الصفراء التي أمامنا. على اليمين سقائف مستطيلة. السقائف تشبه مخازن الدخان الموجودة في قرى الساحل في القرم. ترى هل هؤلاء الناس الذين بين السقائف أسرى أيضاً؟ يشبهون الأسرى. أقدامهم ملفوفة بقطع قماش قديم. يعلو التراب وجوههم وبجوارهم جنود مسلحون. نعم إنهم أيضاً أسرى.

نجتاز السقائف. نقترب من أكوام الرمل الأصفر الموجود أمامنا. لكن الأسرى الذين في الأمام يختفون قبل الوصول إلى الرمال. وكأن الأرض فتحت فاها وابتلعتهم بهدوء لا أصدق. أنظر باضطراب وحيرة إلى السقائف السابقة. لا أجدها في أماكنها. حتى الأسرى الذين كانوا بينها، اختفوا، وقافلة الأسرى التي تتقدمني تقل في عددها ويقصر طابورها. وقبل وصول الأسرى إلى الأكوام الصفراء يختفون!! ماذا أرى؟ أهو حلم؟ لماذا كنت أنتظر الخلاص من هذه الأكوام؟ لماذا يختفي هؤلاء الناس من أمام عيني؟ أين مصطفى؟ أين.. ؟

نحن لم نعبر مدينة ولم نقترب من الأكوام. ويبدو غالباً أننا في السهل الذي نمنا فيه ليلة أمس، وما زلنا فيه. كل ما أراه كان خيالاً. أريد أن أفيق. أرتعش الآن.. أنظر مرة أخرى إلى أكوام الرمل الأصفر التي في الأمام. ما زال الناس حتى الآن يختفون أمام عيني. أخوف ما أخافه الآن هو من هذا. ليس هناك أدنى تغيير في أوجه الناس الذين يتقدمون أمامي وهم يحجلون. ترى هل يريدون أن يغرق الأسرى في الرمال التي في الأمام؟ أتمرد على الذهاب إلى الموت هكذا، دون حس ولا خبر. أليس لهؤلاء الناس أحاسيس؟ كل حياة الإنسان المشرف على الغرق في الماء، تتراءى له أمام عينيه عند لفظه أنفاسه.. وأنا الآن أيضاً، تظهر أمام عيني صورة أخي بكر، يبدو أنني لا أؤمن بأنني ما زلت على قيد الحياة إلا لدقائق قليلة قادمة، على رأسه طاقية شركسية ضخمة. ينظر إلى عيني ويضحك، وكأنه يريد بنظراته

هذه أن يتدفق كل حُبّه لي من قلبه مباشرة إلى قلبي. آه لو أن هاتين العينين تنظران ضاحكتين هكذا إليّ حتى أموت؟ ثم يقول والدي وهو يمسك بيدي بجوار حديقة جامع طوقال:

- لا تخف! لا تخف يا بني!

تأتي من تحت الأرض أنّات عميقة وتدخل مسمعي. يا ربي، أين أنا؟ أرى حفرة واسعة وعميقة بيني وبين أكوام الرمل الصفراء. يبدو قاع الحفرة كجهنم. آلاف الأسرى يتلوون في الطين، في الحفرة وهم يئنون. أنزل إلى الحفرة وأختلط بموجة الأسرى القادمين من خلفي. أسير وأنا أدوس على الأسرى الذين يئنون تحت قدمي. ينام أكثرهم في الوحل دون حراك. أموتى هؤلاء، أم ما زالوا على قيد الحياة؟ لا أدري بالضبط كم مشيت بين الأسرى؟ إلا أني أخيرا انهرت على الأرض. رفعت رأسي فإذا بكل مكان مظلم كالسجن. في داخلي صوت غريب يقول: أين أنا؟ وعلى جوانبي الأربعة من كل اتجاه:أنّات وأنّات وأنّات، وأنّات.

(٧)

روما، في ١٩٤٦/٧/٢

أخي صادق،

مرَّ علي شهران منذ أن حضرت إلى الأرجنتين، ومع ذلك لم أستطع أن أجلس لأكتب لك خطاباً. وماذا كنت سأكتب؟!

إننا نرقد في السقائف الخشبية منذ شهرين وكما هو حادث في أوروبا نبحث بين أسطر الصحف عن الأخبار التي من شأنها أن تبعث فينا بشرى التحرير. أنا فقط التاتاري من بين ناس من مختلف الشعوب. أقرب أصدقائي اثنان: واحد من زاباروجيا، وواحد روسي من أوكرانيا. لا أعرف شيئًا عن ماضيهم، إلا أنني أتصور أنهم ناس طيبو القلب جيدو الخلق. واحد منهما عمل في الشرطة مع الألمان في جان كوى. وكلاهما منذ أن علما أنني تاتاري، يمتدحان كل مساء في السقيفات الأمة التترية. لا أدري عن الآخرين شيئًا، هؤلاء الناس تجمعوا بعد الحرب في أراضي أميركا اللاتينية، لإنقاذ أرواحهم، هم من ألوان مختلفة ومن أمم شتى، ولا أجد في نفسي الرغبة في استطلاع ماضيهم، منهم الأطباء ومنهم رجال الشرطة ومنهم أساتذة الجامعة ومنهم القتلة. ومع ذلك فإنهم يعيشون خلص بعضهم لبعض متحابين بدرجة كبيرة. قد تكون تسلمت الخطاب الذي كتبته إليك من السفينة في مدينة نابولي. هل تصدق أنني بكيت عندما أقلعت السفينة من الميناء، وكأن كل أضواء المدينة تمتد إلى قلبي؟ كان في داخلي عندما كنت في أوروبا أمل في أننا سنعود على وطننا. أما الآن فإنني أفكر متى سأعود إلى وطني، وكيف سأعود مثلما كان ماجلان في سواحل الأطلنطي يبحث عن الطريق إلى الهند وهو بلا حيلة، على مراكب خشبية. هل تذكر عندما كنا نتذكر وطننا ذات مساء ونحن في حديقة روما، وقلنا يكفي أن يفتحوا لنا الطريق إلى العودة للقرم، وسنعود زاحفين على ركبنا؟ والآن، أرى من وراء المحيطات أنك قريب من الوطن، وأنك سعيد محظوظ. من أجل هذا، فإني أنتظر منك رسالة تكتبها لي أنتظرها بفارغ الصبر. هل تتلقى أخبارا من إخوتنا الذين كانوا معنا في معسكرات اللاجئين في ألمانيا؟ أرجو أن تكتب لي هذه الأوضاع بالتفصيل. لم يمرَّ علي يوم إلاّ وفكرت فيهم..يا إلهي! أين سيختبئون بأطفالهم وعيالهم.

لا تثق كثيرا بالأميركيين. فعلى حسب الأخبار التي تلقيتها من ميونخ، إنهم سلموا للبلاشفة ما يقرب من مئة لاجىء. مغفلون بعض اللاجئين اختبأ في

الكنيسة، وقسم منهم أخذوا الموسى وقطعوا بها شرايين أذرعهم، فقتلوا أنفسهم بأنفسهم. لف الخوف والاضطراب كل من في المعسكرات بعد هذه المأساة. أخاف من حياة مواطنينا الجماعية. أليس من الأفضل أن يختلطوا بلاجئي بولندا والمجر ولتوانيا؟ ظلوا سالمين بعناية الله من ألف خطر وخطر. ووقوعهم في ذلك كله في أيدي إيفان الدموية كارثة. صوت هذه الأمة وفيها صراخ هؤلاء الشباب الأبرياء لن يختفي. أيمكن أن يختفي كلية يا صادق؟

أتذكر يا صادق قصة الأومباشي مصطفى التي حكيتها لي في معسكر الأسرى في أوكرانيا؟ أتذكر أيضا شابا يدعى (ولي) واريناه التراب في (قورب) وكان دائما مع مصطفى؟ وكان ولي شابا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. طويل القامة عيناه جوزيتان. وكان متحمساً. ذات مساء كنا في محطة فيينا ننتظر القطار الذي سينقلنا إلى تيرول: أطفال ونساء وكبار في السن ومواطنون. العدد حوالي ثمانين شخصاً. كان الأطفال الصغار يبكون بحرقة على صدور أمهاتهم الجائعات اللاتي لا يجدن اللبن في أثدائهن. كنت خرجت لأنزل السلم الحجري واستندت على عامود التلغراف. وأشعلت سيجارة فإذا بي أسمع صوتا في الظلام يقول لي:

- خبئني بالله عليك يا أخي.

ولما لم أستطع رؤية وجه هذا الذي يتحدث معي في الظلام سألته:

- هل أنت جندي؟ ومن أين؟

- لست جنديا ، أنا عامل. كان الألمان يشغّلوننا في سكة الحديد. علمت أن في المحطة تتاراً. فجئت. الروس على وشك دخول فيينا. وهناك من يقول إنهم على مقربة ستين كيلو مترا فقط، بالله عليك.

قلت له:

- لاتخف! تعال معي. أخبئك بين أكياس الأمتعة، ولو بحث عنك الألمان لن يستطيعوا العثور عليك وحتى يأتي القطار..

تركنا فيينا عند منتصف الليل. كان الأطفال ينامون، والنساء صامتات، وكبار السن يفكرون. كان هناك سكون. قلق يسيطر على المكان. أما نحن الشباب فقد تجمعنا في جناح آخر في القطار. كنا نتكلم بصوت خفيض عن الحرب، وعن القرم، وعن حظ شعبنا، وكان (ولي) بجواري. كان في عينيه الزرقاوين الصغيرتين، امتنان يمكن قراءته فيهما. كان مسرورا من فراره من فيينا إلى درجة لا توصف! وصباحاً، يمر قطارنا من أرض منبسطة يرتفع على جانبها الأيمن جبال الجليد. دخل القطار بعد ذلك إلى نفق، وهو يطلق صفارة حزينة مريرة. وكأن هناك من يطرده من خلفه. واهتززنا عند الخروج من النفق نتيجة دوي مرعب قادم من تحت الأرض. هدأ القطار من سرعته وكأنه تنين طعنوه في قلبه ثم توقف. عيون النساء تبرق كالخرز. كل واحدة تنظر إلى الأخرى. أعقب الدوي الذي حصل منذ حين، أصوات طائرات وأصوات طلقات مدفع رشاشة. قال واحد منا بصوت عال:

- لا تخافوا !! ادعوا الله ! اطرحوا أنفسكم أرضا !

أصوات الطائرات والمدافع الرشاشة مستمرة. يختلط التراب بالدخان. الأنَّات المرة.. صيحات الاستغاثة وفي الأرض كانت دماء الأمهات والأطفال تسيل ويختلط بعضها ببعض.

كان (ولي) يجري من باب إلى باب، ومن نافذة إلى أخرى، يكسر بقبضتي يديه الزجاج، وكان يصيح في نفس الوقت قائلا:

- اهربوا! اهربوا!

وبعد قليل كنا في الخارج، نجري في اتجاه النفق. وبين الحين والحين كنت أقيم رأسي وأنظر إلى الطائرات الأميركية بعلمها النجمي الأبيض وهي تطلق نيرانها المتواصلة على القطار العاجز عن الدفاع والموجود في الأرض المنبسطة. كنا كلنا نجري نحو النفق : الأطفال والنساء في المقدمة، ونحن في المؤخرة. لكن رصاصة طائشة أصابت

(ولي) قبل أن يصل إلى النفق. أصابته في بطنه. أمسك المسكين بطنه بيديه التي خضبتها الدماء كان يقول وهو يرتعش:

- أصابوني يا آغا! انتهيت!

أمسكته وأحضرته حتى النفق. وا أسفاه لقد أسلم الروح بين الجرحى الذين ينتظرون دورهم في إجراء العلميات. أسلم روحه في ممرات المستشفى بعد بضع ساعات كان مجموع ضحايا كارثة ذلك القطار في ذلك اليوم ستين، منهم اثنا عشر تتاريا من مواطنيً كانوا من ضمن هؤلاء الستين.

وفي مقبرة نصرانية مغطاة بالأزهار في سفح جبل أقرع في شمال (فوربل) وتحت شجرة من أشجار البلوط، على المرتفع، وبين اثني عشر قبراً حفر لبعضهم إلى جانب بعض. يرقد ولي في قبره.

كان ولي قد قال لي في القطار: إنه من آق مسجد، وإن أخاه الكبير مصطفى قد أدى الخدمة العسكرية في أوكرانيا قبل الحرب. ألا يمكن أن يكون هو أخا مصطفى الذي عرفته أنت؟

افترض أنك على شطآن بلدك المحبوب. ارفع رأسك وحاول أن ترى صحاري أوكرانيا وسواحل بحر الشمال، وميادين الحرب في أوروبا.

كم قبرا، وكم حفرة، وكم ضحية! ألم يمت هؤلاء يا صادق وهو يتأوهون، يقولون: "آه يا قرم" ؟ ألم تلد أمهاتنا من أجل ذلك الوطن؟ ونحن بدورنا يا صادق متنا في سبيل هذا الوطن وسنموت في سبيله. أليس الموت في سبيل الوطن أشرف شيء لنا؟

رأيت أنك تغيرت قليلا في إيطاليا. كنت تبدو كالمهموم. لم تقل فيم كنت تفكر؟ لماذا ومن أجل من عانيت كل هذا العناء في أوكرانيا؟ لم يكن الأمر سهلا كما يظهر. أتشعر أنك فاقد القوة. لست مؤمنا بذلك. لا بدّ أنك تجد في الدم الذي يسري

في عروقك القوة اللازمة والاستعداد الضروري. فقط ابدأ كل عمل تقوم به بقولك: "أنا تركي لهذا أعيش وأعمل" .

والآن يكفي هذا. اكتب لي سريعاً. أرجو الله لك الصحة والسعادة.

أخوك محمد

لا أذكر جيدا بالضبط كيف ومتى خرجت من الحفرة. أفقت ذات صباح أمام أبواب معسكر في الرياح الجليدية الفظيعة.كانت رطوبة الصباح تعمل عملها في عظامي. كنا ننتظر ويختبئ بعضنا في بعض. وبعد ساعة بدأ الجنود الألمان يتجمعون حولنا بأسلحتهم ووجوههم العبوسة. وكانت عيونهم تتفجر شرراً. أما نحن فقد اعتدنا على تلك العيون وتلك الصيحات. حتى الدم والموت، لم يعد من الأشياء التي نأبه لها كثيرا. لم نكن نعلم المكان الذي سيسوقوننا إليه، ولم نكن أيضا في شغف لمعرفة ذلك، وفجأة إذا بصوت آمر، وإذا بالجنود الشباب يحولون تجاهنا قواعد بنادقهم ثم يهجمون علينا. سقط أغلبنا على الأرض تحت قوة ضربات مؤخرات البنادق، دخل الألمان بيننا، أطلقوا صيحاتهم، وأخذوا يكيلون لنا الضربات بمؤخرات بنادقهم هذه. وأخذوا يقسموننا إلى قسمين: مجموعة الضعفاء وهؤلاء كانوا الذين وقعوا أرضا، ومجموعة الأقوياء، وهم الذين لم يقعوا على الأرض، لم أسقط أنا على الأرض، لكن الألماني الذي أمامي نظر إلي متفحصاً من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ونظر إلى لحيتي وقال:

- عجوز! عجوز!

وضمني إلى مجموعة الضعفاء. شاب في الثالثة والعشرين، كم يبدو عجوزاً؟! ها أنذا في مجموعة الضعفاء، ولم يكن لهذا أدنى أهمية بالنسبة لي في ذلك الصباح. لكن ما عانيته في السقيفة رقم٥، علَّمني، بعد ذلك، معناه. مكثنا في البرد مقدار ساعة أخرى. كنت ألتفت حولي على أمل أن أرى مصطفى. لكن لم يكن لمصطفى أي

وجود. رأيت شخصا أسمر اللون في مكان قريب من الألمان، خارج الزحام، كانت بذلته الرسمية نظيفة وفي قدميه حذاء. وإشارة الصليب الأحمر التي يعلقها في ذراعه تنبئ عن أنه من الفصيلة الطبية. استولى علي الفضول لأنه يشبه الشرقيين، لكني لا أستطيع الاقتراب منه وبعد قليل جاء هو إلى ناحيتي وقال:

- هل أنت آذربيجاني؟

- لا، أنا قرمي.

صمت برهة، ثم قال:

- وأنا أيضا قرمي، أرمني.

سألته قائلاً:

إلى أين يأخذوننا يا عزيزي؟

أدار رأسه ناحية السقيفة وقال:

- إلى المعسكر.. مرة أخرى حظكم طيب..قبل شهرين كنا نحن ستين ألف أسير عشنا في تلك الحفرة شهراً. أما أنتم فلم تمكثوا فيها غير ليلة واحدة، هل من قرمي غيرك هنا؟

- نعم، الأومباشي مصطفى الآق مسجدي. فقدته أمس بين الزحام.

- مات..

سألته والخوف يأخذني..

-كيف؟ هل رأيته؟

- لا، ولكني خمنت هذا، خرج ثمانية عشر ألف أسير من كيفوجراد، ولم يستطع أن يصل إلى (أومان) منهم إلا ثمانية آلاف فقط، أين ذهب الآخرون؟ يقول الألمان إنهم هربوا وأنت تعرف جيدا ماذا حدث لهم.

سمعنا صياح صوت مقطع مبحوح بين الألمان. وقف الألمان. ماجت صفوف الأسرى واختفى الأرمني بين الألمان. وبعد فترة فتحت أبواب المعسكر. ودخلنا بسكون إلى الشتالاك أومان رقم (٢) . وضع الألماني الذي يقف بجانب الباب، في كفي قطعة خبز حجرية تبنية مثل الطوب. وتزن خمسين جراما. وتقدمنا من شارع موحل واسع يقسم سقائف المعسكر الضخم، إلى جزأين. وكل سقيفة محاطة بالأسلاك الشائكة. والروائح العفنة الكريهة تنبعث من السقائف ذات الأبواب المفتوحة. الأنَّات واضحة. ما ألعن هذه الروائح! إنها تصيب معدة الإنسان بالغثيان الفظيع. في تلك الدقائق يتبدل حالي بشكل غريب، كنت أريد أن أقع في بئر لا قرار له، وأنمحي من الوجود بكل أفكاري.

وأخيرا وصلنا أمام السقيفة رقم (٥) كل مكان محاط بالأسلاك الشائكة فتحت الأبواب ودخلنا إلى الميدان الكائن أمام السقيفة. ومع أن السقيفة كانت خالية تماماً، إلا أن الشرطة الأوكرانية- وبأيديها العصيّ- تقذف بنا فوراً إلى الداخل. تقدم واحد منهم بعد نصف ساعة وقرأ علينا تعليمات الشتالاك وهو يضرب سوطه المبروم على حذائه:

"واحد- سيحصل كل أسير يومياً، على خمسين جراما من الخبز. اثنان- لن يسمح بالاقتراب أكثر من خمسة أمتار من أسلاك المعسكر، وسيطلق الجنود الألمان النار من فوق الأبراج، على الأسرى الذين سيقتربون من الأسلاك. ثلاثة - لن يسمح لأحد في السقيفات، بالكلام بعد الساعة السابعة مساءً، كما سيطلق الجنود الألمان النار من الأبراج على السقائف التي يسمع الصوت فيها. أربعة - ممنوع إيقاد النار

أو تدخين السجائر في الظلام، وسيطلق الجنود الألمان النار من الأبراج على الذين لا ينقادون للأمر".

بعد هذا فتح رجال الشرطة أبواب السقائف وأدخلونا. لا أستطيع رؤية شيء مطلقا في الظلام، وبعد قليل، تعودت عيناي على الظلام بالتدريج. فرأيت السرير المغري ذا الطبقات الخشبية الثلاث. كان هناك نصف متر بين كل طبقة من السرير مع الأخرى. وبين الطابق الثالث وبين سقف السقيفة فراغ نصف متر أيضا. ولم تكن هناك نوافذ ولم يكن الضوء يدخل إلى السقيفة إلا من الفتحات الموجودة بين الخشب أو بين الفراغات الخشبية.

الطبقات السفلى من الأسرّة محجوزة. صعدت أنا إلى الدور الثالث وبعد ساعتين جاءت مجموعة ثانية من الأسرى. وعند ذلك أصبحت السقيفة مزدحمة بشكل جعل الكثير من الأسرى يقفون على أقدامهم بجانب الأبواب حتى الصباح. وجدوا لهؤلاء، في اليوم التالي مكانا ليستقروا فيه رويداً رويداً، أفقت.. ومن أحاديثهم فهمت أننا الآن في ميدان ضرب الطوب وتجفيفه وهي أماكن تابعة لمصنع الطوب القديم في (أومان). الحفرة التي نمنا فيها الليلة الماضية، كانت نتيجة لحفرها قبل الحرب من التراب المستخدم في صنع طوب البناء.

يقوم الألمان بإيداع الأسرى القادمين إلى معسكر أومان في هذه الحفرة أولاً، ثم بعد ذلك يوزعونهم على السقائف المختلفة مجموعات مجموعات حسب الموقف الصحي لكل أسير. وأسعد هؤلاء الأسرى هم الذين في السقيفتين رقم اثنين وهما تواجه كل واحدة الأخرى ، ذلك لأن الألمان يأخذون من هاتين السقيفتين للخدمة يومياً فيشغلونهم في رصف الطرق على حافة المدينة. وتلقي عليهم النسوة الأوكرانيات الخبز والسجائر أثناء توجههم لأعمال الرصف.

ثم نبدأ نفس أيامنا المظلمة الكدرة المتشابهة. أحس بالوحدة بقدر ما أحس بالجوع. وأحس باليأس مع الوحدة. ليس في السقائف أحد يفهم لغتي وليس فيهم من ينتمي إلى ديني. وكان علي أن أتعود -مع الوقت- على الجوع و على الوحدة.كنت أنام بالساعات على ظهري، أنظر من بين الأخشاب إلى السحب الرصاصية وإلى وجه السماء الذي لا لون له. أعدموا ذات ليلة شخصين كانا من كبار السن. لدى الشيوخ غالبا شجاعة تفوق ما لدى الشبان.

من السهل التحدث عن الموت بحبل في الرقبة والأقدام مرفوعة من الأرض..إلاَّ أني فكرت في الموت طويلا وأنا أنظر من بين فتحات الخشب. إنني لو اقتربت أكثر من خمسة أمتار من الأسلاك الشائكة.. فماذا سيحدث؟ في دقائق، رصاصة ألمانية. ارتعشتُ. ولم أعد أفكر في الموت مرة أخرى.

دهمنا الشتاء مبكراً، وعلى حين غرة؛ فذات ليلة جاء برد شديد، الجليد الذي بدأ في هطوله في الصباح التالي، تساقط نتفاً نتفاً طوال اليوم، أرقد وركبتاي تحت ذقني وأصابع ساقي كانت باردة جدا. والبرد القارس من جانب، والقمل المزعج من جانب، لا يتركون فرصة للإنسان أن تطرف عيناه. لقد كثر القمل جداً إلى درجة كان الأسرى الذين يرقدون في الأدوار العليا، يأخذون القمل من على أقفيتهم ملء الأكف، ويلقون بها على الأرض. وفي كل يوم: موت، وفي كل يوم مشاجرات. الأيام مرعبة وكل يوم أكثر رعباً من الآخر! وعلى أتفه الأسباب يلتحم الأسرى في معارك رهيبة فيما بينهم.

وقبيل مساء، انفجرت صيحة في الظلام:

- ...هذا اليهودي.

وكان هذا الصوت رهيباً جدا للدرجة التي قام كل من في السقيفة واقفاً على قدميه. وقبل أن أفهم مرة أخرى ماذا هناك، إذا بي أسمع صوتاً آخر يقول:

- اضرب! اضرب ابن البغي هذا. اضرب اليهودي.

وسريعاً ما تجمع في الأسفل زحام. الأسرى في الطبقات العالية يصيحون بلا انقطاع ويصدرون أوامرهم للذين في الأسفل.

- اقتلوا اليهودي! اذبحوه! اقتلوه! الحرية لروسيا. اليهود دائما هم السبب في كل ما نعانيه! اقتلوا هذا اليهودي.

وهذا اليهودي هل كان يهودياً حقاً؟ لا أدري. والناس المسعورون المتوحشون الذين في الأسفل يكيلون الركلات. ويقذفون السباب الذي ما له من نهاية لهذا اليهودي وتسمع أحيانا صوتا رقيقا يتوسل إلى جلاديه، ويقول:

- من فضلكم..من فضلكم!! أنا مريض..رقوا لحالي!

لكن القرار قد صدر.

- اقتلوا القذر!

- اقتلوا اليهودي!

سحقوا اليهودي تحت الأقدام مقدار نصف ساعة، ثم ألقي خارجاً بعد أن رفسوه بالأقدام. ومرة أخرى ساد الصمت السقيفة. ولم نكن نسمع غير أنَّات عميقة وسعال مخنوق، وفي صباح اليوم التالي وجدوا اليهودي خارج المعسكر، ركبتاه في صدره، وقد تجمد. مسكين! هل مات من الركل بالأقدام الذي حدث له بالأمس أم أنه تجمد من البرد. لا أدري. جروا بجثته إلى مكان بوسط الميدان، بقي هناك يومين وليلتين. وكان في داخل الجليد مثله مثل الجذع. واختفي في اليوم الثالث.

ينام المرضى في زاوية من زوايا السقيفة. لا أدري كيف يعيش هؤلاء الناس خلف الضباب والدخان، وفيم يفكرون؟ دائماً صامتون، وقد ركزوا نظرات أعينهم

المتسعة، على نقطة ما، وكأن كل كوارث الدنيا قد تجمعت في أعينهم. لا يفتحون أفواههم ولا يتحركون. لا تخرج منهم، ولو أنهم لا يفتحون أفواههم ولا يتحركون. أحياناً يخرجون أيديهم من بين أفخاذهم التي صارت كالعصي، وينقلونها إلى أفواههم، ويقرضون، ولعدة ساعات، شيئاً، إما قطعة خشب أو عصا أو ربما أيضا قطعة صغيرة من حجر. إنهم أناس عالم آخر، ويعيشون بطريقة أخرى. ومع ذلك فالحياة لا تتركهم في حالهم يرتاحون، إنما تسحقهم. ذلك أن الموت الذي يتسلل كل ليلة إلى السقيفة، يعوي من بين الأخشاب.

يصارع بعض الناس بعضا، بجوار الموتى، وكأنهم ضباع جائعة. يأخذون ما يجدون على الموتى وعلى رؤوسهم، يسرقونه فيعرونهم، والموتى لا يشعرون بالبرد، لأن سيقانهم لا تبرد مثل سيقاننا. هذه الأجساد لم تعد تصلح لعمل شيء! حتى أن القمل يهرب من على أقفيتهم السوداء وشعرهم القذر.

يحدث أحيانا أن يشعروا بأن مريضا سيموت. فيتجمعون حوله قبل عدة ساعات ينتظرون، مثله، بصبر، يتطلعون إلى عيني المريض يترقبون لحظة موته، بل إن هناك من يتصارعون بجوار هذا المريض المشرف على الموت، يتصارعون من أجل الحصول على ثيابه بعد أن يموت.

الشتاء أيضاً ظالم، كالألمان، يلوح أحيانا أن الرياح ستنقطع، لكن البرد مستمر، ولا ينتهي. في ذلك الوقت أجد القمل أكثر إزعاجاً من البرد. أحياناً ألف الأوراق على قدمي وعلى جسدي. إلا أني أشعر بحركة القمل بين الورق وبين جلدي. والقمل أكثر إيذاء من البرد. وأخيرا أخبئ الورق في الكيس الذي معي. أستجمع نفسي وأخبئ ركبتي تحت لحيتي. أرتعش. أحاول النوم. لكني لا أستطيعه. قدماي كأنهما عنقودا ثلج. لا أستطيع النوم. استيقظت. إني راض بالرعشة التي تتولاني. لكن أتمنى أن يغشاني النوم ولو ساعة واحدة. أرضى بالموت إذا استطعت

النوم...فقط، أريد أن أنام أبحث عن طريقة أنوّم بها نفسي. أوقظ في مخيلتي مدفأة تحرق ما فيها بصوت مرتفع وأقول لنفسي:

- يا صادق، أنت بجوار هذه المدفأة، أنت لا تبرد. أنت بجوار المدفأة. والبرد لا يصيب من بجوار المدفأة.

يبدو وكأن ما ألقنه لنفسي قد أثر ولو قليلا. أستمر:

- يا صادق، على ظهرك قطعة فرو. البرد لا يصيبك. نم.

نم.. أنت بجوار المدفأة أنت لا تنام. على ظهرك فرو. اسحب الفرو على رأسك. ونم.

يبدو لي مصطفى أمام عيني. يجلس مصطفى في السقيفة رقم (٢) وبجوار المدفأة أجلس أنا أيضا بجوار مصطفى. يمد إلي يده بالخبز. هل هي رؤيا تلك التي أراها؟ لا.. ليست رؤيا..أنام..ألتفت إلى يميني. أين مصطفى؟ كل جسدي كالجليد..لا أستطيع النوم. ليس على ظهري غير قميص ممزق مقمل. لماذا أخدع نفسي؟ أريد أن أخلع قميصي وألف به قدمي. إذا لففت قدمي سيبقى ظهري عاريا. أفكر في مصطفى مرة أخرى. أين تراه؟ هل مات؟ هل ما زال حياً؟ ربما هو الآن في إحدى السقائف يفكر فيّ. لأنني أفكر فيه. لابد أن يكون حياً إذا لم يكونوا قتلوه. كان أقوى مني جسدا. ربما أخذه الألمان ووضعوه في السقيفة رقم (٢) فقد كان أقوى مني جسدا ومادمت أنا قد استطعت تحمل الجوع حتى الآن، فلا بد أنه هو أيضاً حي..في السقيفة رقم (٢) لماذا لم أكن أنا في السقيفة رقم (٢)؟ متى سأتخلص من جهنم هذه؟ أنَّات عميقة تأتي إلينا من الزاوية التي ينام فيها المرضى. آه من هذا الأنين؟ إذا لم أستطع غداً الصعود إلى الطابق الثالث، والخمسون جراما من الخبز في يدي، فسأذهب وأنام في تلك الزاوية. يا ربي لا تمتني بهذا الشكل! تعوي الرياح في الخارج. يبدو أن النوم ألمّ بي يبدو أنني نمت استيقظت. توقفت الرياح. كان هناك صمت عميق في السقيفة. يصبح الصباح.. أخذت الرياح الأخشاب التي فوق رأسي،

ففتحت بذلك فتحة كبيرة واضحة. عندما وقفت على قدمي وجدت رأسي خارج السقيفة. كل مكان في الخارج أبيض شديد البياض. أرى آثار أقدام في الطريق الذي يقطع السقيفة. من ذا الذي يتجول في المعسكر مبكراً هكذا؟ إما شرطي أو طبّاخ. دخان أسود يتلوى من أنبوبة المدفأة التي تخرج من خشب لصق السقيفة رقم (٢) وتسقط من على أسطح السقيفة على الطريق الأبيض. ما زال الوقت مبكراً. الجو ساكن. لا أحد يراني. رأسي خارج سطح السقيفة. لم أنظر في أي وقت قط من أوقات الأسر. من قريب إلى هذا الحد، إلى الحرية. أفكر قائلا: "ماذا لو أهرب" يداي ترتعشان وركبتاي. يبدو الارتعاش وكأنه لن يتوقف. السقيفة رقم (٢) قريبة..كل جسدي يريد الخروج مثل رأسي إلى خارج السقيفة.

- لو أهرب!

صوت من داخلي، صوت شبيه بصوتي، يجيب:

- هرب!

- لو رأوني!

- لا أحد يرى! اهرب!

- وإذا قبضوا عليّ!

- الفرصة سانحة، اهرب.

- إلى أين؟

- إلى السقيفة رقم (٢)..فلعلك تجد مصطفى هناك.

- مازال الوقت مبكراً. الجنود الألمان ليسوا موجودين، داخل المعسكر. أمام كل باب سقيفة، يقف شرطي أوكراني. إنك تعرف لغتهم.. تتوسل إلهم وتستعطفهم. اِبك أمامهم قل له إن أخي في السقيفة. يفهم. ولم لا يفهم؟ تقول له

إنك طباخ. تؤلف أكذوبة لا بد من وجود حل. ماذا هناك في هذه السقيفة غير الموت؟ اهرب! .

أنا في سقف السقيفة. اتخذت قراري. ولم يعد هناك تراجع. أقفز من السقف إلى الطريق. يقف شرطي أمام السقيفة رقم (٥) . ترى هل رآني؟ أقيم ظهري وأتقدم. بلغ قلبي حلقومي وأنا أمر من جانب الشرطي. لكنه لا يتكلم. أمر من جانبه، وأسير. أفرح لأن الشرطي لم يتكلم. حتى قدماي لا ترتعشان. أمام كل سقيفة، جندي. لكن لا أحد منهم يهتم بي. يبدو أنهم يظنون أني طباخ أو واحد من الوحدة الطبية. والآن. أقترب من السقيفة رقم (٢) يبدأ الارتعاش في تملكي. شرطي أمام الباب. ياقة المعطف الثقيل الذي يرتديه، مرفوعة، وأذنا غطاء رأسه مربوطتان جيدا تحت ذقنه. في يده عصاه، وفي شفتيه سيجارة.

أقفز في المكان الذي هو به. ينظر إلي. كنت في خوف عندما اقتربت منه، وأي خوف. ماذا لو أرجع إلى السقيفة رقم (٥)؟ لا، لا .. فإذا فهم رجال الشرطة أنني هربت من الفتحة سيقتلونني ضربا..أتقدم. ماذا يجب علي أن أقول؟ لابد من إيجاد كذبة. الشرطي يرى أنني أتجه إليه. ينظر إلي وهو يركز نظراته علي. ماذا يجب أن أقول؟ إني خائف.

أنظر إلى الميدان وإلى أمام السقيفة رقم (٢) المحاطة بالأسلاك الشائكة لا أستطيع رؤية آثار أقدام. يأتيني طنين من داخل السقيفة أشبه بطنين خلية النحل. أقترب أنا من الشرطي، أبحث عن آثار رحمة قد تتجلى في عينيه. وجهه الأحمر- من غير شعر ظاهر- يبدو مثل وجه الدمية. يخرج من فتحتي أنفه بخاراً يختلط بدخان السيجارة. وأنا أنظر بصمت إلى وجهه. وأبتسم كالأبله وفجأة يتفل السيجارة الموجودة بين شفتيه، يتفلها أرضاً ويقترب مني:

- تيء قودىء كالوبجيك؟

أسكت..كلمة كالوبجيك أعطتني الأمل. ماذا يجب أن أقول؟ أأقول كذباً؟ لا. إنه يبدو إنسانا طيباً، إنه هو أيضا يحمل قلباً. يذهمني. أتوسل إليه وأقول:

- أنا..أنا..من السقيفة رقم (٥)، وأخي الكبير في هذه السقيفة..من فضلك، من فضلك أيها الشرطي المحترم.

لا يجيب، يضحك بطريقة قبيحة. لكني أريد أن أنكفئ على قدميه وأتوسل إليه أكثر. الشرطي يخرج إلى الطريق، وينادي:

- أيودي صومنوي كالوبجيك، بريدي.

فأذهب إليه هو في المقدمة وأنا خلفه ونتجه نحو أبواب الشتالاك. إلى أين يأخذني؟ لا أدري، حتى التفكير لا يشغلني. أسير خلفه وأنا أجر قدمي المربوطتين بقطع القماش. نقترب من أبواب المعسكر الكبيرة المحاطة بالأسلاك الشائكة. يقف الديدبان الألماني المسلح، أمام الباب، مرفوع القامة، يذهب الشرطي إلى الجندي ويقول له بعض الأشياء، يشرح له أمراً، مستخدما في حديثه إشارات يده. ثم يستدعيني بجانبه. يفتح الجندي الديدبان، الأبواب، ويتركنا نخرج. خرجنا الآن من الشتالاك ننحرف إلى اليمين. نتجه إلى منزل صغير خشبي واطئ مربع الشكل. إلى أين يسوقني هذا؟ ليذهب بي أينما يذهب، فلن يجد مكانا يذهب بي إليه أكثر من السقيفة رقم خمسة. ليس هنا من صوت قط. وكلما اقتربنا من المنزل الصغير أشعر بالخوف. نحن الآن أمام هذا المنزل الصغير. أدعو الله من أعماقي قائلا: اللهم امنحني أنا عبدك الضعيف: القوة والشجاعة.

ندخل غرفة مربعة. ستة سرائر مغطاة ببطاطين سوداء، أمام جدرانين. في الوسط مدفأة. ومنضدة طويلة، قريبة من النافذة. وعلى المنضدة يجلس خمسة جنود يلعبون أوراق النرد الكوتشينة وبينهم واحد يرتدي البذلة العسكرية الألمانية وظهره متجه لي. يذهب الشرطي الذي أحضرني، إلى هذا الشخص، وأنا

واقف على قدمي، بجوار الباب. صوب رجال الشرطة الأوكرانية الذين يجلسون على المنضدة نظراتهم جميعا ومرة واحدة نحوي وكأنهم إنسان واحد. وبينما يتحدث الشرطي إلى الرجل ذي البزة الرسمية، يقول واحد منهم لي:

- هيا استعد يا فديا فالجاويش سيكلفك بعمل.

يضحك الجميع مرة واحدة لماذا؟ لا أعرف بعد. ثم يقف واحد منهم ويتجه نحوي. إنه شاب في التاسعة عشرة من عمره أو العشرين. وجهه يذكر بفتيات القرية. كم كان جميلا. عيناه خضراوان تحيطهما هالة تميل إلى الحمرة. ينظر كالثعبان. يلتفت الشرطي الشاب إلى الرجل ذي البزة الرسمية ويسأله:

-كم مرة يا هرفيلد فيبل؟

فيقول له:

- هل يتحمل خمساً وعشرين؟

يمسك الشرطي الشاب بلحم أرداني، ويضغط عليها، ويقول:

- إنه يتحمل. إنها مليئة باللحم.

لم أفهم بعد، معنى هذا. أنظر إلى الشرطي الذي أتي بي إلى هنا بنظرات ولد ينظر إلى والده عساه أن ينقذني. ينهض رجال الشرطة الذين على المائدة ويتجهون ببطء إلى أسرتهم: يجلس الرجل الذي يرتدي الملابس الرسمية صامتا، ساكنا، وبعد قليل يدير رقبته النحيلة الطويلة التي تخرج من ياقته البيضاء كأنها

رقبة ضفدعة. وعندما ينظر إلى وجهي. أحس في قلبي بكل المعاني الرهيبة التي تشعها عيناه، فأرتعش. ينطلق فجأة من مكانه. وفي عدة ثوان، يُخرج من شفتيه المزبدتين صياحاً وأصواتاً مختلفة لا أدري كنهها. الشرطي الشاب يركلنني بقدمه عدة ركلات فيدفعني إلى ناحية المائدة. والألماني ينبح بلا توقف كأنه كلب مسعور. وصلت عيناه وكل وجهه إلى درجة مخيفة جعلتني أفكر قائلاً: "إن رغبتي في التنقل من سقيفة إلى سقيفة أخرى شيء صغير". لكن يبدو أنني ولا بد قد ارتكبت جرما عظيما أكبر مما فعلت. يغضب الألماني فجأة ويسكت فجأة. يذهب ويجلس على حافة سرير. يشعل سيجارة. بينما يتناول الشرطي الشاب، عصا حديدية من على المائدة. يركلني مرة أخرى في ظهري ويصيح قائلا:

- اخلع بنطلونك يا خنزير!

وفي لحظة أحس كأنني أخاف. لكني وسريعا أحس بقوة في يدي وفي ساقي لا أدري من أين جاءتني. لن أطلب الصفح. فليذبحني وليقتلني.، وليفعل بي ما يحلو له، لكني لن أتوسل إليه. ومع كل أمر يصدره لي الشرطي الشاب كان يوجه لي لكمة أو ركلة.

- اقترب من المنضدة!

أرتعش. لكني ما زلت أحس بتلك القوة، أحسها في قدمي، أنزل بنطالي حتى ركبتي وأتمدد على وجهي على المنضدة. أضغط على طرف المنضدة حتى أكاد أنزعها أو هكذا أتصور. إني أخاف، لكني لا أخاف من الضرب ولا من الموت، لكني أخاف أن أموت بين هؤلاء الناس. أريد بعد هذا الضرب المبرح أن أعود إلى السقيفة رقم خمسة. وأسلم الروح بين المرضى، فالموت بينهم سهل. ويخيل إلي أنه سيكون مريحا. عيناي مغلقتان أرى الذين ينازعون الموت في زاوية السقيفة رقم خمسة. أريد أن أختلط بهم وأن أموت معهم إنهم عباد الله السعداء..لماذا لست بينهم؟ أريد أن يبدأ الشرطي ضربه وعقابه. أريد سرعة تنفيذ هذا العقاب البدني.

وفجأة، أسمع صوتا، واحتراقا في لحمي، شيء كالنار.

- واحد.

إنه يعد مع كل ضربة، بصوت منتزع من قلب ظالم.

- ثلاثة...خمسة...ستة...

أما أنا فأدعو اللّه في نفسي قائلا:

- يا ربي! يا ربي! يا ربي! أعطني الشجاعة.

أضغط على حافة المنضدة ويداي كالكماشة. ولا أدري إلى أي عدد وصل في عده وأخيرا صاح قائلاً:

- انهض!

سابت يداي وانهرت على الأرض وتكومت عليها.

أثناء انهياري من على المنضدة أمسكت بساقها لكي أقيم ظهري. فإذا بي أشعر وكأن برقا قد برق بين عيني. يبدو أنني أغشيت لفترة ما. ومن خلف ستارة من الضباب كنت أرى عيني الخائن تقدحان شررا. تناهى إلى سمعي صوت من رجال الشرطة الذين يجلسون على الأسرة، وهو يقول:

- دافولنو فديا! اوبيوش..اوبيوش..

نهض الألماني على قدميه وهو يقول أشياء لرجال الشرطة، فأجابوه جميعا في نفس واحد. قام الجاويش، نظر إلى حزامه وبه مسدس وكان معلقا على الشماعة ثم أخذه، لبسه، وخرج. أمرني رجال الشرطة بأن أتبع الجاويش. خرجت من الغرفة وأنا أرتعش. الألماني في المقدمة وأنا خلفه. سرنا في شارع ضيق أزيل الجليد منه. الألماني لا يتنفس بكلمة، ولا يبالي بي. سألت نفسي قائلا: ترى هل نسي أنني أسير

خلفه؟ أسقط بين الحين والحين على ركبتي فأنهار على الأرض وأنا ممسك ببنطالي حتى لا يلامس جروحي، وأتقدم كالكلب في أثر الألماني. لم أكن أعلم إلى أين نسير. كان واضحا أننا لسنا متجهين إلى المعسكر. لقد أصبح الشتالاك بعيدا بدرجة واضحة. كنا نتقدم من حافة الحفرة الهائلة. كنت أظن أن الألماني سيقتلني عند الحفرة. كان هذا الشعور يتولاني كلما وضع يده إلى الخلف وأمسك بمسدسه. لكنني أيضا لم أكن خائفا لقد كنت أرى الموت حقيراً حقيراً حتى إنني لم أفكر في كيفية موتي.

تركنا الآن الحفرة إلى يسارنا، ونتقدم إلى مبنى سليم. هنا مقر القادة الشتالاك الألمان: الجنود الشبان، يذهبون ويجيئون أمام المبنى. أبدأ في التخوف. أيأخذونك إلى القيادة؟ نسير من جوار الجنود. أسمع قهقهاتهم خلفي. أصوات طلقات بنادق تأتي من خلف المبنى. أللموت يأخذني هذا الألماني؟ لا. إننا ننعطف إلى الشمال ونتقدم إلى مبنى آخر ذي منظر منتظم. ما زالت أصوات البنادق تصدر من خلف مبنى القيادة لكني أحس عندما نقترب من المبنى الآخر أنني أتخلص من الموت.. مبنى عال مربع، إسمنتي، فخم. والهدوء يلفه. هدوء يشغل قلب الإنسان. هذا المبنى بلا نوافذ ولا مدخنة لكنه بسقف، وله باب حديدي ضخم. يبدو أنه بني لسكن الإنسان. أخاف من الدخول فيه لكننا لم ندخله، الألماني يسير بجانب المبنى. يقف لحظة ثم ينزل من السلم الحجري المؤدي إلى طابق المبنى الأرضي، أنظر إلى الألماني وكأني طفل يتيم. أما هو فدائما خشن، دائما فظيع. نسمع صرير الباب الحديدي. أنهار على الأرض تحت شيء ثقيل سقط على قفاي وعندما أفقت وفتحت عيني وجدت نفسي في سجن. انتظرت وأنا أحدث نفسي قائلا: لعل الألماني يأتي ويفتح باب السجن. مرت الساعات الطوال ولا أحد يأتي. أخذت رأسي بين كفي ورحت أفكر في السجن ونقط الماء الساقطة من سقفه، والرطوبة. أقول لنفسي.. هذه هي النهاية فلم يعد خلاص من هذا المكان، وفي لحظة إذا بأمي تتمثل أمام عيني وهي تلبس رداءها الطويل الممتد من تحت فكها إلى كعب ساقيها وتحمل سيفاً في

يدها. ثم إذا برد‌ائها ووجهها أيضا يتحولان إلى اللون الأبيض الساطع البياض، ثم تختفي رويداً رويداً من أمامي. أهي رؤيا التي رأيتها؟ لا أدري. وبعد هذا لم أفكر لا في أمي ولا في وطني ولا في مصطفى. لقد تحكم البرد والجوع في كل كياني وأثر في نخاعي ومخي. كنت أرى مدفأة تحترق بصوت مسموع وعلى المدفأة إبريق وكنت أسمع صوت الماء المغلي في الإبريق، ويستمر هذا ساعات وكنت في أوقات مثل هذه الأوقات، لا أريد أن يأتي أحد ناحيتي ولا أن يزعجني. أي قوة خفية تلك التي كانت تقيمني تلك الأيام في ذلك السجن؟ ما هي؟ أكان هناك بالفعل مدفأة وعليها إبريق ماء يغلي؟..كم يوماً مكثتها في السجن لا أعلم. وفي يوم من الأيام سمعت صرير الباب، انفتح. وإذا بي أرى أمامي، الألماني الفظيع. صب من بين أسنانه صوتاً يشبه الصوت الذي يخرج من حديد مبرود:

- هيرا-را-وس!

اعتدلت، فكرر قوله:

-هيراوس!

أإلى الحياة؟ أإلى الموت؟ وإلى الباب. وصعدت السلم الحجري. هو في المقدمة وأنا في المؤخرة.كنا نتجه نحو المعسكر. لا أستطيع أن أتذكر كيف وأين تركني الجاويش الألماني. وجدت نفسي في السقيفة رقم خمسة، وفي زاوية المرضى، وسريعاً رقدت. عشر ساعات تلك التي مرت علي أم أيام لم أكن أدري. وذات يوم جاء إلى السقيفة عدة أشخاص وأخذوا يتجولون فترة بين المرضى. ثم وقفوا بجانبي. أيقظوني ووضعوني على نقالة. أحدهم انحنى فوقي وقال لي شيئاً في أذني. ولم أفهم ما قاله. لكني أيضا لم أعترض. أخرجوني من السقيفة على نقالة. لا أدري إلى أين حملوني ولا أدري شيئا عن الزمن بعد ذلك. أفقت فوجدت نفسي في غرفة دافئة. سريرها عليه بطانية وللغرفة نافذة. وفي الغرفة مدفأة. ظننت أنني أحلم عندما فتحت عيني ورأيت هذا. ما زالت جدران السجن خلف ستارة ضبابية

ومازالت نقط الماء تسقط من سقف غرفة السجن وأسمع صوتها. وفجأة دخل أحدهم إلى الداخل بعد أن انفتح الباب، وصاح بي قائلاً:

- يا ولد، إني أبحث عنك في السقائف منذ يومين.

وعندما اقترب بجواري، سألني بصوت أكثر انخفاضا:

- ماذا فعلت؟ أي حال هذا الذي ألم بك؟

نظر إلى وجهي بدقة. إني رأيت هذا الوجه وهذين العينين في مكان ما. ولكن أين؟ يواصل كلامه:

- أخبرني أحد رجال الشرطة بأن الألماني حبسك. أعلم أنك قاسيت من التعذيب كثيراً. لكن لا عليك. لقد أنقذت نفسك.

أخذ "بقجة" من على الرف، وهي كيس به ملابس وألقاها على السرير وقال:

- اخلع ملابسك. والبس هذه الملابس. لا تقلق. واضح أنك لم تعرفني بعد. أنا الأرمني الذي تحدث معك صباحاً عند خروجنا من الحفرة، والآن هل تذكرت؟ اشرب الشاي وكل الخبز، ابق معي يومين أو ثلاثة أيام، سأجعلك تقف على قدميك. ثم - وفق ذلك - سأعطي لك عملاً. تعمل وبذلك تنقذ نفسك. أيمكن أن أرجو لك الموت وأنت قرمي؟ قلت مشتبهاً في حديثه:

- كيف هو العمل؟

- لا تشغل بالك. فأنا طبيب لكن طبابتي هنا تقتصر على المرور على كل سقيفة وأفرز الموتى بين المرضى، تأخذ أنت الموتى وتحملهم إلى الحفرة. وتحصل في مقابل هذا العمل على خمسين جراماً من الخبز. وحصتك أنت خمسين جراماً. يعني المجموع مائة جرام. هل هذا سيء؟

- أشعل سيجارة وخرج، وبقيت بمفردي في الغرفة. فكرت في الأرمني طويلاً. كنت أريد أن يتكلم معي مدة أطول وأن يتحدث معي عن القرم. لكنه لم يتكلم. وذات مساء، وقبل أن يشد بطانيته على رأسه قال:

- غداً صباحاً، ستقوم الشرطة بحمل عشرة أسرى خارج المعسكر إلى المستشفى فاذهب أنت أيضا معهم. في المستشفى أمراض كثيرة. تيفوس. وسل ودوزنتاريا. الناس يموتون كأنهم البعوض، والعمل هناك كثير.

أردت أن أسأله بعض الأسئلة، إلا أنه سحب بطانيته فوق رأسه ونام. وفي اليوم التالي وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى المستشفى. مبنى مربع من طابقين، كان في الأصل مدرسة وهو الآن محاط بالأسلاك الشائكة. في فنائه، تتناثر نقالات ملطخة بالدماء وقف الشرطي الذي أتى بنا إلى المستشفى. وقف بجانب الباب وصاح قائلاً:

- هيا يا أبطال! إلى النقالات. سأعطي كل واحد منكم مائة جرام خبز، هذا المساء، وكذلك الحساء، هيا إلى النقالات.. هيا إلى النقالات.

وأبطالنا هؤلاء فرحوا واشتد سرورهم إلى حد لا يتصور. ينقلون الموتى من أبواب المستشفى على النقالات. الموتى كلهم تقريبا حفاة. وبلا قمصان. أفواههم مفتوحة تتدلى أيديهم الصفراء من على أطراف رسوغهم، تتدلى من النقالات. يخرج هؤلاء الحمالون بهدوء من الأبواب نحو أطراف غابة قريبة من المستشفى وبهدوء، تدخل إلى الداخل، يقوم أسير من الوحدة الطبية يرينا الطريق، تصدر من الغرفة أنات المرضى، مؤلمة. نفتح أحد الأبواب، غرفة مربعة شديدة البرودة فيها حوالي ثمانية أو عشرة أشخاص موتى..وأسير من الوحدة الطبية يأمرنا:

- هيا، بسرعة! نظفوا هؤلاء وعودوا سراعاً.

وفي أطراف الغابة حُفرٌ عميقة حُفِرت حديثاً، وهناك بعيداً عنا، فرقة من الأسرى مشغولة بحفر الحفر، نرمي الموتى في الحفرة كأننا نطرح قطعا من الخشب أو

الحطب. ثم نعود إلى المستشفى. لا أحد يتكلم. والسماء، منخفضة ولا لون لها. وكأن الأرض والسماء يقيمان نفس المأتم. الدنيا صامتة، صماء، مع من تسير الحياة؟ أمع الموتى أم مع الذين يحملون الموتى إلى القبور؟

نمنا في تلك الليلة في سقيفة صغيرة في حوش المستشفى، وفي اليوم التالي قمنا أيضا بنقل الموتى إلى حفر القبور. واستمر ذلك حتى المساء. وعند المساء قال لنا رجال الشرطة:

- إن الموتى يقلون عدداً، وإن النقالين أكثر من الحاجة لذلك سيرجع أكثرنا إلى الشتالاك. بقيت أنا. وكان يبدو أن هناك ما لم أره بعد. بعد أسبوع كامل دخلنا الغرفة التي يصفون فيها الموتى.كان فيها حوالي ثمانية أو عشرة من الموتى. أكثرهم متروك على وجهه أرضاً. اثنان منهم عاريان تماما وبجوار الباب كان ميت طويل القامة، كبير الرأس، ملتح، راقد على ظهره، ولم أكن أستطيع تبين ملامحه لأن شعره الأسود الطويل قد غطى وجهه تمام. كان ذلك الميت يرقد في وضع غريب قبضتا يديه مضغوطتان، ويبدو وكأن قوة تدب في جسده الميت. كان هذا الميت يختلف كل الاختلاف عن العديد من الموتى الذين رأيتهم. لم يكن مثل أحدهم قط. أخذته بين ذراعي، وبرفق بالغ، ودون إيذاء أي موضع من جسده الميت أردت أن أرقده على النقالة.

انحنيت على ركبتي. وعندما مددت يدي إلى شعره لأكشف عن وجهه، إذا بالعرق الذي يشبه الثلج برودة، قد تجمع في جبهتي. ظهر وجه محبوب أمام عيني، واختفى وجه يشبهه. ترى أيكون هو؟ رفعت شعره فظهر وجهه. استطعت أن أقول:

- يا إلهي!

وبعد أن أفقت، قبلته من خديه اللذين صارا كالجليد، قبّلته وقبلّته، وضعت رأسي بجوار رأسه، ثم تهت أنا أيضا في ظلام عميق عميق مثل مصطفى.

- مصطفى! مصطفى! افتح عينيك يا مصطفى. لماذا لا تحرك شفتيك يا مصطفى؟!

ورفعت رأسي ببطء. كان زميلي النقَّال ينظر إليّ مشفقاً متألماً. ثم سمعنا صوت أسير من الوحدة الطبية، من خلف الباب، يقول:

- نظفوا! نظفوا! هيا، أسرعوا!

دخل نقالون آخرون إلى الغرفة. حملنا جثة مصطفى برفق على النقالة وحملنا النقالة زميلي من الأمام، وأنا من الخلف كانت السماء منخفضة متكدرة رمادية. ونتف الثلج المتساقط يبدو كأنه يربط الأرض بالسماء. لم أكن أستطيع أن أبعد عيني الدامعتين عن وجه مصطفى، والجليد كأنه النحل المتساقط على الزهرة. يتساقط على شعر مصطفى الأسود الطويل. وعلى لحيته كان كل توتر في وجهه قد راح. وبدا الحب الذي يكنه لنا، كأنه خرج من داخله وطفح على وجهه، وبالحب البادي في وجهه قد ذهب عني.. بعيدا.. بعيدا..كان يبدو سعيداً وكأنه يعرف أنه متوجه إلى عالم خليل وعثمان وجودت.

- مصطفى! مصطفى! لو أضع رأسي بجانب رأسك؟ لو أذهب معك إلى عالمك.

وإذا بصوت من داخلي يقول:

- تشجع يا صادق!

أحس أن هذا الصوت هو صوت مصطفى أكثر مما هو صوتي.

يهبط على المكان مساء ثقيل أليم. نقترب من الحفرة. أتطلع لآخر مرة إلى ابنٍ عزيزٍ من أبناء وطني.

- الوداع، يا مصطفى، الوداع..

كنت أشعر ونحن ننزله إلى الحفرة، وكأنه يسحب بيديه البيضاوين كل وجودي؛ كل روحي ونفسي.

- يا إلهي! اللهم كن في عون عبدك صادق.

القيه الآن في الحفرة. والآن. جسد مصطفى يشبه أجساد الآخرين في هذه الحفرة التي تضم عدة أجساد موتى. أخرج من جيبي تلك الرقية التي تحوي شعر عائشة العزيزة على نفسه، وكان قد أسلمها لي أمانة عندما كنا في طريق كيوفجراد أومان، وأضعها على صدره..ثم..يبتعد بعضنا عن بعض.

في صباح اليوم التالي ألقيت نظرة إلى ناحية الغابة. أهال الأسرى التراب على الحفرة التي أنزلنا فيها الأومباشي مصطفى الآق مسجدي، مساء أمس، أمطرت السماء طوال ليلة أمس، ثلجا، كل المكان يخلو من العمار..ومن الأصوات.

طلبت من الشرطي في نفس اليوم، إعادتي إلى المعسكر، وافق. فكرت كثيراً وطوال الطريق، طريق كيوفجراد - أومان، في خليل وجودت وعثمان وأنور. لم أكن أسمع أحياناً بعض أشياء كان يقولها الشرطي لي. وعندما اقتربنا من المعسكر اتضح لي فجأة: السقيفة رقم خمسة بكل بشاعتها. ولكن ماذا بيدي أن أفعله. إن المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين.

دخلنا المعسكر. نحن الآن في الطريق الواسع الذي يفصل السقائف إلى قسمين. أحشر المائة جرام من الخبز التي أخذتها في المستشفى في الكيس وأحشر الكيس تحت إبطي.

وها نحن نتقدم. أنا في الأمام، والشرطي خلفي. وقبل أن نصل إلى السقيفة رقم اثنين سار الشرطي جانبي وأمسكني من يدي، وقال:

- تعال معي.

- إلى أين؟

- إلى السقيفة رقم (٢).

لا أصدق الشرطي. ظننت أنه سيأخذني إلى الألماني، وسيجعله يضربني علقة. وفي هذه الأثناء قال الشرطي الواقف أمام السقيفة رقم (٢):

- ألا ترى رقم (٢)؟ أيها العامل المغفل.

الباب يفتح، وأدخل إلى ساحة السقيفة رقم اثنين، وبعد قليل، ألتفت لأرى الشرطي الذي أحضرني. إنه يتجه بخطى واسعة نحو أبواب المعتقل...

(٨)

روما، في ١٩٤٦/٧/٢٢

أخي صادق،

لا أعلم عنك شيئاً منذ كثير، أكتب إليك ثالث خطاباتي، وسأغضب كثيراً إذا لم ترسل لي رسالة جوابية على مكتوبي هذا. أحياناً يصيبني القلق عندما أفكر قائلاً: ترى هل ترك روما؟ هل أنت في روما؟ لماذا لا تكتب لي شيئاً، ولو سطرين؟ يبدو أن خطابي هذا سيكون آخر خطاب أكتبه إليك في معسكر اللاجئين، فقسم من اللاجئين وجد عملاً في شؤون الغابات، وقسم منهم وجد عملاً في مصانع المدينة. أنوي ترك المعسكر خلال أسبوع أو أسبوعين من الآن، كما قلت لك في خطابي قبل الماضي، أنوي تركه أنا مع اثنين روسيين زاراو - جياليين والإقامة في مزرعة. أجّرنا

نحن الثلاثة هذه المزرعة قبل شهر. من يدري منذ متى وهي لا تجد من يفلحها؟ فيها منزل لا سقف له. يبدو أنه طار وأصبح كومة من الأحجار. هذه المزرعة الجافة يبدو أنها استوت تحت الشمس الحارقة منذ أعوام، لذا فلا بد أننا لا نتوقع حياة مريحة. عندما أنظر إلى هذه الأرض الفقيرة، أفكر في أرضنا. يخيل إلي أن بساتيننا وحدائقنا ومياهنا ومراعينا، جنة من الجنان، لكن الخيال لا يشبع بطناً. مأساتنا عظيمة، أعرف هذا، ولا بد من رؤية الحياة، واستقبالها بلا خوف، أليس كذلك يا صادق؟ فكرنا كثيرا واتخذنا القرار بعد أسبوعين، وبعون الله، سنشمر عن سواعدنا ونبدأ العمل في تلك المزرعة. إن صعوبات جمة تنتظرنا ومع ذلك سنكون في سعادة الأطفال. سنبدأ أولاً في

ترميم جدران المنزل وعمل سقفه. وعندما نستقر في المنزل سننظف الأحجار والأرض المحيطة به. وفي الأسبوع الثاني سنشتغل في أرض الرجل الذي أجرنا منه هذه. وبالنقود التي سنكسبها سنشتري ما يلزم من حيوان. هكذا خططنا. وإذا سارت الأمور كما تصورنا فسيكون لي منزل أبيض داخل حديقة جميلة، منزل يناظر منزلي في القرم الذي لا يفارق خيالي. في رسائلي التالية سأتحدث إليك حديثاً أكثر تفصيلاً عن محاولتنا هذه.

كيف حالك؟ وكيف حال الإخوة في ألمانيا؟ ترى هل مازالوا حتى الآن في معسكرات اللاجئين؟ لن أنسى أبداً ذلك المعسكر الذي في تيرول بجبال الألب. كم كانت الأيام سيئة، أما زال هؤلاء المساكين يعيشون في خوف حتى الآن؟ لم أقل لك ونحن في روما عن هذا. لذا أكتب الآن لك.

كان ذلك في اليوم العاشر من شهر مايو ١٩٤٥، في ذلك الصباح، في طريق قريب من حدود سويسرا قام الأميركيون بشحننا في سيارات نقل امتلأت بنا ونقلونا إلى المعسكر وعندما رأينا الأعلام الحمراء المتماوجة على أبواب المعسكر أحسست وكأن لكمة سددت إلى حلقي. سمعنا في الطريق أشياء سيئة عن الأمريكان

لكننا لم نصدق. أما الآن، فإننا نرى الأعلام البلشفية تموج على الأبواب جنباً إلى جنب مع الأعلام الأمريكية. نعم، خفنا لكن خوفنا هذا لم يكن يفهمه الأمريكان.كانوا يقولون إن الأوامر تقضي بذهابكم إلى المعسكر. ودخلنا المعسكر. تقدمنا بين الأعلام ووصلنا إلى ميدان. تجمع جمع كبير في وسط الميدان. قام زنجيان أميركيان بإحضار منضدة ووضعاها على الأرض بالقرب من الزحام. يبدو وكأن شيئًا سيحدث ولكن ما هو؟ لا أحد يعرف. بعد قليل صعد على المنضدة ضابط أمريكي

شاب وألقى خطبة ثم نزل ثم صعد بعده على المنضدة ضابط روسي عريض المنكبين يلبس بذلة رسمية مطرزة. ثم بعض أصوات أغلبها أصوات نساء، تأتي من هنا وهناك. بدأ الضابط حديثه، وكأنه لم يسمع شيئًا، قال:

- أيها الأصدقاء.

فصاح به شخص من بين الزحام قائلاً:

- لكني لست صديقك أيها الديوث!

صاح به آخرون، قالوا له وهو على المنضدة:

- قل: أيها السادة!

واستمر الضابط بنفس رباطة الجأش، وبنفس الصوت:

- أيها الأصدقاء! إن الوطن السوفييتي الجميل، ينتظركم. آباؤنا أمهاتنا وأولادنا وبلادنا في انتظاركم.

- وسيبيريا أيضًا!!

واشترك مع هذا الصوت أصوات أخرى:

- سيبيريا!

- سيبيريا!

- سالاوكي!

- المخابرات الروسية!

حدة المستمعين آخذة في الازدياد.

كانت كلمتا "سيبيريا" و "سالاوكي" تخرجان من مئات الأفواه. كانت هناك لكمات في الهواء بقدر عدد الموجودين في الميدان، موجهة نحو الضابط وأنا أيضاً كنت أصيح مع كل الموجودين. يعني أن كل الناس أعداء الروس. أشعر بالسرور الآن بقدر خوفي عند رؤيتي للأعلام. أشار واحد من المتصايحين بجواري إلى الأعلام الحمراء التي ترفرف على الأبواب، وقال:

- أنزلوا هذه الأعلام!

- مزقوها.

- اقذفوا بها أرضاً.

وهجمنا على الأعلام. كانت هناك آلاف من البشر يتبعوننا وكأنهم نهر قد فاض أما نحن فقد وصلنا إلى الأعلام متسلقين وأنزلناها ومزقناها بل ودسناها تحت أقدامنا ولقد بلغ بي الحماس مبلغاً عظيماً حتى إنني كنت أصيح بأعلى صوتي قائلاً:

- لتحيى الحرية! لتحيى الحرية!

وبعد قليل هدأت موجة الغضب. كان البشر ذوو الوجوه الأشد خشونة يعودون إلى السقائف وهم يكثرون من البصق على الأرض. قال أحدهم وهو يقترب مني، وكان متوسط الطول، سميناً نوعاً ما، أشقر اللون، يرتدي قبعة وجاكت من الجلد:

- لقد ميزتك من بعيد وأنت على ذلك الباب:

- إنه لعمل طيب.أنزلنا الأعلام ومزقناها.

- سأسلخ جلدك ذات يوم. وأشرب من دمك. وسأعلقك على نفس ذلك الباب مثل العلم الأحمر. لا تنس هذا! هه!

قال هذا ثم ابتعد. أخبرنني شجعاننا في مساء نفس اليوم، بهوية ذلك الرجل. قالوا إنه كوميسير واسمه شيشكوف. على كل حال فالميدان يخلو من الناس رويداً رويداً. كانت أعلام بولندا والمجر وليتوانيا ترفرف على أبواب السقائف.

كيف لا أدهش يا صادق وثلاثة أعلام تركية على ثلاث سقائف في سفح جبل مرتفع في أقصى مكان في المعسكر. أعلى من كل الأعلام.. أعظم من كل الأعلام. أجمل من كل الأعلام. أدهشتني الأعلام التركية. نعم. الأتراك! ولكن كيف؟ ومن أين؟ جريت سريعاً نحو السقائف أبحث عن الأتراك في حماسة وانفعال. السقائف الثلاثة ممتلئة كلها بالأتراك. شباب وكهول وأطفال ونساء كلهم أتراك، أتراكنا، قرميون. وأمام السقيفة شيخ يطلقون عليه "العم" وهو رجل يرتدي قميصاً مرقعاً لكنه نظيف. شاربه أبيض اللون مبروم وكأنه قرنا خروف، حول هذا العم مجموعة من الشباب وهو ينصحهم قائلا:

- سأفقأ عين من يتلفظ بلفظة روسية منكم، سأسلخ جلده، وسأدفن جثته في السماء. مفهوم.. وإذا سألك الأمريكي قائلاً: "من أنت؟" فلا كلمة اللهم إلا كلمة "أنا تركي" وإذا سأل الأمريكي من أين أنت؟ فلا كلمة كذلك اللهم إلا كلمة من تركيا من أنقرة من أسكى شهر، والسلام. كما لا تبتعدوا كثيرا عن السقيفة.

سلخ الجلد في معسكر اللاجئين أتلقاه كأمر طبيعي، وفي مساء ذلك اليوم وعند النوم قلت لمواطني حمزة:

- أعداء الروس في المعسكر أكثر من أصدقائهم، فما الداعي للخوف؟

- هذا المكان خطر يا محمد.

- خطر؟

- هناك معسكر روسي بلشفي في سفح الجبل، على بعد خمسمائة متر من سقيفتنا في قبعة كل منهم نجمة حمراء. كلهم بلشفي. لم يكن طيباً أن يراك الكوميسير وأنت تمزق العلم. انتبه وخذ حذرك. إنه رجل غاية في السوء.

- سيسلخ جلدي وسيعلقني على الباب مثل العلم.

- ديوث!

- هل يصدقون أننا من تركيا؟

- إنهم اجتازوا إطار الفلك يا محمد! كيف فهموا هويتنا؟ لا أدري. إنهم يعلمون منذ أن جئنا إلى المعسكر أننا قرميون.

ذلك الكوميسير شيشكوف يذهب كل يوم إلى القيادة الأمريكية ويقول لهم: "إنهم ليسوا من تركيا. كلهم من تتار القرم. كلهم أعداء روسيا. هيا سلموهم كلهم بأولادهم

وبأطفالهم إلى الروس". ونحن هنا نعيش في خوف يا محمد. إن الروس يجوسون حول السقيفة صباحاً ومساء. يقولون إن فينا ثلاثة من الشبان عملوا في الجيش الألماني. إنهم يريدون القبض عليهم بأي شكل من الأشكال. يريدون أخذهم إلى معسكرهم ليحاسبوهم. ونحن بدورنا نتبادل نوبات الحراسة ليلاً ونهاراً في كل سقائفنا. وشبابنا يحملون سكاكينهم معهم دائماً. والعم علي يأمرنا ويقول: "لا تتحدثوا مع الروس،ولن تكونوا أنتم الذين يبدأون معهم معركة، لكن إذا دخلوا السقائف وأرادوا خطف أحد أو أرادوا الاعتداء على بناتنا فاقتلوا هؤلاء الكلاب".

- إيه!! وإلى متى سيستمر هذا الوضع؟

- وكيف لي أن أعرف؟ شخصان ذهبا إلى سويسرا، وذهب اثنان آخران إلى روما لمقابلة القنصلين التركيين هناك لتأمين العون لنا.

وهكذا يا صادق، عشت ثلاثة أشهر تحت العلم التركي الحبيب، ونحن محاطون بالعدو، وبالأتراك، هل لديهم أخبار عنا يا ترى؟ التتار في معسكراتهم معذبون ومن أجل حفنة تراب يموتون، ولا علم لأحد بهذا. من يدري بهذا؟ أنت في أوروبا. ربما يتغير الزمان وتسوقك قدماك إلى تركيا. في ذلك الوقت وبكل فخر وإيمان ستجد كما أؤمن من صميم قلبي بأن:

- "لو كانت هناك أمة في العالم تكسب شرف الحياة تحت العلم التركي، فإنها هذه الأمة".

لم يدعني الكوميسير شيشكوف في راحة. كتبوا خطاباً قالوا فيه: أيها التتار! إذا لم تسلموا محمداً إلى الروس، فسنأتي في المساء ونحرق سقائفكم. كنت أفكر أحياناً في أنني سأتسبب في انهمار دموع الأطفال. ماذا كان علي عمله؟ الشيء الوحيد الممكن عمله هو الهروب. وهربت وطوال أسبوعين وأنا أجوب الجبال. كنت كحيوان جائع متوحش وأخيراً وجدت حدود إيطاليا فاجتزتها. وما بعد ذلك تعرفه جيدا.

والآن أبدأ حياة جديدة. أصرف كل جهدي في هذه المزرعة تحت شمس جهنم أميركا. كان الله في عوننا جميعاً.

...

محمد

* * *

روما، في ١٩٤٦/٧/٢٢

قررت قبل شهر، كتابة رد على الخطاب الثاني الذي أرسله لي محمد، ومع ذلك لم أكتب بل لم أستطع الكتابة، ماذا كنت سأكتب وعن ماذا كنت سأتحدث؟ فكرت وانتظرت وقلت لعل شيئًا يحدث. نعم. شيء.. تغيير. انتظرت. تسلمت اليوم خطابه الثالث. فتحته سريعًا وقرأته، لم أجد فيما كتب ما يعنيني. قد يكون مرد ذلك لأنني سأقابل اليوم طبيبي. لا شيء في ذهني إلا الطبيب، الأسئلة التي سيسألني إياها، والإجابات التي سأرد بها عليه. أحتفظ في ذهني بما رأيته في رؤياي بالليل. قال لي لا تنس أن ما تراه إنما هي رؤى. لعل صداع الرأس الذي انتابني هذا المساء ينتهي قليلا، إذا انتهى سأجلس لأكتب رسالة إلى محمد. وسأشكر له أنه لم ينسنِ.

* * *

روما، في ١٩٤٦/٧/٢٣

انشغل الطبيب بي ساعة كاملة، مساء أمس، تكلم هو طول الوقت. أما أنا فقد أنصتُ إليه مع أني في أعماقي كنت أرفض ما يقوله. يقول: لابد من الثقة في الطبيب. يقول في أعماقك خوف هائل، وأنت تعيش الآن داخل هذا الخوف. لكن لا تبال بهذا. لا أدري كم مرة قال لي فيها هذا الكلام. لا تخف أقبل على الحياة كما هي. اعمل! افرح وستنتهي مخاوفك. هذه الكلمات جميلة وصحيحة لكني لست طفلاً. لا أستطيع الحياة بما في داخل رأسي ولا أستطيع النظر إلى أوجه الناس.

خرجنا معًا من الغرفة. ضحك وهو يضغط على يدي في الممر وقال:

- أليست لك صديقة؟

فارتعشت فجأة، ارتعشت كما ارتعشت عندما ابتعدت عن قبر ماريا في تيرول في العام الماضي، كنت أخرج من عيادة الطبيب متفائلاً دائماً.

فماذا حدث لي مساء أمس؟ كنت أنفر من الطبيب! لن أذهب إلى الطبيب فترة طويلة ماذا لو ارتعشت غداً؟ ماذا لو خفت من الدخول إلى سريري ليلاً؟.

بينما كنت في غرفة الطبيب أمس، تراءت أمام عيني يد ماريا البيضاء تتدلى إلى أسفل السرير في تلك السقيفة، في تيرول، العام الماضي. كان الطبيب يتكلم معي. أما أنا فلم أكن أرى غير يد ماريا. ماذا لو فقدت وعيي وصحت بالطبيب قائلاً: أنا قتلتها، أنا قتلتها! لماذا أفكر يا ربي هكذا؟ إنها ماتت فنجت. وأنا. كيف سأتخلص من أفكاري السوداء هذه؟

قال لي الطبيب وأنا أغادر عيادته:

- حاول أن تتذكر جيداً، الحياة التي عشتها في معسكرات الأسرى هذه، وقل لي هذا، الأسبوع القادم. بهذا أعثر على جذور هذه المخاوف، وأعمل على شفائك.

سكتُّ، فلم أستطع أن أجيبه، كيف سأعيش بلا طبيب بعد انتهاء نقودي؟ تذكرت محمداً ورسالته. إنه يريد العمل في الغابات الوحشية المهملة في أمريكا الجنوبية! لماذا؟ أنا، أنا فقط، أعيش يائساً مكسور الجناح. دخلت غرفتي وأنا مقرر كتابة جواب على رسالة محمد. لكن ماريا ما زالت في أعماقي. تصفحت "المذكرات" بدأتُ قبل ستة أشهر كتابتها، فهل أستطيع استكمالها؟ لا أدري. أريد بالتأكيد التحدث عن ماريا. المذكرات بدون ماريا؟ كيف؟ ماريا لم تفارق عيني حتى منتصف الليل.

أريد النهوض والكتابة، لكن لا بد من التحدث عن أيامي التي أمضيتها في الأسر قبل التحدث عن ماريا.

أنا في السقيفة رقم (٢) حيث المكان بارد مثلما كان في السقيفة (٥) لكن ليس هناك نظام الأسرّة المكونة من ثلاث طبقات. الأرض كلها تبن. هنا وهناك بعض الأسرى يتلوون وينامون. أسأل نفسي أحياناً بشك قائلاً هل أنا في السقيفة رقم (٢) ؟

أريد أحداً أتحدث إليه. لكن الناس يرقدون هنا لا يتكلمون ولا يبدو عليهم أثر لحياة. مدفونون في التبن ويرقدون كجذوع الأشجار. ظننت أولاً أنني في سقيفة أخرى وكل ما هناك أن الشرطي خدعني. لا، إنني في السقيفة رقم (٢) ...

يهبط المساء، يتمادى الظلام داخل السقيفة، يعتدل الأسرى رويداً رويداً بعد أن كانوا يرقدون هنا وهناك. يأتي إلى مسمعي أصوات وصياح. وأنا أيضاً أنهض وأتقدم نحو الأبواب في تثاقل. وأمام الأبواب: أسرى ملتحون، وجوههم متربة وأقدامهم ملفوفة بقطع من القماش القديم، ويحملون على أكتافهم الحصر والجوالات والأكياس القديمة الممزقة، ينسلون إلى السقيفة، ويصيحون بمجرد دخولهم، منادين.

- أهالي كييوف.

- مواطنو خاركوف.

- الزاباروجيون.

أنتظر من سيصيح منادياً على القرم وآق مسجد. لم ينطق أحد بهاتين الكلمتين. بعد قليل أستجمع أنا شجاعتي لأصيح قائلاً:

- القرميون!

- القرميون!

ولا جواب ..

أصيح مرة أخرى:

- القرميون.

وفي الظلام، قال واحد تحت قدمي:

- لا تصح هكذا يا أخ! لن تجد هنا أحداً من القرم.

أجلس بجانبه، يقول الرجل:

أنا آذربايجاني.

ويستمر في كلامه بعد برهة صمت.

- في المطبخ خادم قرمي يدعى اسكندر. لكنه رجل ظالم، لا يأخذ أحداً بجانبه ليعمل معه.

- أتساعدني في رؤية اسكندر هذا؟

لا أدري إن كان سمعني أم لم يسمعني. لأنه لم يحر جواباً، أنتظر أن يبدأ في الثرثرة، جو السقيفة يزداد ظلمة. الأحاديث والأصوات العالية أخذت في الهدوء، أجده في هذا الظلام يشعل سيجارة أرى وجهه في ضوء القداحة، يبدو إنساناً سليماً قوياً. نظر في عينيّ بأعين فقدت حيويتها فهمت حينئذ أنه لن يتكلم. أتمدد وأرقد. أما الآذري فأخذ يغني بصوت حزين:

يغني هو أغنيته، وأفكر أنا في مصطفى. يصمت بعد قليل. وبعد صمت واضح يقول:

- هل نمت يا أخ؟

- لا.

- ادع الله ونم.

- فقدت واحداً ممن أحبهم، وحسرته ما زالت في نفسي، ولا أستطيع النوم.

- انس الأشياء القديمة، كما لا تفكر أيضاً في الغد.

ليست قديمة جداً.

- هل أنت جائع؟

إن هذا سؤال عجيب منه. صمت. إنه يخرج من حقيبته في الظلام شيئاً، ويمد يده به إليّ. أنظر إلى هذا فإذا به خبز.

- خذ وكل.

أرفض.

- بطنك خاوية يا آغا.

- كل أنت يا أخ. أما الغد، فالله كريم.

- ما هو العمل الذي كلفوك به؟

- أحمل الماء إلى المطبخ من عين ماء، تبعد كيلومترين من هنا، والألماني لا يدعني وشأني، لكن آه لو تركني.

ودون أن يتم كلمته تأوه آهة ثم تمدد بجواري. وبعد قليل يبدأ في الحديث:

- هذا الألماني رجل طيب ولكنه يعطيني قليلاً من خبز الشُريك! ابن الكلب.. لو ابتعد عني.

- لو ابتعد؟

- أهربُ. أهربُ يا آغا.

وفي لحظة تذكرت هروبي من السقيفة رقم (٥) .

- لا تفعل هذا يا أخي، لأنهم سيقبضون عليك إن فعلت.

- هربت مرة وأمسكوني.

- ثم؟

- الألماني ابن الكلب، أرقدني على المنضدة وضربني على ظهري بالعصا خمساً وسبعين ضربة، وحوالي أسبوعين لا خبز ولا قطرة ماء، ونمت في هذه السقيفة على وجهي وظهري أحمر كالكباب. ومع ذلك لو وجدت فرصة للهرب فسأهرب يا أخي.

سكتّ، وأحسست ونحن في الظلام من كلماته الأخيرة، بأنه سكت وهو يصر على أسنانه. انتظرت كثيراً عسى أن يتحدث عن اسكندر،لكنه لم يتكلم أكثر من هذا. استيقظت وأنا أفكر في اسكندر، استيقظنا مبكراً. كانت السقيفة مزدحمة لدرجة مدهشة. كان صياح الشرطة عند فم الأبواب نسمعه:

- الحجارون!

- المسفلتون!

- هيا.. هيا إلى الخارج.. يا أولاد...

خرجت وأنا بين مجموعتين من الأسرى يلفون أقدامهم بالقماش وبطاطينهم المقملة تتدلى من على أكتافهم.

وفي الخارج رياح باردة تأخذ الجليد من على أسقف السقيفات لتضربه في وجوهنا. كان كثير من الأسرى يحتمون بحافة سقف السقيفة لحماية أجسادهم نصف العارية، من عدوان الرياح. لكن الشرطة تسوقهم إلى وسط الميدان بعد أن يضربوهم بالعصي. كان بعضنا يحتمي ببعض وننتظر. وبعد قليل يقوم رجال الشرطة بواسطة العصي والسياط التي بين أيديهم بتقسيمنا إلى فريقين:

- الحجارون! على اليمين!

قليل من كان يعبر إلى الجانب الأيمن ويتطوعون بذلك. لم يكن هذا يحدث إلا إذا نزلت العصي على الأسرى. وقررت أن أعبر إلى الجانب الأيمن قبل نزول أي ضربة على رأسي. وسرت ناحية الجانب المطلوب. وبعد قليل زاد عددنا على المائة. من حولنا رجال الشرطة القاسية منذ قليل وجوههم. أخذت تلين الآن الوجوه. الأسرى الذين بجواري يسبون الشرطة ويشتكون من العمل، ويبصقون على الأرض.

وقبل الخروج إلى الميدان، جاء الآذري، إلى جانبي، كان يلبس في رأسه جوربًا يصل إلى أذنيه، وفي كتفه كيس كبير. وقال:

- لماذا تذهب مع الحجارين يا أخ؟

قلت وأنا أشير إلى الشرطة، برأسي:

- وماذا في يدي أن أفعل؟

ثم أضفت قائلاً:

- وأنت.. ذاهب مع الحجارين؟

- لا، فقط، حتى المطبخ، ثم سأسحب الماء. إن شغل الحجار صعب يا أخ. كان يجب أن يكون ذهابك مع المسفلتين. على كل حال لا تبعد عني، سأريك اسكندر هذا خادم جاف، لكنه مواطنك، قد ينفعك. ولعله يعطيك قليلاً من الماء. خرجنا من ميدان السقيفة رقم (٢) . وتقدمنا نحو المطبخ على طول الطريق الواسع الذي يفصل المعتقل إلى منطقتين. كان الطابور الذي تكوّن منا يبلغ كيلومترين طولاً. والبرد مثل السم والآذري بجانبي كان يتكلم وكأنه يحادث نفسه:

- آه لو سنحت لي الفرصة. آه. لو سنحت لي الفرصة.

وصلنا بعد ساعتين باب المطبخ. أخذ الأسرى يفكون علب الصفيح المربوطة إلى وسطهم. وكنا ننظر إلى أفواه الأسرى الخارجين من المطبخ وفي أيديهم الخبز.

مائة جرام من الخبز مع نصف لتر ماء دافئ لكل منهم، لكن قيمة ذلك كنا نحن فقط الذين نعرفها.

كان بجانبي واحد يقول:

- هؤلاء الديوثون! حتى الماء يبخلون به علينا.

يهمهم آخر بقوله:

- ماء، ماء.. ماذا لو زادوا في الخبز قليلاً؟

- منذ ستة أشهر وجلدي يغذي القمل، يا أخ.

- آه، هل سيأتي يوم أستحم فيه، بماء ساخن؟

- سواء أكان جسمك نظيفاً أو قذراً، وقذفوا به في الحفرة. فما الفرق؟

- لو شبعت مرة واحدة فقط، أرضى بعد ذلك بأن أظل قذراً حتى نهاية عمري.

دخلنا المطبخ. القدور الضخمة كانت مصطفة بشكل متوالٍ. يقف طبّاخ وشرطي بجوار كل قدر. أبحث عن اسكندر بحماسة واضطراب. أنظر بين الحين والآخر إلى وجه الآذري. وكان الآذري يبدو كأنه يقرأ رغبتي من عينيّ:

- لا تقف بجوار القدور يا أخ. إنه رئيس الطبّاخين. يرتدي حذاء في قدميه. يداه في جيبيه، والحذاء الضباطي في قدميه بلمعته وموسيقاه، وهو كالمدير يذهب ويأتي من أول المطبخ إلى آخره.

لم أكن أرى القدور الأخرى، سمعت من خلف البخار والدخان شتائم وصيحات. الآذري في الأمام، وأنا في الخلف وعلى ذلك اقتربنا من القدر. قال الآذري شيئا للطبّاخ أثناء ما كان يمد يده إليه بعلبته الصفيح. أسأله عن اسكندر يا ترى؟

... لا إنه كان يستجديه أن يكون نصيبه من الخبز من النوع الأفضل، فقال له وهو يضحك ضحكات قبيحة، قائلا:

- من الوسط، من الوسط!

ألقى الطبّاخ نصيب الآذري من الخبز تحت قدميه، وتزامن انحناء الآذري على الأرض لأخذ نصيبه من الخبز، مع تلقيه ضربة من عصا الشرطي نزلت على رأس الآذري المسكين. خر الآن على ركبتيه ورأسه بين كفيه. ويقول بصوت يسمع به نفسه... آه، يا ظالم! آه يا ظالم!

أمسكته من وسطه وأقمته على ساقيه، وعندها هم الشرطي بضرب الآذري، عندما رفع عصاه لينزلها عليه، سمعت صوتاً غليظاً يقول:

- يا ولد يا آذري: هؤلاء الشرطة سيقتلونك يوماً ما من كثرة ما يضربونك.

أجاب الآذري قائلاً:

- وأي ذنب ارتكبته يا اسكندر بك؟ ما هو الذنب الذي ارتكبته حتى يضربني ابن الكلب هذا؟

- هيا! هيا! لا تقف هكذا لتنقنق. ألم تأخذ خبزك؟ هيا، اذهب! اخرج!

سكت الآذري. نظرت إلى اسكندر. كان يتحدث مع الشرطي وظهره لي. وقبل أن أصل إليه، فحصته من أعلى إلى أسفل، كان أكمل من عرفت من مواطنيّ جسداً، في أفظع فترة من حياتي. لكن لا أدري هل هو أحسنهم؟ أم أسوأهم؟ كان رجلاً أسمر اللون عريض المنكبين، كأنه قُدَّ من شجرة صنوبر. مقطب الحاجبين دوماً. عيناه واسعتان جميلتان، هاتان العينان مفتوحتان متسعتان جداً، وكأنما كان يبحث عن شيء. كان أنفه جميلاً متناسقاً وكأنه قد خرج من بين يدي مثّال. لكن شفتيه دقيقتان باردتان وكأنهما لم يتذوقا شيئاً قط، ولم تضحكا من الأعماق قط. أحسست

فيه - من أول نظرة- بقوة لا تهتز. ولكن كيف يستخدم هذه القوة. وكيف يستثمر استعداده وطاقته، وعلى الأصح، لم يبق في قلبي مكان لحب اسكندر عندما علمت كيفية استخدامه وتطويعه لقوته واستعداده. ذهبت إليه وسألته:

- هل أنت اسكندر القرمي؟

وباختصار وبرود، قال:

- أنا.

- هذا الشرطي، ضرب الآذري دون وجه حق، أليس هذا ذنباً؟

صمت، ثم بعد لحظة سألني بشك:

- هل أنت قرمي حقيقة؟

- قرمي أنا، ومن آق مسجد، ألا تصدق؟

- صدقت.

صمت. وبعد فترة، داوم حديثه بلهجة سكان السواحل.

- لكن بالأمس، جاء روسي وقال إنه قرمي.. خدعني. وطلب خبزاً:

- لست روسياً، كما أني لا أريد خبزاً.

- ضحك وهو يهز سوطه وقال:

- ضربته على كيس مخه، هذا الكافر، ضربته بالعصا بدلاً من أن أعطيه الخبز.

أنسيته بالضرب، الخبز حتى يوم القيامة. خر أمام قدميّ كأنه روث البهائم.

وبسرعة خطر في بالي وتصورت أسيراً مسكيناً يرقد تحت أقدام اسكندر، فاستدرت، وعندما هممت بالخروج من المطبخ أمسكني اسكندر من كتفي وقال:

- تعال! واشتغل معي. سأعطيك الخبز، كما أني سأحطم رأس الروسي الذي يريد أن يضربك، وأدفن جثته في الروث.

و كما أن كل شيء عند اللّه. فإن مقابلتي لاسكندر كانت أيضا من عند اللّه. سرت خلف اسكندر ولم أعرف أنني في نقطة تحول في حياتي، عبرنا من بين القدور التي تغلي بما فيها. ودخلنا غرفة دافئة في نهاية المطبخ. وفي المكان الأوسط من الغرفة كان ثلاثة من رجال الشرطة يأكلون الطعام. ضرب اسكندر السوط الذي في يديه على السرير وصاح بصوته الأجش لرجال الشرطة الذين يأكلون الطعام:

سأحطم رأس أي ديوث يمد يده على هذا الولد.

نظر رجال الشرطة إلى اسكندر أولاً ثم إليّ. يبدو وكأنهم خافوا من كلام اسكندر. قال واحد منهم:

- كلام الطبّاخ في السقيفة رقم (٥) له قوة كلام الشرطة فلماذا لا تعيّنه هناك؟

قال اسكندر للشرطي الذي اقترح عليه هذه التوصية:

- يا إيفان، خذ أنت هذا الولد إلى رقم (٥) وقل للطباخين هناك إنه تابع لي. قل لهم إنه أخي! هل فهمت؟ وإذا مسَّه أي ديوث بشيء فسأقذف بمن يتعرض له إلى حفرة غائط.

- وهل أستطيع أن أعمل طبّاخاً، يا اسكندر بك؟

وإذا به ينتفض فجأة ويقول:

- يا ولد لا تضايقني. ألا تعرف أنه توقد ناراً تحت القدور؟ ما لك ولأعمال المطبخ؟

خرجنا مع الشرطي إيفان من المطبخ. تساوت معرفتي باسكندر من عدمها، فلم أره مرة أخرى، من هو؟ وأين هو الآن؟ لا أدري. نحن ثمانية طهاة في السقيفة رقم (٥) أكثريتهم من أوكرانيا. لم نعد نقيم مع الأسرى الآخرين إنما نعيش في سقيفة خشبية صغيرة جانبية. وأمام سقيفتنا ثمانية قدور. تسع كل منها مائة لتر. السقاؤون يملأون القدور بالماء كل مساء. ونحن الطهاة نستيقظ كل يوم صباحاً مبكرين، نوقد النيران تحت القدور، وننتظر عربات البطاطس، وحوالي التاسعة، تفتح أبواب السقيفة وتدخل العربات إلى الميدان وكل عربة لها شرطي ممسك عصا على يمينها، وواحد على يسارها، وخلفها واحد. وعلى البطاطس التي في العربة أسير ممسكًا بكوريك، يأتون نحو قدورنا. وبعيد عن العربة بثماني أو عشر خطوات مجموعة من الأسرى زرق الوجوه من تأثير البرد فيهم، عظامهم بارزة، يمدون أيديهم إلينا وهم يتوسلون إلينا قائلين:

- ارم إلينا بواحدة يا أخي الكبير، قطعة واحدة من البطاطس يا أخي!

ارمها إلينا. تقوم كل عربة بالاقتراب من كل قدر. كل عربة على قدر معين، وبعد إلقاء خمسة عشر كوريكًا من البطاطس تسوق العربة حصانها إلى السقائف الأخرى. وبمجرد ابتعاد الشرطة والعربات من عند قدورنا. يقوم بعضنا بإخراج كمية من البطاطس من الماء المغلي. وننظفها ونعمل منها حساء بطاطس "مخصوص" لنا.وبينما يكون بعضنا مشغولاً بهذا العمل الخاص يقوم العمال الآخرون بالصعود على الصناديق الخشبية وفي أيديهم العصي، الطهاة هم أغنى الناس في المعسكر وأكثرهم احتراماً يرتدي كل منهم بذلة ضابطة أو بذلة جنرال.

استمر عملي في الطهي، ثلاثة أسابيع كاملة. وفي أحد الأيام جاء جاويش يبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عاماً. تجول فترة حول القدور، ونظر إلينا

جميعاً بدقة ولقد خفت قليلاً من هذه الزيارة غير المتوقعة. اختبأت بين القدور حتى لا أظهر. لم يكن يبدو أنه سيئ إلى الحد الذي يُخشى منه. لحيته التروتسكية السوداء ووجهه الطويل الذي يبدو متعباً. عيناه، بنظراتهما الحلوة من خلف نظارته ذات الزجاج السميك. شكله أقرب إلى الاشتراكيين الديمقراطيين أو النصارى المتدينين، منه إلى عسكري ظالم كالألمان. اقترب مني ورمقني بنظرته، حدجني بعينيه الأخاذتين كما تبدوان، نظر طويلاً إلى البذلة التي أرتديها على جسمي وأخيراً سألني:

- كم عمرك؟

- ثلاث وعشرون

ضحك وسألني مرة أخرى؟

- هل أنت جنرال؟

- لا. أنا ملازم.

-هل البذلة التي ترتديها بذلة ملازمين؟

خفت، ولم أدر بماذا أجيب عليه، كان يبدو أنه فهم مدى خوفي من الألمان، فسألني وهو يضحك، قائلاً:

- هل تدري بأي قصد أتيت أنا إلى هنا؟

- لا يا سيدي.

- يلزمني عسكري خدمة، هل تستطيع القيام بهذا العمل؟

أفقت عندما فهمت ماذا يريد الألماني، ولكن ماذا عليّ أن أقول؟ عسكري خدمة! ربما يكون أفضل من العمل في المطبخ، وقد يكون أسوأ. لو رفضت طلبه، ألا

يغضب مني؟ سألني عن رتبتي ضحك على بذلتي، وإذا رفضت، ألا يمكن أن يلقيني في السجن؟ سأذهب معه سأذهب وأعمل خادماً عنده:

قلت:

- نعم، أعمل.

سألني عند خروجنا من السقيفة رقم (٥) عن اسمي، وكان يكرر اسمي بين الحين والحين، أثناء سيرنا في الطريق، وكأنه يحفظه:

- صادق... صادق...

اقتربنا من أبواب المعتقل. الجندي الديدبان فتح الباب بعد أن أدى سلاماً عسكرياً قوياً للجاويش. خرجنا. كنا نسير - أنا والألماني- جنباً إلى جنب كصديقين ولم أكن أعرف أنني لن أعود إلى المعتقل مرة أخرى.

انتهى الشتاء وجاء الصيف، وأنا منذ شهر أعمل "جندي خدمة" تحت إمرة الفيلد فيبل (الباشجاويش) شولتس. كم كان هذا أمراً طيباً، وكم هي أيام مريحة! فبعد المآسي التي شاهدتها وعشتها في المعتقل أبدو وكأنني أتذوق طعم الحياة. أنا سعيد وأبدو كطفل يتيم وجد فجأة منزلاً وسريراً دافئاً. كان الباشجاويش يبتسم لي في رحمة عندما يخرج من حجرته صباحاً. يربت على ظهري. وإلى وقت الظهر أقوم بكنس غرفته وتنظيف حذائه وبذلته. ثم أحضر له من المطبخ العسكري طعام غذائه. يأكل هو طعامه، ويترك لي في الطبق طعاماً قليلاً، ثم يخرج. ثم أجلس حتى المساء وأقرأ الصحف الألمانية. كان هؤلاء أيضاً مثلهم مثل الأسرى في كيروفجراد أسرى لدى الروس، أسرهم الألمان لكنهم لم يأخذوهم إلى المعسكر لأنهم حلفاؤهم. لم أكن أفهم لغتهم إلا أنهم يتميزون بطيبة القلب، وفيهم بساطة، يكرمونني بإعطائي السجائر، ويغنون حتى وقت متأخر، قالوا إن ضابطاً رومانياً سيأتي من

رومانيا ليأخذهم ويعود بهم إلى وطنهم وهم في انتظار هذا الضابط منذ ستة أشهر.

وكان شولتس، في بعض الأمسيات، يتصنع أنه يريد رؤية الجياد في الإسطبل، وعندما يمر بجانبي يدس في يدي خبزاً ملفوفاً في ورقة. خبز أبيض بدون تبن وبدون حصى، خبز ناعم. وآخذ الخبز وآكله، وأتذكر جودت وعثمان ومصطفى. تتراءى أمام عيني أشباحهم: بيضاء، غير واضحة، أنا آكل خبزي والخبز يأكلني، تتجمع الآلام في داخلي، وينسد في حلقي شيء ما، وببطء آكل الخبز الذي أعطانيه الباشجاويش شولتس في الظلام، وكأنني لص، كأني آكل من نصيبهم. الشيء الذي انسد في حلقي كأنه يخنقني. لا أستطيع أكل الخبز. أمسكه بيدي حتى الصباح، فربما أرى أحدهم. ربما يخرج أحدهم أمامي غداً. ربما أجد أحدهم ربما!.. وأخبئ الخبز في كيس تحت رأسي.

وقبيل ذات مساء، بينما كنت أذهب إلى الإسطبل مع الجاويش شولتس رأيت الآذري في الطريق يحمل الماء، وبجواره جندي ألماني مسلح. الآذري يحمل جرادل الماء وحبالها في نيره، يجمع يديه على صدره، ويسعل بشكل متقطع. عبرنا من جواره ومضينا. خفت من التحدث مع الآذري، ترى هل رآني؟

ملأت جيوبي بالخبز في اليوم التالي، على أمل أن أصادف الآذري مرة أخرى. لم أصادفه في الطريق لكني رأيته وهو يقوم بدور السَّقَّاء طوال اليوم بجوار مبنى القيادة وقبيل المساء لم يكن له وجود في المكان أيضاً. وفي اليوم التالي أخذت أنظر من النافذة حتى المساء لعلني أراه. لكني لم أتمكن من رؤيته هل هو مريض؟ كان في الطريق سقاؤون آخرون، لكن الآذري لم يكن بينهم.

مر أسبوع، وعندما كنت أنظف غرفة الجاويش شولتس صباحاً إذا بي أسمع في الممر أصوات وقع أقدام وصياحاً. رأيت أسيراً نحيلاً جداً أشقر اللون مستنداً إلى

الحائط بين جنديين ألمانيين، وقد غطى وجهه بيديه، كان يبكي بصوت مختنق ويقول:

- أنا لست يهودياً! أنا لست يهودياً!

لم أستطع رؤية وجه الرجل لكنْ ذراعاه البيضاوان النحيلان اللتان تبدوان كالعصا كانتا ترتعشان بشكل ملحوظ. كان بكاؤه غريباً حتى إنني كنت أرى آثار الرحمة في وجوه الألمان الذين كانوا يشاهدونه من الأبواب. وبعد قليل فتح الباب. وظهر في الممر اليوزباشي بوخ قائد المعتقل (الشاتالاك) وكان اليوزباشي بوخ قائد المعتقل ضابطاً سليم البنية، طويل القامة، أحمر الوجه، عيناه دوماً متقدتان، وكان متغطرساً. انحنى الأسير فجأة على قدمي اليوزباشي بوخ وعانق حذاءه اللامع النظيف، وقال له بنفس الصوت المخنوق، ومتوسلاً:

- لست يهودياً، صدقوني، لست يهودياً.

ولا أدري هل لأن الأسير تشبث بيديه المتسختين على الحذاء النظيف أم لأنه يهودي؟ سحق اليوزباشي بوخ الأسير تحت قدميه، ثم عاد بسرعة وكأنه يهرب من مرض معد، ودخل حجرته، أغلقت أنا الباب، لكن ما زال صياح الأسير حتى الآن يرن في أذني وهو يقول:

- لست يهودياً، لست يهودياً.

وبعد حوالي عشر أو خمس عشر دقيقة دخل الباشجاويش شولتس، الحجرة ونظر إليّ بعينيه الضيقتين، بنظراتهما الحلوة الطيبة وبينما هو يجلس على الكرسي، قال:

- قبضوا على يهودي في المعسكر.

لم أنبس ببنت شفة. وتظاهرت بعدم الفهم، ذلك لأنني لم أكن أريد فتح هذا الموضوع لكن الجاويش كان يريد التحدث عن اليهود، فقال:

- في المعسكر يهود كثير.

سألته بلغني الألمانية الضعيفة:

- من أين علمت أن هذا الرجل يهودي؟ ربما لا يكون يهودياً. إنه يقول لست يهودياً.

ضحك الجاويش شولتس ضحكة أبانت عن أسنانه اللامعة، وقال:

- إن اليهود هم الذين يقولون لنا هذا؟

- اليهود أنفسهم!

وضع أصبعه على شفتيه، وقال:

- اقترب مني. احذر أن تقول هذا لأحد.

وبنفس الصوت قال:

- نعم، اليهود أنفسهم، ألا تعرف أن اليهود الذكور مقطوعون، ولم نكن نعرف هذا، القائد أيضاً لم يكن له علم بهذا. المترجم "يان" هو الذي أفهمنا هذا . وهو نفسه يهودي. والواقع أننا نعرف أن "يان" أيضاً يهودي. لكننا نحتاج إليه. وفي الوقت الحالي في كل سقيفة عدد من اليهود ثلاثة أو خمسة، يمدوننا بالمعلومات. وهم يظنون أننا سنمنحهم الحياة، لكن بعد الفراغ من اليهود الآخرين سيأتي الدور على هؤلاء.

بعد أن قال شولتس هذا، بدوت كأني لم أفهم شيئاً قط، سألته معنى مقطوعين. ضحك شولتس مرة أخرى وقال بإشارة من يده أن اليهود يختنون.

- هؤلاء اليهود عملاؤنا يتجولون طوال اليوم بجوار الحفر، فإذا وجدوا " مقطوعاً" يبلغون الشرطة سريعاً، وتقوم الشرطة بإحضار اليهودي إلينا.

عندما فهمت كلام الجاويش شولتس، أحسست برعشة تصيبني في عمودي الفقري وتناولت حذاءه سريعاً لأنظفه. كانت يداي ترتعشان. وكنت حريصاً على ألا أظهر هذا لشولتس. وبعد قليل، نهض هو على قدميه، وتأهب للخروج إلى الممر، وقبل أن يفعل هذا قال:

- هذا الرجل يقول الآن إنه ليس يهودياً، على ذلك أرسل القائدُ المترجمَ يان إلى المعتقل، وسيأتي اليهود ليشاهدوا الرجل، ربما يكون في الأمر خطأ ما. قال هذا وخرج.

يا إلهي! ماذا لو كان هذا الرجل مسلماً! كيف يمكن إثبات عدم يهوديته؟ لو كنت شاهداً قد لا يصدقني الألمان، فيسحبونني إلى حافة الحفرة ويضربونني. كنت ما زلت أسمع بكاء الأسير وهو يقول " لست يهودياً" . آه لو كان مسلماً، كيف يمكنه في هذه الحالة إثبات أنه ليس يهودياً. إذا لم يستطع إثبات هذا، فسيقتلونه " جهاراً نهاراً" ولو قمت أنا وقلت إنه ليس يهودياً، ثم اتضح أنه يهودي؟ ماذا سيكون موقفي؟ ماذا لو قاموا بعد ذلك بإعدام اسكندر والآذري وبإعدامنا كلنا بدعوة أننا يهود!!

استغرقت في هذا التفكير، وبينما أنا على ذلك إذا بي أسمع وقع أقدام في الممر ثم نحيباً. بعد نصف ساعة، كانوا يأخذون الأسير أمامهم، ويسوقونه سوقاً إلى الحفرة وكان مثل الجمل. برك على ركبتيه. وعلى بعد ثلاثة خطوات إلى الوراء، كان ألماني يوجه مسدسه نحو قفا المسكين، وقد أخذ الجندي وضعه بحيث لم يكن هناك أي فاصل بين إطلاق المسدس ووقوع الأسير على الأرض، ولم يكن هناك أي شيء في الإمكان، غير الدعاء لهذا المسكين الذي أسلم روحه فوراً.

وبعد قليل، فتح الباب، ودخل شولتس إلى الغرفة، أدرت أنا ظهري حتى لا تبدو عيناي دامعتين. قال الجاويش وهو يجلس على الكرسي:

- جاء اليهود ونظروا إليه، فاتضح لهم أنه يهودي.

قررت بعد هذا الحادثة أن أعود إلى المعتقل. ولكن ماذا لو اشتبه فيّ شولتس! قضيت ليلتي ساهراً. وفي الصباح جاء شولتس إلى الإسطبل. وذهبنا معاً إلى القيادة. لم أجرؤ ونحن في الطريق أن أطلب منه إرسالي إلى المعتقل. افترقنا بعضنا عن بعض بجانب الباب. وقفت أمام النافذة حتى الظهر عسى أن أرى الآذري. لكن الآذري لم يكن في أي مكان. وبينما كنت أخرج من الغرفة لتناول طعام الظهر سمعت في الممر وقع أقدام ونشيج بكاء يشبه ما سمعته بالأمس. نظرت من فتحة الباب فوجودت أسيرين بين جنديين ألمانيين مسلحين. لم أتمكن من رؤية وجهيهما لأنهما كانا يقفان وظهراهما نحوي. كلاهما أيضاً كان حافي القدمين. وكان بعضهما يمسك أيدي بعض كطفلين يتيمين ويرتعشان. شعرهما الأسود الطويل كان متسخاً بالتراب وبالتبن وعلى ظهر كل منهما قميص يبدو وكأنه قطعة قماش متسخة تتدلى على ركبتيه. من هما؟ أحاول النظر إلى وجهيهما، ولم أستطع رؤيتهما. لماذا أحضرهما الألمان إلى القيادة؟ وبعد قليل خرج شولتس من إحدى الغرف. الألمانيان اللذان بجانب الأسيرين، أدّيا في حركة قوية السلام للجاويش، نظر شولتس إلى الأسيرين بنظرة بدأت من قمة رأسيهما وانتهت بأخمص أقدامهما. ثم سار إلى غرفته دون أن يقول شيئاً قط، وكنت قد أغلقت الباب، ففتحه هو، وقال:

- يا صادق! تعال معي.

- إلى أين يا هرفيلد فيبل؟

- ذهب المترجم "يان" إلى المعتقل. تعال أنت وتكلم مع هؤلاء الرجال.

- سمعاً وطاعة يا هرفيلد فيبل.

خرجنا معاً إلى الممر. وقفنا أما الأسيرين المرتعشين بين الألمانيين.فهمت فوراً أنهما من الأوزبك. مسكينان. كأنهما خرجا من نطاق كونهما من البشر. قال لي الجاويش شولتس، وهو ينظر إلى الأسيرين:

- سل هذين الرجلين باللغة الروسية. هل هما يهوديان أم لا؟

سألتهما بالروسية:

- يريد الجاويش أن يعرف من أيّ الشعوب أنتما. وهل أنتما يهوديان؟

نظر كل منهما للآخر. هز الأكبر سناً فيهما رأسه. سألتهما مرة أخرى، بالروسية:

- هل تفهمان اللغة الروسية؟ هل أنتما يهوديان؟

مرة أخرى، هزّ أكبرهما سناً رأسه. وضحك ضحكة بلهاء، وقال:

- نعم يهوديان.. يهوديان..

تأملت كثيراً لصوت هذا المسكين وابتسامته هذه. ينظر الآن الجاويش إليَّ. أما أنا فكنت لا أستطيع أن أبعد عيني الأوزبكي المنطفئة. وبدأت أحدثهما باللغة التترية.

- أنظر إليَّ أيها العجوز! لا تكذب. أنت لست يهودياً، ولو قلت إنك يهودي فإن هذا الألماني لن يعطيك خبزاً. بل سيأخذكما إلى حافة الحفرة ويقتلكما. والآن أفصح لي: أأنتما من الأوزبك أم من التركمان؟

في البداية نظر كل منهما إلى الآخر، ثم نظر كلاهما في الوقت نفسه إليَّ. انحنى كل منهما فجأة على قدمي وبدآ في البكاء بصوت منتحب مخنوق.

- إننا من شعب الأوزبك آغا.. من الأوزبك. نحن فرغانة. فرغانيان.

سألني الجاويش وقد نفذ صبره:

- يهوديان؟

- لا يا هرفيلد فيبل، إنهما آسيويان. يبدو هذا من ملامحهما.

وقبل أن أنتهي من كلامي، ظهر اليوزباشي بوخ في الممر مع ضابطين برتبة كبيرة. أصدر شولتس أمراً، فإذا بالألمانيين قد انتصبا وهما يمسكان أنفسهما في صدريهما المنتفخين. وعندما اتجه الجاويش شولتس نحو اليوزباشي بوخ لتقديم إيضاحات، هزّ اليوزباشي يده وكأنه يقول إنه يريد أن يسمع ما يقوله الجاويش. وقبل أن يتكلم الجاويش عن الشخصين الأوزبكيين، اندفع اليوزباشي بوخ فجأة يسب ويشتم. كان الألمان يقفون دون صوت منتصبي القامة كأنهم تماثيل.أما أنا فكنت أريد أن أهرب وأختبئ قبل أن ألفت انتباه أحد. ولكن كيف؟.. الضابط أمامي، والألمانيان من الخلف، ولم يكن اليوزباشي بوخ قد رآني بعد. ماذا لو رآني. ماذا لو سأل عمن أكون. كنت بين الأوزبكيين. لم يكن المسكينان يعرفان أن الموت ينتظرهما. والآن سيقتلونهما، وربما يقتلونني معهما كنت أحاول الاختفاء، وكنت أدعو أن أوفق. يصيح بوخ وكأنه يريد أن يسمع العالم كله. وجهه الأحمر القاني يتغير إلى اللون الأزرق. ودوماً كان يشتم اليهود. وفجأة نظر بدقة إلى الأوزبكيين. كان الهدوء يخيم على المكان لدرجة أن لو طارت ذبابة في الممر لسمعناها. وعندما بدأ الجاويش شولتس يتشجع للتحدث عن الأوزبكيين، أزبد بوخ مرة أخرى، ودخل إلى غرفته وهو يسب ويشتم. هرولت أنا سريعاً، هارباً، واختبأت. ومن خلف الباب استمعت إلى صوت اليوزباشي بوخ، الشديد، وأنا أرتعش، مرت ساعة لم يعد الجاويش شولتس، وبين الحين والآخر كنت أفتح الباب فتحة خفيفة لأنظر من خلال فتحة هذا الممر. لم يكن الأوزبكيان في الممر. لم أكن أعرف إلى أين أخذوهما. لا بد على كل حال أنهما سيقا إلى الموت. وبين الحين والحين يدخل جاويش بوجه صارم، أو أومباشي أو ضابط إلى غرفة القائد ويخرجون بعد حين منهما وكلما يفتح الباب

كان صوت اليوزباشي يهز المبنى كله. هناك بالتأكيد شيء يحدث في الغرفة. هل كانوا يذبحون الأوزبكيين؟ لا.. فالأصوات ألمانية. ماذا كان يحدث؟ لماذا اليوزباشي بوخ يصيح طوال هذه المدة الطويلة؟ وفجأة فتح الباب ودخل شولتس. كانت عيناه تخلوان من تلك النظرات القديمة الحلوة، بل كان فيهما نار خائنة، يداه خلفه، وكأنه لا يراني. كان يأخذ الغرفة جيئة وذهاباً من أولها إلى آخرها. كان ينظر بين لحظة وأخرى إلى البندقية المعلقة على الحائط، كنت أفهم أنه سيقتل أحداً ولكن من؟ وكم؟ وفجأة انطلق في الممر صوت ضجة. انطلق الجاويش شولتس إلى سلاحه. صوت كلام في الممر، أصوات أسلحة، وصوت أوامر. نظرت من النافذة. خمسة وثلاثون، وربما أربعون جندياً كلهم مسلحون. وعلى رأسه اليوزباشي بوخ. صوته مؤلم، يقول:

- إلى اليمين... تحرك!

- إلى الأمام... تقدم!

يتقدم الجميع نحو المعتقل. أصوات أحذيتهم ذات النعال الحديدية. بعد قليل أخذت أصوات الأقدام المرعبة تذوب، ولم تعد تسمع. الميدان، الممر، الغرف، اندفنت جميعها في سكون المقابر. وفي هذا السكون، أخذت أدعو الله قائلاً:

- يا إلهي! إننا نحبك ونؤمن بك وننتظر العون منك، حتى في الدقائق التي نزلت علينا فيها أفظع ستارة من ستائر الحياة والموت، بسبب ما ارتكبنا من ذنوب .

بعد ساعة كاملة، عاد اليوزباشي بوخ والجاويش شولتس وعدة من زملائه، عادوا إلى القيادة، لم أعرف ماذا حدث في المعتقل. إلاّ أن شولتس قال وهو يضع البندقية على الحائط:

- طهرنا المعسكر من اليهود.

لا أستطيع النظر إلى وجهه، لكني من ناحية أخرى كنت أريد أن أعرف كل شيء.. لذلك سألته بخوف:

- كانوا كلهم من اليهود؟

- كلهم يهود. كذب علينا أولاد العاهرات.قالوا "إن اليهود مختونون" لكن ليس كل مختون يهودياً، فالمسلمون أيضاً مختونون، شرح هذا لليوزباشي بوخ، الضباط الذين جاؤوا هذا الصباح من القيادة العامة. إن العالم لن يعيش في راحة إلاَّ إذا تطهر من اليهود. اليهود هم أعداء الإنسانية.

وبينما يحدثني الجاويش بهذا، إذا بنا نسمع صوت وقع أقدام في الخارج، وسمعنا أصوات صياح مقطعة. والآن، وأنا أنظر من النافذة إلى اليهود، وإذا بشولتس أيضاً وقد أصبح ككل الألمان: قطب حاجبيه، واكتسى وجهه الرعب، وكان يضغط على ظهر الكرسي وكأنه يريد أن يفصله منه، وقال من بين أسنانه، وكأنه يسب ويشتم:

- يوديشي شفاينه هوند، يوديشي شفاينه هوند.

كان ظلام رهيب وقد دخل من النوافذ، عندما عاد الجاويش شولتس إلى غرفته. والآن كانت عيناه الصغيرتان تنظران براحة وسكون كعادتهما من خلف الزجاج السميك. جلس وقص عليَّ كيف قتلوا اليهود. وقفوا بالدور. يقوم خمسة أشخاص من اليهود الأحياء بدفن خمسة من اليهود الذين يعدمون. ثم يسلمون ملابسهم الدامية إلى المعسكر لكي تعطى للأسرى الذين لا ملابس لديهم.

مر أسبوع، وخيم النسيان على هؤلاء اليهود، ذهب كثير من الألمان في القيادة إلى الوحدات المرابطة في الجبهة، وبقي اليوزباشي بوخ والجاويش شولتس. قال الجاويش: إنْ حدث هجوم كبير على الروس، فإنه سيذهب بدوره إلى الجبهة. وهو ينتظر الأمر بذلك، لكنه لا يدري متى يصدر هذا الأمر. يقول إن الحرب تنتهي

وهذا الأمر لم يصل بعد.كان مقتنعاً بأن الحرب لن تدوم طويلاً، أريد أن أصدق كلام الجاويش. ليت الحرب تنتهي! ليت! وليت الرومانيين أيضاً يغنون في الليل أغنياتهم في الإسطبل. إنهم أيضاً يقولون إن الحرب تنتهي في الصيف، وأنا أدخن سيجارتي بهدوء وأفكر. الحرب تنتهي! عيناي مغلقتان وأتخيل مستقبلاً سعيداً. الحرب انتهت! هيا اذهبوا. التقوا بأهلكم وأولادكم وآبائكم. أنتم أحرار... أنتم مطلقو السراح اذهبوا.. هيا.. إلى بيوتكم. إلى بيوتكم.. كل شيء راح وانتهى الاضطراب والدم والأنّات والدموع. كل شيء راح وانتهى. هيا إلى بيوتكم. ونعود إلى منازلنا من الطرق الدامية من السهول التي مررنا بها بالأمس. وتخرج الفتيات أمامنا، من الحدائق المغسولة بأشعة الشمس الذهبية، تضحك الفتيات لنا، ونحن نضحك للفتيات. يقترب بعضنا من بعض. يمسك بعضنا بأيدي بعض. لا أحد يصرخ فينا. لا انفجار صوت بندقية، ولا سباب ولا شتائم. لا مستغيث ولا باكي! كل شيء راح وانتهى. وأنا؟ لن أجد سبباً لأخبئ البقسماط ولا الخبز في الكيس الذي أضعه تحت رأسي. كم تبعد القرم عن أومان؟ أربعمائة كيلومتراً. ربما أكثر. أتستطيع الوصول إليها ماشياً على الأقدام في أسبوعين؟ ربما أقل من أسبوع. اليوم هو الأحد. إذا انتهت الحرب اليوم فالأحد القادم أكون في وطني. أمي المسكينة! تُرى هل تعلم أمي أنني ما زلت على قيد الحياة؟ تُرى هل ستحتضنني أمي وهي تقول: ابني! ابني! كيف ستقبّلني؟! فما بالك إذن بأبي؟ أبي لن يستطيع تمالك نفسه من البكاء. كلنا سنبكي. لكن دموعه؛ ليست حزناً وإنما هي دموع الفرح.

ثم.. ثم الأسرة، والموقد، وضيافة الشاي، والأحاديث المطولة، ثم مرتبة وعليها ملاءة بيضاء نظيفة كأنها الجليد. وذلك اللحاف الأطلس. وعندما أجلس منفرداً في الحجرة مع أمي لا بد أن تحدثني عن زكية بنت أرسلان بك الأيواصيلي. ستحدثني عن ضفيرتيها الممتدتين حتى كعبيها وهما في سماكة المعصم، وعن جبهتها البيضاء وحاجبيها القلميين وعن جمال رموش عينيها. ستقول لي زكية

بنت عائلة طيبة. كم أنت مسكينة يا أمي.. كم كنت أبذل كل جهدي لكي أبعد الدموع عن عينيك والاضطراب عن وجهك! سآخذك إلى منزلنا في وسط حدائقنا ذات الرائحة العبقة الجميلة في السفوح القطيفية في الجبال وفي الجوانب الزمردية الجبلية. وأنت هناك، أيضاً تغطين رأسك بغطاء الرأس الأبيض واقرئي سورة يس، التي تحبين قراءتها، واهتمي بأولادك فهم صغاري. وهذا منزلي. والروس! ألن يخرج الروس من بيتنا؟

ورويداً رويداً، يسقط خوف في قلبي. هل يخرج الروس من البيت؟ يجب أن يخرجوا. فهذا الوطن وطننا كما أن هذا البيت بيتنا. أجدادنا وآباؤنا ولدوا في هذه الأرض. وهناك عاشوا. جدنا السابع هناك.. وهذا الوطن وطننا ونحن أولاده، لا بد للروس أن يخرجوا.

وبينا أفكر في كل هذا، لا أدري كيف تراءى لي أمام عينيّ جريشة الألوشتاوي. جريشة ذو الرأس الأشقر المقطوع الساقين في الحفرة التي حفرتها القذيفة. كم مثل جريشة أشقر الرأس هكذا يعيش في القرم؟ آه لو قام كل تتاري وتناول سلاحه وقال سننظف القرم من الكفار؟ لو تتمرد التتاري أمام الدماء النازفة ودموع العيون المسكوبة؟ يا أيها التتاري! إن الدماء تُستنزف منك منذ مائة وسبعين سنة، فهل بقي فيك بعد ذلك قوة؟ ها هو لون القرم قد تغير. لقد عشت أيها التتاري مائة وسبعين سنة في اضطراب دائم. عش! ولا تهدر دمك! فلم تعد بك قوة، لا تُسل دماءك عبثاً. هل تعلم أن هذا الوطن لا يستطيع العيش بدونك؟ بدونك سيسيل السم بدلاً من العسل في حدائقك. لن يستطيع أحد اجتياز الجبال ولا عبور الطرق، وستتحول هذه الجبال إلى جهنم.

وذات صباح جاء الجاويش شولتس إلى الإسطبل مبكراً جداً. أخذني وذهبنا إلى القيادة. كان الميدان الواقع أمام القيادة ممتلئاً بالعساكر المسلحين. أوامر شديدة صدرت إلى الجنود، أصدرها لهم الجاويشية، حمل الجنود، عقبها، بنادقهم

على أكتافهم وخرجوا في مجموعات من الميدان مبتعدين عنه. لم أهتم كثيراً بالجنود لأنهم غير ذاهبين إلى المعتقل. وجه شولتس يظهر فيه الفرحة والرحمة كما لو أنه لا يتوقع حادثة سيئة قط. كانت أعماق عينيه الصغيرتين تضحك فرحاً. ولأول مرة يعطيني علبة سجائر بها ثلاث سجائر. عجبت لكرمه هذا. بعد دخوله الغرفة تحدث لي عن الجنود الذين كانوا في الميدان. ولم يمكث طويلاً فخرج. ولأنني لم أفهم شيئاً قط، اتجهت نحو النافذة ونظرت إلى الميدان. كان الميدان قد خلا وغشيه صمت خلال نصف ساعة. لكن الصمت لم يستمر طويلاً. فالجنود والأوامر والأصوات، عادت مرة أخرى، اليوزباشي بوخ على درجات السلم الخارجي للقيادة. وقف هو والجاويش شولتس وبعض الضباط الآخرون، وقلق ممتزج بالخوف يلفني. أنظر تارة إلى صفوف الجنود، وتارة أخرى إلى الضباط الذين يقفون على الدرجات الحجرية في سلم القيادة. وبعد حوالي عشر أو خمس عشرة دقيقة اندفعت كتلة شعبية هائلة من الناس إلى الميدان. القادمون جميعهم يرتدون الملابس المدنية. على كتف كل واحد منهم ربطة قماشية. وجوههم وعيونهم يُعفرها التراب. لكن حالتهم ليست هابطة بدرجة ملحوظة. يدخنون السجائر وكانوا يتكلمون بأصوات عالية. هل هم أسرى؟ لكنهم لا يشبهون الأسرى كثيراً. لم أكن أرى أحداً بينهم يرتدي بذلة رسمية. أغلبهم يشبهون القرويين. لماذا يسوقون هؤلاء الناس إلى المعسكر؟ كان الجاويش شولتس يدخل الغرفة ويخرج منها وفي يده مجموعة أوراق. كان يبدو سعيداً ومتحمساً. يزحفون بأقدامهم المتعبة نحو المعتقل. ويأتي غيرهم خلفهم. واستمر هذا العرض حتى المساء. وعندما عدت إلى الإسطبل، شرح لي شولتس أن الأوامر صدرت باعتقال الرجال من سن السابعة عشرة وحتى الخامسة والخمسين من القرى والقصبات الواقعة حول أومان، كل هؤلاء كانوا في وقت ما جنوداً. وعندما انكسرت الجبهة هرب معظمهم واختبؤوا في القرى. يجمعهم الألمان الآن ويدخلونهم المعتقل. وسيأتي العمد من القرى ليستعرضوا هؤلاء. ويفرز كل منهم

القرويين الذين من قريته. وهؤلاء سيأخذون ترخيصاً من اليوزباشي بوخ وسيطلق سراحهم. كان شولتس يشرح لي هذا بحماسة وانفعال.

وفي الصباح التالي، أيقظني شولتس ولم يكن الصباح قد أصبح بعد. عجبت لمجيئه مبكراً إلى هذا الحد. لبست بسرعة وخرجنا. على جانبي الباب الخارجي جنود مناوبون مسلحون. فتح واحد منهم الباب. وعلى بعد خطوتين من الباب، على جانبي الطريق الإسفلتي كانت مجموعة من النساء والفتيات وكبار السن يرقدون فوق لفافاتهم القماشية، وقبل أن نصل إلى جانبهم أشار إليَّ الجاويش شولتس أن أقوم بدور المترجم. بدأ الناس الذين في الخارج ينهضون رويداً رويداً. اقترب منا منهم حوالي ثمانية أو عشرة من كبار السن. وقفوا على بعد ثلاث خطوات. أمسكوا بأغطية رؤوسهم في أيديهم وسلموا علينا.

قال شولتس:

- من العمدة فيكم؟

سألت أنا بدوري هذا السؤال باللغة الروسية.

تقدم ثلاثة من كبار السن هؤلاء. وتحدث منهم واحد، فقال:

- نحن، أيها المترجم المحترم، ثلاثةُ عمد كل منا عمدة على قرية. لم يبق في القرى أحد من الذين يستطيعون العمل. في البيوت كلها نساء وأطفال لا عمل لهم إلاّ البكاء. توقفت الأعمال في الحقول. وهؤلاء الأطفال في الخامسة عشرة من أعمارهم والسادسة عشرة، لا ذنب لهم، أيها المترجم المحترم. إنهم لم يؤدوا في الخدمة العسكرية.

كانوا يتوسلون بحزن، ويتصورون أنني شخص مهم، كما أنهم يضيفون إلى عملي كمترجم لفظة المحترم عندما يخاطبونني. لم يكن الجاويش شولتس يريد أن يسمع ما يقولونه. انحنى عليّ وهمس في أذني قائلاً:

- اسحب واحداً منهم على جنب، وحادثه، وتحدث مع واحد منهم فقط. ثم اسألهم عما في عرباتهم.

وقبل أن يتم كلامه، كان يتلفت حواليه، أفهم أنه لا يريد أن يتكلم بصراحة عما يفكر فيه. نحيت عمدة واحداً منهم جانباً. شولتس الآن يسأل، وأنا أترجم.

- كم أسيراً خرج من قريتك؟

- سبعة وخمسون، أيها المترجم المحترم.

- هل كلهم من قريتك؟

- كلهم من أبناء قريتنا يا سيدي، قبل عدة أشهر كان يظهر هنا وهناك قليل من الغرباء، لكنهم عندما يعلمون أن الجنود الألمان وصلوا هنا، سرعان ما يختفون.

ما زلت أترجم كلمات شولتس إلى الروسية:

- هل قريتك بعيدة كثيراً من هنا؟

- حوالي خمسة عشر كيلومتراً أيها المترجم المحترم.

- هل تعرف أسماء السبعة والخمسين؟

- أسماؤهم كلهم مكتوبة هنا، أيها المترجم المحترم. انظر إلى شعري الأبيض أيها المترجم المحترم. أأنا إنسان يكذب؟ إن كل القرية اختارتني بالإجماع وأرسلوني إلى هنا إليكم. قالوا لي: اذهب إليهم واشرح لهم الموضوع كما هو، قالوا لي إن الألمان والمترجمين سيصدقونك.

الجاويش يقول لي، وأنا أنقل ما يقول إلى العمدة العجوز:

- هذه مسألة صعبة للغاية - صعبة للغاية.. صعبة جداً..

صمت قصير..

- قد نعطي ترخيصاً لرجالك ونطلق سراحهم. لكنْ عندنا في المعسكر جياع كثيرون وينبغي أن ترسل بعض الطعام لهم.

وفجأة قال العمدة العجوز وهو يضرب الأرض بالعصا التي في يده:

- أرجعُ حالاً إلى القرية، وحتى وقت الظهر أكون قد أرسلت إليكم عشر عربات خبزاً، عشر عربات، سينفذون ما أقوله لهم وسيعطونكم عشر عربات خبزاً! سينفذون أمر المترجم المحترم! سأشرح لهم الأمر جيداً.

وسريعاً ترجمت كلام العمدة إلى اللغة الألمانية سحبني شولتس إلى جنب وهمس في أذني قائلاً:

- قل للعجوز أن لا لزوم للعربات العشر.. نريد أشياء أخرى مثل السمن والجبن والبيض. أفهمت؟ هيا اشرح للعمدة هذا جيداً.

ابتسمت في داخلي لأن الجاويش سيطعم الأسرى بالبيض والجبن سألته قائلاً:

- بيض وجبن؟

ومرة أخرى قال بهدوء، لكن بانفعال:

- نأكله نحن.. أنت.. أنت.. أنا.. اليوزباشي بوخ

إذن، فقد اتضح سبب مجيء شولتس إلى الإسطبل في الصباح الباكر وأخذه لي، ومعنى الفرحة والانفعال في عينيه. شرحت المسألة للعمدة وتفاهمنا مع زميليه الآخرين. وعدنا أدراجنا إلى المعسكر. وعندما كان الجاويش يدخل غرفته بحماسة كان المساء قد بدأ يحل. وصل العمدة. عرباتهم في الخارج. قال لي: هيا سريعاً إلى معاونتي. خرجنا وحملنا مع العمد الذين تحدثنا إليهم صباحاً البقج والربطات

والأكياس والعلب من العربات. بعد إفراغ حمولة العربات استدعى شولتس العمدة إلى غرفته. وأخذ أسماء الأسرى الموجودين في المعتقل وخرجوا من الغرفة. لم أذهب تلك الليلة إلى الإسطبل، فقد كتبت أسماء مائة وخمسين شخصاً على تراخيص بالتسريح وقعها بوخ، ثم أفرغنا الجوالات وغيرها؛ ثم علّبنا الأشياء التي ستذهب إلى عائلتي اليوزباشي بوخ والجاويش شولتس وأقربائهم.

وفي اليوم التالي، تم إطلاق سراح المائة والخمسين أسيراً المكتوبة أسماؤهم على التراخيص. وبعد يومين خرجنا مرة أخرى، الجاويش شولتس وأنا، إلى الطريق الإسفلتي. ولا بد أن القرويين قد عرفوا طريقة إطلاق الأسرى وحصولهم على حريتهم، لأننا عندما ذهبنا إليهم، كانوا يشيرون إلى عرباتهم بالعين والحاجب، كان اليوزباشي بوخ يأتي إلى القيادة كل صباح ويوقع على مائتي ترخيص ويذهب. وأنا، أجلس في غرفة بوخ حتى المساء أكتب الأسماء على التراخيص التي وقّعها بوخ. ثم كنت أذهب إلى غرفة الجاويش شولتس. ومرة أخرى، وحتى منتصف الليل، كنا نعبئ العلب إلى ألمانيا. واستمر هذا حتى نهاية شهر مايو. وكان لا بد أن يكون لهذا نهاية وقد جاءت.

ذات يوم، رأيت من النافذة، الرجل الآذري الذي يعمل بالسقاية، يحمل الماء. كان يمر من الطريق الذي بجانب القيادة. توقف. يده اليمنى على الحبل الذي على رقبته. كان ينظر إلى سلالم القيادة الحجرية. كم كانت حالة هذا المسكين تدعو إلى الرثاء. كان يبدو وكأنه قد طال أكثر من ذي قبل. وكان حافي القدمين، ظهر في وجهه الذي كان جميلاً يوماً ما كان يبدو آثار عميقة لمرض ثقيل. الألماني بجواره. يقول شيئاً، لكنه هو ينظر ويطيل النظر إلى سلم القيادة، ويبدو كأنه يسمع ذلك الألماني، ثم انحنى وحمل جرداله، وأخذ يسير نحو المعتقل ونظراته ما زالت ملتفتة نحو القيادة. منذ ذلك اليوم وأنا أحمل الخبز في جيبي. وأخيراً، وذات قبيل مساء،

وبينما أنا في طريقي مع الجاويش إلى الإسطبل قابلت الآذري في نفس الطريق وكان كما كان في نفس الوضع. قلت له:

- مرحباً يا آغا.

جفل فجأة، ثم أجابني بعد أن بدا كأنه يريد قراءة ما في عيني وفي قلبي:

- مرحبا يا أخ.

- عرفتني. أليس كذلك؟ أنا كنت مع اسكندر...

وقبل أن أنهي كلامي، قال الآذري بذلك الصوت الأجش المبحوح:

- اسكندر هرب.

أحسست بهبوط الخوف في نفسي. سكت.

- هرب بمساعدة أصدقائه من رجال الشرطة. كان ظالماً جداً. لكنه كان شهماً.

عندما كنت مع الآذري كان شولتس يتجه إلى الجندي الألماني المسلح. التفت الآذري برأسه نحو القيادة، كأنه يريد الابتعاد عن التحدث في موضوع اسكندر. قال وهو ينظر إلى السلم:

- طوال يومين وأنا أقف هنا على هذه الأدراج وأنظر هنا وهناك بغية رؤيتك يا أخ.

- وأنا أيضاً انتظرتك كثيراً.

- مرضت ثلاثة أسابيع لازمت فيها الفراش. كان السعال الشديد ينتابني ليلاً، وكنت أبصق دماً، كان حالي صعباً يا أخ، ولا أدري لماذا لم يقذف بي العاملون في الوحدة الطبية إلى الحفرة ويتخلصوا مني. ما زلت أعجب لهذا يا أخ. كم كانت أياماً سيئة ما أسوأها من أيام.

وإذا بالآذري يشد حبال الجرادل، ويبكي ويقول بصوت كالمخنوق:

- لم أعد أستطيع المقاومة يا أخ، لم يعد في إمكاني التحمل. مددت الخبز إليه. خبأها تحت إبطه.

- لا تبك يا آغا. كلنا في الهم سواء.

رفع رأسه، ونظر إليّ، يبدو أنه كان يريد أن يبتسم، لكن طرفا شفتيه تحركا قليلاً.

- ولكنك كبرت كثيراً يا أخ. اسمك على كل لسان في المعسكر.

- اسمي أنا؟ ولماذا؟

- آه، لقد أنقذت كثيراً من الناس ومن الأرواح بتلك التراخيص.

- كان هؤلاء أسرى، تم إطلاق سراحهم بموجب أمر القائد، وليس لي دخل في هذا.

- نعم! ولكن يدك كانت في هذه التراخيص يا أخ، لك كلمة الآن، أهذا مزاح؟!! أنت رجل متعلم. تتحدث الألمانية كالألمان.

ثم اقترب مني قليلاً، نظر إلى الجندي الألماني، ثم إلى شولتس الذي كان يتحدث معه، ثم إليّ. ثم تحدث بإيجاز، وكأنه يريد أن يلخص شيئًا على درجة كبيرة من الأهمية في عدة كلمات:

- تكتب اسمي أنا أيضًا على ترخيص من هذه التراخيص، وتعطيني إياه غداً، قبيل المساء، مع الخبز.. أيمكن يا أخ؟

تراجعت إلى الخلف خوفًا مدركًا بسرعة الخطر الذي ستلقيني فيه كلمات الآذري.

- لا يكن مزاحك ثقيلاً هكذا، يا آغا، لقد أرعبتني.

- ولماذا يا أخ؟ أنا مريض، وليس في مقدوري التحمل.

- إذا تحدثت في هذا الموضوع، ثانية، فلن تراني.

تغير وجه الآذري فجأة، أصبح جاداً. نظر إلى وجهي نظرة حركت قلبي:

- لا تخف. لن أتحدث في هذا مرة أخرى. أنا لم أطلب ميراثاً. كل ما أطلب: قطعة ورق، يقولون في الأمثال " طالب الحاجة له وجه واحد أسود، والذي لا يعطيه حاجته له وجهان أسودان " تقول لي لا يكن مزاحي ثقيلاً، يعني أن المسألة بالنسبة لك مزاح. أما بالنسبة لي فهي إما الموت أو الحياة. ولا بد أن تعلم هذا. على كل حال علينا أن ننسى هذا أيضاً.

أمسك بحبل الجرادل وعاد إلى الخلف، كان ينظر إلى الألماني. كان يريد أن يذهب. أدهشتني رغبة هذا الآذري المسكين، لا أستطيع أن أنظر إليه نظرتي إلى إنسان مذنب. كنت لا أدري ماذا يمكن أن أقول له. اتجهت بأمل أن أطيّب خاطره وقلت له:

- أتدري خطورة اقتراحك هذا يا آغا؟

ومرة أخرى نظر إلى عيني طويلاً، ومرة أخرى، أجد في عينيه ذلك المعنى الرهيب، هز رأسه وقال:

- أنا مريض.. ألا يعرف الإنسان نفسه؟!!

- ماذا سيكون مصيرك ومصيري إذا ضبطوك بترخيص؟

انطلق قبل أن أنهي كلامي، قائلاً:

- أنا فقط يا أخ، أنا فقط، أقسم إن أحداً لن يعلم بهذا.

عينا الآذري كانتا تدفعاني إلى تصديقه بنفس القدر الذي تدفعني إليه كلماته. هل هو أمل استيقظ في قلب المسكين؟ لا أدري. وقت قسمات وجهه. استمر في حديثه بصوت بطيء لكنه منفعل.

- إني أعرف القرى المجاورة جيداً. لقد أديت الخدمة العسكرية هنا ثلاث سنوات وكثير هنا الذين يعرفونني. حتى نساء القرية وبناتها.. وكم شربت شراب الراقي هنا آه لو تعرف. أخرج من هنا. فقد أخرج، يا أخ. وإذا خرجت فلن يجدني أحد.

وافترقنا. وأصابني الأرق ليلتها. والحق أني ندمت ألف مرة على مقابلتي للآذري، والتحدث معه، لم يعد هناك مكان في قلبي للآذري، هل يمكن مصادقة رجل لا يتورع عن دفعي إلى الخطر؟ تذكرت الأيام التي قضيتها في السقيفة رقم (٢) ، عندما كنا نتحدث عن اسكندر، فقد كان دائماً ضده. وكنت أنا في ذلك الوقت أجد اسكندر رجلاً سيئاً، هل هو بالفعل سيئ؟ والآن يطلب مني هذا الرجل ترخيصاً. من يدري ماذا طلب من اسكندر عندما كنا في السقيفة رقم (٢) ، قد يكون اسكندر قد رفض. وسيغضب مني مثلما كان غاضباً من اسكندر. لكن ماذا عساه أن يفعل! إن الرجل يحاول إنقاذ روحه. ما كان يجب عليّ أن أغضب من هذا. لكني بعد الآن. لا بد أن أكون بعيداً عن الآذري. إن هذا أفضل شيء. نعم، واتخذت قراري: سأكون بعيداً عن الآذري. كنت أريد العيش بسلام في غرفة شولتس حتى نهاية الحرب. والحرب لا تستمر طويلاً، ستنتهي والنسيان مصير كل شيء. وهكذا كنت أفكر.

كنت في الصباح أكتب الأسماء على التذاكر في غرفة اليوزباشي بوخ. وفي المساء كنت أعد أنا والجاويش شولتس العلب المرسلة إلى ألمانيا، ولكن، يبدو أنني كنت أخادع نفسي عندما قلت أن لا مكان في قلبي للآذري، إنه دائماً كان معي فلم أكن أستطيع الهروب منه. لماذا كنت أفكر كثيراً في إنسان، صداقته لي لا تبدو متبلورة؟ لا أدري. أنا هكذا دائماً أتناقش مع أكثر الأشياء التي أكرهها في الحياة.

ومع أكثر الأشياء التي أخاف منها. كنت قررت في ذلك اليوم أن أبعد نفسي عن الآذري ولم أكن لذلك أنظر إلى النافذة، لكن قلبي لم يسترح لذلك مطلقاً. واستراحة قلبي لن تحدث إلا إذا عثرت عليه وشرحت له المسألة. ورأيت الآذري بعد يومين، رأيته بجانب مبنى القيادة. عيناه على سلم القيادة الحجري وكان يحمل الماء.

وقبل الذهاب إلى الإسطبل، قال الجاويش شولتس إن علي أن أكتب ثلاثمائة ترخيص في اليوم التالي. خرجنا معاً وكل ما في ذهني دائماً: الآذري وشولتس وبوخ والتراخيص. ثلاثمائة اسم! ثلاثمائة إنسان!.

كان شولتس، يطلب، دون أن ينظر لوجه واحد، من العمد: البيض والجبن. والعمد يريدون كتابة الأسماء التي يريدونها، على التراخيص، والأسير الذي يحصل على واحد من هذه التراخيص، يضمن سلامته، وكنت أعرف هذا جيداً، وكان الآذري أيضاً يعرف هذا جيداً. هل من اللائق أن أخاف من تقديم معروف؟ إنسان أمامي، يقول إنه يموت. وفي إمكاني إنقاذه. ترخيص! ترخيص واحد وماذا يعني؟ بالنسبة لي لا شيء إطلاقاً. إن هذا لمن الصدقة التي يتصدق بها الإنسان! وهي له تعني التحرير. وهو اليوم، عيناه على سلم القيادة الحجري يحمل الماء. وأنا لم أكن أريد حتى النظر إليه، ذلك لكي لا أراه. تُرى هل ما أفعله صحيح؟ وماذا إذا مات؟! وأنا، كنت أستجدي النجدة من شرطي كافر عندما هربت من السقيفة رقم (٢) ، ثم كيف أخذني الشرطي الذي في المستشفى إلى السقيفة رقم (٢) مع أنه يعرف أنني من السقيفة رقم (٥) ، وعندما كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، ألم يساعدني الطبيب الأرمني؟ ثم بعد ذلك أتغاضى عن مساعدة الآذري!!!

غداً سأكلمه. ماذا لو أخذت تذكرة تصريح معي، وأعطيتها للآذري مع الخبز؟ أفكر في كل شيء وأستعرض أمام عيني كل شيء.. ولكن عندما تخطر على بالي كلمة ترخيص أجد ركبتيّ ترتعشان.

كنت ذات صباح بمفردي في غرفة اليوزباشي بوخ. كنت أكتب الأسماء على التراخيص فخطر فجأة على ذهني ذلك الآذري، فاندق كالمسمار في تفكيري، لم أستطع خلعه وإلقاءه كتبت اسماً آخر تماماً محل اسم كان من المفروض أن أكتبه على ترخيص من التراخيص ولا أدري أنا نفسي كيف حدث هذا. وعندما فطنت إلى ما فعلته بدأت أرتعش خوفاً. عرقت عرقاً بارداً، وأصبحت لا أدري ماذا أفعل. انفتح الباب ودخل شولتس، قال:

- هيا يا صادق، أسرع في الكتابة.

وبالعرق المتجمع على جبهتي خرجت، لأدخل بعد ذلك غرفة شولتس، ومرة أخرى أعددنا العلب المرسلة إلى ألمانيا، كان الجاويش يتحدث بسرعة وكنت كالطفل الذي لم يحمل معه نقوداً في حياته أكثر من خمسة قروش، فأصبح معه الآن فجأة خمس ليرات كاملة، سرقها من محفظة أبيه. أتذكر الترخيص الذي في جيبي فأرتعش. لم أستطع طوال اليوم أن أنظر في وجه شولتس، يومان والترخيص في جيبي، أذهب به إلى الإسطبل وأعود منه.وأرى الآذري، ولا أجسر أبداً أن أعطيه الترخيص. وأخيراً، اتخذت قراري الحاسم عندما رأيته في نفس الطريق. انتظرت المساء بفارغ الصبر، كنت أنظر بين الفينة والفينة من النافذة. كان في نفسي ضيق لا ينتهي. بعد أن اتخذت قراري لم أكن أفكر حتى في الآذري. كنت أريد فقط أن أعطيه الترخيص ولا أراه مرة أخرى. كنت أرغب في الحياة في سكون في غرفة شولتس ليهرب الآذري. ثم ليحدث له بعد ذلك ما يحدث، فلا شيء بعد ذلك يهم. ألم أقل له لا تهرب؟ وإذا هرب، فسأستطيع أن أعيش كسابق عهدي. إني اليوم أخاف من كل الناس لا أستطيع النظر إلى الجاويش شولتس ولا إلى وجه اليوزباشي بوخ. وإذا حدث ونظر أحد إلى وجهي، ارتعشت خوفاً، إلا أن هذا لن يستمر إلا إذا هرب هذا الرجل.

يبدأ المساء. لم أعد أخاف. لم أعد أفكر في شيء، ولا حتى في الآذري. كل ما كنت أريده ألا أقابله وجهاً لوجه مرة أخرى. وأخيراً، طرق الباب، ودخل شولتس الغرفة، خرجت معه دون كلام ودون أن ينظر أحدنا إلى وجه الآخر. قطرات المطر المتساقطة من سحابة سوداء تمر من فوق المعسكر. هدأت حدة التراب في الميدان. الجاويش شولتس يتوقف. نظر أولاً إلى السحابة، ثم إلى وجهي. وقال وهو يضحك:

- أليست لديك نية في الهرب من الأسر يا صادق؟

حدث شيء فجأة في أعماقي لأنني لم أستطع فهم ضحكته، فأجبته قائلاً:

- لا، يا هرفيلد فيبل.

- إني واثق من هذا. كنت أمزح. كما أن لا أحد يستطيع الهروب من هنا. اذهب بمفردك هذا المساء إلى الإسطبل، لأني إذا جئت معك فإن المطر يفسد عليّ ملابسي الرسمية، قال هذا، وعاد، ودخل مبنى القيادة.

تقدمت أنا نحو الإسطبل، كنت أسير بمفردي لأول مرة وأنا في الأسر. كنت سعيداً وقبل أن أصل إلى الطريق رأيت الآذري يأتي نحوي والجرادل على كتفيه وبجانبه جندي ألماني. نظرت نحو القيادة لأرى إن كان شولتس قد دخل غرفته أم لا. لم يكن أحد في المكان غير الآذري. وبجانبه الألماني، وصلت إلى جهة الآذري، رأيت في وجهه التعبير الدائم عن نفس الاضطراب. ينظر إلى عينيّ، وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ودون أن أترك وقتاً للكلام مددت إليه الخبز الذي في يدي، وقلت له:

- خذ يا آغا. وأظن أننا سوف لن نلتقي ثانية. كان الله في عونك.

وبينما كنت أمد له الخبز امتلأت عيناه بالدموع. نظر تارة إلى الخبز، وتارة إليّ وبدأت عيناه تدمعان. أمسك يدي. وقلت له:

- في داخل الخبز.. أعانك الله..

وافترقنا.

لا أدري ماذا فعل الآذري في تلك الليلة، ولا في اليوم التالي، ولا أين هو. أما في صباح اليوم الثالث فقد حدث ما لا يمكن أن أنساه طوال عمري.

كنت أكتب الأسماء على التراخيص في جناح اليوزباشي بوخ. وكان كل من بوخ وشولتس يجلسان في مواجهة كل منهما للآخر. كان في الغرفة هدوء بارد. وبين الحين والحين كانت صفحات دفتر أو كتاب تفتح وتغلق. فتحدث صوتاً كصوت الأغصان الجافة المكسورة في غابة كثيفة. أحياناً، كان اليوزباشي بوخ، يخرج من جيبه علبة دخان فضية، وفي تلك اللحظة، ينطلق الجاويش بسرعة ليشعل الكبريت ويقدمه لليوزباشي بوخ ثم ليعود ليجلس مرة أخرى على مقعده. كان هناك جندي آخر على منضدة في مكان قريب من النافذة، مضى يومان على مجيئه إلى القيادة. كان يبدو عليه أنه مغتاظ لجلوس أسير مثلي في نفس الغرفة مع الألمان. كان يمر من جواري فينظر إلى وجهي نظرة خائنة. ويتكبر. ماذا عليَّ من نظراته! لينظر ما شاء له النظر! لم أهتم به. هذا العمل إنما هو مسؤولية اليوزباشي بوخ. إنه هو الذي جعلني أعمل هنا. أحاول من ناحية أخرى كالطفل مع هذا الرجل. كان له وجه يثير العجب. فقد كان يشبه الخنزير بملامحه. جبهة ضيقة بارزة العظام. عينان زرقاوان صغيرتان. جسم طويل نحيل، أنف مدبب، لحية قصيرة وتحت لحيته لغدان. شعر قصير مقصوص في شقرة تقرب إلى البياض. حاجباه بيضاوان، رموشه بيضاء، إن خالقي وخالق كل الناس هو: الله. ولكن عند النظر لشكل هذا الإنسان، يقفز إلى الذهن فوراً نظرية درسناها في المدرسة قلت لنفسي:

- ... لو رأى داروين، هذا المغفل، لاعتقد أن أصل الإنسان خنزير وليس قرداً.

ولو لم يكن الآذري يعيش الآن في داخلي، هذا الآذري، ذو قَدّ السرور ونظرة الصقر، لما تحدثت عن هذا الرجل.

كان نفس الهدوء الممل يسود الغرفة، ومنذ ساعات وشولتس صامت مع أنه يحب الكلام. يبدو أنه ينتظر خروج اليوزباشي بوخ من الغرفة. حان الآن وقت الذهاب إلى المطبخ لإحضار طعام غذاء الجاويش.

وفجأة سمعنا أصوات وقع أقدام في الممر، وأصوات صياح، اتجهت نظراتنا نحن الثلاثة: أنا وشولتس والألماني الجالس بجوار النافذة، نحو الباب، قال اليوزباشي بوخ – وهو في مقعده – شيئاً للجاويش شولتس دون أن يرفع رأسه. نهض شولتس، وبينما يهم بالخروج إلى الممر انفتح الباب و.. دخل الآذري وهو عاري الجسد تماماً، بين جنديين ألمانيين مسلحين ودماؤه في وجهه الأبيض تسيل حمراء، حمراء. لكن كانت جبهته عالية وفي عينيه نظرات مرعبة. واحد من الألمانيين ألقى التحية العسكرية بشدة على اليوزباشي بوخ، ثم بدأ يفصل المسألة تفصيلاً، كان الآذري ينظر إلى سقف الغرفة، وهو مفتح عينيه الكبيرتين أكثر، ويبدو وكأنه لا يرى خطراً قط. لم يكن يدير رأسه حتى لي، يبدو كأنه ربط قلبه بسلاسل، ولم يعد يمت في الحياة بصلة إلى البشر. أما أنا، فكنت أفكر في نفسي أكثر ما كنت أفكر فيه. كنت أريد أن ينتهي الأمر سريعاً بأي شكل، ليس بالنسبة لي وإنما بالنسبة له، لكني كنت أرتعش من أجل سلامة نفسي. من أجل سلامتي. لم أكن أستطيع النظر إلى صورة الدامي العاري.

الجندي أمام اليوزباشي بوخ، يشرح له الأمر، واليوزباشي يستمع بدقة واهتمام لكلامه، ويبدو أنه يريد أن يفهم كل شيء. وكان أيضاً ساكناً هادئ الأعصاب. كان الجندي يشرح بتفصيل دقيق وبحماسة، عملية القبض على الآذري بحماسة تظهر بطولته أمام ضابط من رتبة كبيرة يستمع إليه، وربما يأمل أن يمنحه قائده ميدالية. وفي وسط كلام الجندي ضرب اليوزباشي بوخ، فجأة، المنضدة بيده، ونهض واقفاً، وعند رؤيتي لليوزباشي بوخ التقت عيناي على غير قصد مني بعيني الآذري. يبدو أنه يريد أن يقول لي بنظراته من بعيد "لاتخف يا أخ" . تحركت

أطراف شفتيه. وضحك بشكل غريب. في تلك الأثناء، قام اليوزباشي بوخ يضع قبعته على رأسه وقال شيئًا ثم خرج من الغرفة.

والآن.. ماذا سيحدث للآذري؟ كان مازال حتى الآن، يقف منتصب القامة كأنه تمثال أحد الأبطال. كان بين الجنديين الألمانيين. أمسك الألمانيان بكتفي الآذري. في الغالب، سيأخذانه ويقتلانه في الحفرة.. لا.. إنهما حلا يديه المربوطتان خلفه. ماذا سيحدث؟ قام الألماني ذو الوجه الخنزيري الذي بجوار النافذة.. واتجه نحو الآذري، وكان في يده مفتاح مربوط إلى سلسلة. في الغالب، سيدخلون الرجل المسكين إلى السجن. حلا يديه. لماذا؟ ماذا يفعلون..؟ لا أستطيع فهم هذا. ما زال الآذري ينظر بتلك النظرات الخالية من الخوف. وعندما صعد الجنديان على المنصة وأدخلا طرف الحبل المربوط برسغيه، بالحلقات الموجودة في السقف، فهمت مرادهم.
الألماني ذو الوجه الخنزيري، بجوار الآذري، ينظر إليه وإلى عينيه الممتلئتين إيماناً. يهز المفاتيح الموجودة في يده. ربما كان مستاءً من موقف الآذري الهادئ الوقور، فكان يسبه. كان يزعق على الألماني الذي يدخل الحبال في الحلقات، على المنصة.

سحبوا الآذري بالحبال حتى منتصف الغرفة، كنت أرتعش، مع أنه لم يكن قد قال آه بعد. وقفت، واتجهت نحو الباب. الألماني الخنزير يصيح كالمسعور. ويضرب الآذري على رأسه وعلى وجهه، بالمفاتيح الموجودة في يده، وأثناء خروج هذه الشتائم والسباب والصياح والزعيق الموجهة إلى الآذري، كانوا يسحبونه إلى الحلقات الموجودة في سقف الحجرة. جسد الآذري الأبيض الطويل يهتز في الفضاء. رأسه يتدلى خلفه. والدماء تتسرب من رأسه ومن كتفيه إلى أسفل. كاد الإغماء يصيبني إلا أني تمكنت من الذهاب إلى غرفة الجاويش شولتس وأنا ممسك بالجدران. والأصوات الآتية من غرفة بوخ تنغرس في قلبي كالخنجر. ثم يسود الهدوء. هدوء أصم مخيف كأن لم يعد في الدنيا غيري. وعواء غريب يأتي من تحت الأرض. انتظرت مقدار

ساعة وأنا أستند إلى الحائط وأخيراً.. فتحت الأبواب في الممر.. صريرها مسموع ثم.. مناقشات وصياح.. كان الألمان يخرجون إلى الميدان.

نظرت من النافذة، رأيت الآذري بين الألمانيين المسلحين وقد أصبح جسده أحمر شديد الاحمرار، من جراء الدم السائل عليه، وكان ممسكًا ببنطاله لكي لا يقع ولم تكن هذه أول مرة أرى فيها أحد أفراد أمتي يساق إلى الموت فيسير في عزة وفخار هكذا.

قتلوه.. وعاد الألمان والدماء حتى أذرعهم ومعاصمهم، بعدها أقسمت ألا أخاف من الحياة، ومن الموت والبشر.

وبعد يومين من قتل الآذري، استدعاني اليوزباشي بوخ إلى غرفته، ولم يكن بي أدنى خوف، كنت مستعداً لكل شيء. إذا كان الترخيص الذي أعطيته للآذري هو موضوع الحديث فمعنى هذا أنني ميت. لقد أقسمت ألا أخاف من الموت. لم أستطع أن أتمالك نفسي من التفكير في الترخيص، قبل أن أدخل الغرفة كنت سأتقدم. بمجرد أن يفتح اليوزباشي بوخ الموضوع إلى الألماني الخنزيري الوجه وأبصق على وجهه.

فتحت الباب، ودخلت الغرفة. حييته بتحية جادة. بادلني اليوزباشي بوخ السلام واستقبلني بلطف وأشار إليّ بالجلوس. جلست. عيناه التي أراها عدة مرات تقذف شرراً وأخاف منها أجدها الآن هذا الصباح ذات نظرات هادئة سألني قائلاً:

- أي علف يقدمونه للجياد في وحدات مدفعية الجيش الأحمر؟

كان هذا سؤالاً غريباً. ترى هل لليوزباشي قصد خفي، فبدأ بهذا السؤال:

هكذا كنت أفكر، ثم إنني تعجبت لاهتمام الألمان بمثل هذه الأشياء، كنت لا أدري كيف أجيبه عن هذا، فقلت له:

- لم تكن لي علاقة بالجياد في الجيش ياهرهاوبمان[٢٣] . أعرف أنواع البترول المستخدمة في الدبابات. إذا كان هذا يهم سيادتك، فإني أستطيع قوله:

- أي نوع من الدبابات كنت تقود؟

- ب ٢٧ وب ٢٨ وب ٢٩.

- وهل كانت هذه أفضل الدبابات؟

- لا، إنها أكثرها سوءاً.

ابتسم:

- إذن ما هو أحسنها؟

- ت ٣٤، لكني لم أدخلها، وإنما رأيتها من بعيد.

انتهى حديثنا. هناك ضابط آخر لا أعرفه. يقف على قدميه بجوار شولتس وبوخ. كل واحد الآن مشغول بعمله. ولا أحد ينظر إليّ. كنت أنتظر عسى أن يسأل يوزباشي بوخ أسئلة أخرى. لكنه كان يصمت. وبعد قليل قال لي، وهو ينهض على قدميه:

- نحن ذاهبون إلى الجبهة، وستأتي وحدة جديدة إلى المعكسر.

عجبت لأنهم يقولون لي أنا، هذا. لكني لم أتكلم. أما هو فقد استمر. قائلاً:

- وأنت. ينبغي أن تعود إلى هناك. إلى المعسكر.

وسار نحو الباب، لكنه، وقف قبل أن يدلف إلى الممر، واستغرق في التفكير ثم قال:

---

(٢٣) اليوزباشي

- أنا لا أريد لك أن ترجع إلى المعسكر، وسأرسلك إلى القيادة العامة. وهناك ربما تحصل على ترخيص، وتسترد حريتك.

وخرج من الغرفة، ولم أر اليوزباشي بوخ بعد ذلك مرة أخرى. تركني في حيرة وطوال اليوم وأنا أفكر: إلى أين سأذهب، وكيف سأتحرر؟ وقبيل المساء، قال لي الجاويش شولتس إنه هو الآخر قد عُيِّن في إحدى الفرق الموجودة في الجبهة. سألته عن سبب سؤال اليوزباشي بوخ واهتمامه بالعلف الذي يقدم للجياد في الجيش الأحمر فهز كتفيه، واكتفى بقوله:

- ربما لأنه هو شخصياً من فرقة مدفعية الجياد.

وكانت هذه المحادثة هي آخر عهدي بالجاويش شولتس، وفي صباح اليوم الواحد والثلاثين من عام ١٩٤٢، في ساعة مبكرة جداً منه، خرجت من أبوب معكسر الأسرى رقم (٢) في أومان، وفي ذراعي صُرَّة صغيرة، وبجواري جندي ألماني شاب، مسلح.

نسير عبر طريق يؤدي إلى المدينة، وهو طريق موحل محدب، كانت الشمس في لون الدم ترتفع من خلف كنيسة فيها برج حرس دقيق جداً وكان في أعلاه إبرة، أسمع أصوات حيوانات في الحدائق، نوافذ المنازل تفتح، رجل في طريقه إلى عمله، وأحياناً يمر قروي شارد الذهن، بجوارنا، في عربته، الشمس ترتفع، وكلما ابيضَّ لونها، يترك سكون الصباح مكانه للحياة المليئة بالضوضاء، الحياة أيضاً نفس الإنسان، كل ما هنالك أن جندياً مسلحاً يسير بجواري، ولولا وجوده، لأخذت دوري أنا أيضاً في الحياة أختلط بالناس وأصبح واحداً من هؤلاء الناس.

قال لي اليوزباشي بوخ: ربما يطلقون سراحي.. ربما.. بيد أن تصديق هذا صعب ولكن من يدري؟ ربما.

قبل ثمانية أشهر عندما كنا ذاهبين إلى معسكر أومان مسوقين في هذا الطريق طمعت في المدد من تلك الأكوام الأرضية. ما أعجب هذا! لقد فقدت الأومباشي مصطفى عليه رحمة الله في هذا الطريق. لا أذكر كيف فقدت مصطفى؟ كم كانت تلك الأيام رهيبة، إني حتى الآن أتطلع إلى الأكوام الأرضية هذه فتتولاني الرعشة، ماذا لو عاد الألماني الذي معي فجأة من حيث أتى ليسلمني إلى المعتقل!

الألماني لا يتكلم. وأنا بدوري أتقدم وأنا بجواره، بهدوء. لا أدري إلى أين نذهب. كل ما أعيه أننا نبتعد عن أكوام الأرض وعن المعتقل. قال لي اليوزباشي بوخ:

ربما يطلقون سراحك، وكأني أريد الآن قياس الفرق بين الحرية والأسر، فأنظر إلى الحدائق الشديدة الخضرة، وإلى النساء أمام البيوت، وإلى الأطفال يجرون في الشوارع.

كنت أرى أن أتكلم، وأنهي حالة الأسر. ولكن لن أطيل الكلام، نطلق نحن أهل القرم على الذين يطيلون الحديث ويستطردون فيه ويمطونه، إنهم يأتون بالماء من ألف جدول ماء. فكرت أن ذلك يمكن أن يقال عني عند قراءة هذه السطور. عندما كنت طفلاً، كنت أريد أن أصبح شاعراً، حتى إني كتبت الشعر في دفاتر زملائي في الفصل الدراسي، لفّني شعور ورغبة في أحد الأيام أن أصبح روائياً. وكان ذلك بعد قراءتي لرواية هزتني كثيراً. كنت سأكتب حكاية بعنوان "القاتل الأبيض" وجدت العنوان. وحول هذا العنوان أرسلت خيالي أسبوعين كاملين. كم كنت أفكر بعمق. كم كنت أفكر بسعة! فكرت كثيراً ولكن ما العمل. ليس في تفكيري شيء، ولم أستطع كتابة شيء إلا عنوان الرواية.

والآن، عندما أقترب نحو حدود حريتي، وكلما أطلت قصة "المذكرات" أريد أن أطيلها أكثر. هل ما زالت الرغبة في الكتابة كامنة في ذهني؟ أعرف أن النفس

تتضايق من الكلام الطويل، ولكن ما الضرر في ذلك؟ إن هذه القصة خاصة بي شخصياً، وهي بنفس القدر أيضاً تخص من أحب.

ندخل المحطة، في المحطة جمع غفير من الجنود الذين ينتظرون إرسالهم إلى الحرب. قطار مملوء يستعد للتحرك. تتدلى رؤوس أغلبها شقراء إلى خارج النوافذ. عند المرور من جوارهم أشار واحد عليّ، بأصبعه، إنه غالباً يتحدث عن البذلة التي كنت أرتديها.

وبينما أركب القطار. أنظر نظرة أخيرة إلى الأكوام الأرضية. وإلى المعسكر المعتقل وإلى أبراج الحراسة، وإلى أسقف السقائف. ها هي ذي أفظع بانوراما في حياتي! وفي لحظة برز إحساس بكل الطرق التي سرت فيها. وبالناس الذين عرفتهم وفقدتهم وبكل ما قاسيته. وبصوت أسير مسكين يصيح ويئن تحت عصا الألماني. هذه النظرة كانت هي النظرة الأخيرة. وهذه الستارة هي آخر ستائر حياة الأسر التي عشتها. وربما آخر ستارة للحياة التي عشتها حتى تلك اللحظة، ثم، بقيت خلف ستارتين أو ثلاث وخرجت خبيراً بالدور الذي يمكن أن ألعبه في الحياة الجديدة التي بدأت أعيشها.

وعندما أفكر، الآن، في كل هذا الذي مضى، أقول لنفسي: ترى هل كان هذا حلماً؟ لا، لم يكن حلماً، كان كله حقيقة، وأشعر بالأسى لأنني لم أستطع كتابة هذه الحقيقة بأسلوب راق.

ذهب بي الجندي الألماني الشاب، إلى ديوان نصف مظلم في نهاية القطار. وكان هذا الديوان خالياً. نوافذه مغلقة بالخشب، والخشب قد ضربت فيه المسامير وليس فيه فتحة ولو صغيرة يمكن النظر منها إلى الخارج. تعجبت، ولكن هذا كان أمراً بسيطاً، فمنذ متى وأنا أعيش في الظلام قبل هذا، ماذا سيحدث في رحلة ساعة أو ساعتين في ديوان، في قطار مظلم، ولم يكن هذا المكان بأسوأ من السقيفة (٥)، أليس كذلك؟ وأخيراً تحرّكنا. وتحت الضوء الضعيف في مصباح كهربائي فوق رأسينا،

جلسنا أنا والألماني جنباً إلى جنب. لم نكن نتكلم. ولم يكن في ذهن الألماني، ولا في ذهني ذلك الموضوع الذي يجعلنا نتكلم فيه. أفكر بالماضي أكثر مما أفكر في المستقبل، لم أكن أستطيع أن أنسى الآذري. وكل الطريق التي مررت بها، تأتي أمام عيني، وفي نهاية كل الطرق كان الآذري بوجهه الدامي يتراءى لي، ألم أتسبب أنا في موته؟ كنت أقول: لا. لكن خروجي من الغرفة، عندما كانوا يسحبونه بالحبال المربوطة برسغيه، عندما كانوا يسحبونه إلى الحلقة الحديدية.. خروجي هذا، ألا يعطيني الإحساس بالذنب؟ كان الألم يعتصرني في ذلك الوقت، لا أستطيع إبعاد هذه اللوحة من أمام عيني.

نزلنا من القطار في منتصف الليل. المكان معتم والمطر يهطل. ابتعدنا عن القطار. الألماني الشاب بجواري. يبدو أننا في سهل. لماذا نزلنا من القطار هنا. أين المحطة؟ ضوء خافت يظهر من بعيد. الرياح تأخذ المطر لتدفعه إلى وجهي وأذني. خرجنا إلى الطريق الإسفلتي وتقدمنا نحو الضوء الظاهر. لاحظت وجود بيت صغير على الجانب الأيمن وعربة نقل كانت تقف بجوار البيت. اقتربنا من سيارة النقل هذه، رأيت في الظلام شكل رجلين. أشعل واحد منهما مصباحاً كهربائياً فجأةً. تقدم الألماني الشاب الذي بجواري نحو الضوء بسرعة. وألقى تحية عسكرية قوية، وقال شيئاً، ثم سلمني لهذين الرجلين ثم عاد إلى القطار.

اللذان تسلماني، جنديان.. كلاهما يحمل رتبة جاويش. كانا طويلي القامة سليمي البنية. كل منهما يرتدي جاكتة مبتلة بالمطر، جلدها لامع. قابلاني وكأنهما صديقان قديمان. أعطاني أحدهما سيجارة، وأشعل الآخر لي قداحة. وركبنا سيارة النقل سريعاً. أريد أن أعرف إلى أين سنذهب وأسأل إلاَّ أن الشجاعة لن تواتنِ. ذلك لأن هذين الجاويشين لم يبديا أي اهتماماً بي. وصلنا إلى المكان الذي سنصل إليه بعد منتصف الليل، وتوقف المطر. وفي ضوء القمر الذي يتحرك بين السحب المرتفعة رأيت بناء كبيراً أبيض اللون، في وسط أشجار السنط. والشيء الذي لا يمكن

أن أنساه أن أومباشياً ألمانياً كان ينتظر سيارة النقل، على درجات سلم البناء وعند نزولي من هذه السيارة أسرع وصافحني شاداً على يدي بحرارة، وأظهر لي احتراماً وأدباً ملحوظين.

تحدث معي بلغة روسية عذبة تتحدثها الطبقة الروسية الراقية. وقال:

- إنها لعادة، أن نستقبل ضيوفنا هنا، ليلاً.

واعتذر لي. نعم لي. اعتذر عن التقصير الذي يبديه في استقبالي. لم أصدق أذني، وأخذت أشك في هذا الأومباشي وكأني فلاح ساذج فقير يتعجب ويقول لنفسه أي عيب يمكن أن يكون في بضاعة رخيصة رخص التراب بل أقل منه قليلاً؟ وبعد المطر كان في الجو طراوة ذات رائحة طيبة. وكان الأومباشي يتحدث بنفس الصوت وبنفس الأدب. سرنا معاً نحو منزل صغير ملاصق لمبنى أصفر. غرفة صغيرة، نظيفة، دافئة، في وسطها مقعد وثير مغطى بالجلد، ومنضدة، في الجانب الأيمن باب.. أشار إليَّ الأومباشي بالجلوس على المقعد وغاب هو خلف الباب الذي في الجانب الأيمن. خفت قليلاً من الأدب، والاحترام اللذين لاقيتهما. وكان لدي إحساس بعدم الراحة. جدران الغرفة وكل أثاثها ينظر إليَّ، وكأنها تراقب كل حركاتي وسكناتي، وكأنّ كل شيء في الغرفة له عيون وآذان لابد أن هذه هي القيادة العامة. تُرى هل يرخصون لي بانتهاء الأسر؟ هل سيسلمون إليَّ الترخيص غداً صباحاً؟.. ربما.

عاد الأومباشي الذي يتحدث الروسية وفي يده ملابس نوم نظيفة وبشكير أبيض كبير. وقال:

- الحمام جاهز يا سيدي. وسأعد لكم الشاي أثناء وجود سيادتك في الحمام. وأرجو المعذرة، لكن غداً سيكون كل شيء على ما يرام. بعد إذن سيادتك.

فتح أحد الأبواب الموجودة في الممر الطويل، وأشار إلى غرفة الحمام، وبعد الحمام شربنا الشاي معاً في حجرة صغيرة. لم أكن أتحدث. عن ماذا أتحدث؟ كان هذا

الرجل ينظر إلى وجهي وكأنه صديق، بنظرات لا معنى لها. لكن البراءة ظاهرة فيها سألته لكي أفتح موضوعاً للكلام، أثناء تناولنا الشاي، فقلت له:

- هل سيادتك روسي؟

قال:

- لا. أنا ألماني.

وابتسم. ابتسم كأنه يخفي شيئاً عني.

- أنا ألماني. ولكن هنا كثيراً من الأصدقاء الروس مثل سيادتك، غداً تتعارفون وتتصادقون.

ثم قال:

- ستسر سيادتك بالإقامة هنا. نستيقظ في الثامنة، نتبع شيئاً من النظام العسكري ولكن لا تنزعج. على كل حال إني أجد سيادتك الآن متعباً. استرح سيادتك وسيستقبلكم القائد في الساعة العاشرة.

نهض وفتح الباب الموجود على الجانب الأيمن. خرجنا. سرنا عبر ممر طويل. ثم فتح باباً آخر. ودخلنا حجرة على امتداده. مصباح كهربائي متقد، أحمر، ذو ضوء ضعيف، على الباب، وفي الداخل حوالي ثمانية أسرة أو عشرة، أخاف بلا سبب ظاهر. لماذا؟ لا أدري. كنت أتذكر وبشوق، سرير التبن الذي كنت أنام عليه في أومان، والرومانيين الذين كانوا يشربون الدخان. من هذا الرجل المغفل الذي معي؟ لماذا يبدي كل هذا الاحترام لأسير مثلي؟ أين أنا؟

أشار الرجل إلى سرير فارغ. قال شيئاً بصوت خفيض، لكني لم أعره انتباهاً. تركني بمفردي، أخيراً. وفي الضوء الكهربائي الضعيف الذي فوق الباب نظرت إلى النائمين على الأسرة. الغرفة صامتة، صمت يخيف الإنسان. وأخيراً، قررت أن أدع

كل مخاوفي وشكوكي، إلى اليوم التالي. فلكل ليل نهار. ولا بد أن كل شيء سيتضح صباحاً. من يعلم؟ لعل القائد يسلمني غداً بعد التحدث إليه، الترخيص في يدي، ليطلق سراحي على الفور!!

مددت جسمي على السرير الأبيض النظيف، الطري، وأغلقت عيني. تداخل في رأسي كل من الأومباشي الرقيق، وأومان، والجاويش شولتس، واليوزباشي بوخ، والآذري. تداخل بعضهم في بعض، ونمت.

يرى الإنسان في نومه أحلاماً مزعجة، فيستيقظ عرقان، ينهض هارباً من السرير ويعيش في خوف غريب حتى يطمئن إلى أن ما رآه، إنما هو حلم فعلاً. إني أعلم مثل هذه المخاوف. إنها كانت مخاوف طبيعية أما خوفي في ذلك الصباح، فكان بالنسبة لي خوفاً مختلفاً تماماً، خوفاً مستمراً يأخذ عقلي من رأسي، كان هو الخوف الحقيقي. لا أعرف مَنْ حولي، ولا أين أنا. كان هذا كابوساً احترت فيه، مرَّ بي وأنا بين الحياة والموت، استيقظت ولم أستطع التخلص منه.

في تلك الليلة نمت في السرير النظيف نوماً مريحاً. وكان عقلي نشطاً عندما استيقظت. كنت أفكر في الأمس. لكن كان في الغرفة حركة. التفتُّ يمنة ويسرة و... تجمدت فجأة. إن الذين يتحدثون بين الأسرة وهم يقهقهون. هؤلاء الذين يتمازحون كانوا روساً. كانوا جنوداً من الروس يحملون في وسط بزاتهم العسكرية الرسمية، مسدسات، نعم، عساكر روس! ضباط روس! هل ما أراه حلم. أغلقت عينيَّ وفتحتهما. لم أكن أستطيع تمالك نفسي. ضابط بملابس بكباشي جلس على حافة سريره يتكلم مع الملازم. وعلى صدر الملازم ميداليات لينين، والعلم الأحمر والنجمة الحمراء. كنت أفكر. لكني لم أعد أتمالك نفسي بوسيلة أو بأخرى.. أين أنا.. ماذا فعلت بالأمس؟ أين نزلت من القطار؟ هل كان الأومباشي الذي تحدث معي بالأمس روسياً!! كلّت عيناي ولم أستطع النظر إلى الضباط ذوي الملابس الرسمية البراقة من حولي. وفجأة، رأيت بين جمع من الضباط الأومباشي المهذب

الذي كان معي بالأمس. تقدم نحوي وكنت كمن يستجمع نفسه، أرتدي ملابس النوم المعروفة. يعني هذا أن ما أراه ليس حلماً. لكن لماذا يرتدي هؤلاء الناس، الملابس الرسمية الروسية! بعد قليل فهمت المسألة.

نظر الأومباشي – وهو بجواري- إلى ساعته، وقال ضاحكًا:

- أظن أن سيادتك قد تناولت قسطًا من النوم. الساعة الآن العاشرة. وسيكون القائد في انتظار سيادتك في الحادية عشرة. وإذا أحببتم فتفضلوا بتناول الإفطار.

قال هذا، وخرج، إن مجيء هذا الرجل وتحدثه معي، مع غموضه هذا، يعطي إحساساً بالحياة، في نفسي، قمت وارتديت ملابسي سريعاً، وخرجت وفي الخارج: الضباط الروس من مختلف الرتب، يتجولون في الحديقة، تحت أشجار السنط، يداً بيد، وذراعاً بذراع. وفي سقيفة في طرف المكان، كان "يوزباشي" يرتدي بذلة رسمية ألمانية، يلقي دروساً على ضباط روس، أمامه. عند مروري بجانب السقيفة توقفت، وأعطيت أذني لما يقوله اليوزباشي. كان الرجل يتكلم باللغة الروسية. لم يعد لدي إذن أدنى شك في أن هذا المكان عبارة عن مدرسة جاسوسية، وأنني موجود بين جواسيس يعملون ضد السوفييت. وبعد ساعة أخذني الأومابشي إلى غرفة القائد. وكانت حجرة مؤثثة بأثاث غال. قابلني القائد وهو يوزباشي وبجانبه روسي أشقر عريض المنكبين طويل القامة يرتدي ملابس بكباشي روسي. استقبلاني بوجه باسم ورقّة حاشية، صافحاني، وأشارا عليَّ بالجلوس على مقعد وثير بجانب المنضدة، وسريعاً، اختفت الرقة التي كانت في وجه الألماني، وسريعاً أصبح هادئاً ولا يرتسم على وجهه أي تعبير. بدأ الروسي وفي يده قلم، وأمامه دفتر، وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة، بدأ في التحقيق:

- اسم سيادتك؟

- صادق.

- لقبكم؟

- طوران.

- الرتبة؟

- ملازم.

- الوحدة؟

- دبابات.

- رقم الجيش واللواء والكتيبة؟

- الجيش السادس، اللواء السابع والخمسون، الكتيبة الرابعة والتسعون.

ترك القلم والدفتر، ونظر إلى عيني، ودائماً بنفس الابتسامة الزائفة:

- أولاً، تفضل سيادتك واختر لك اسماً.

ها هي ذي نقطة فاصلة أخرى في حياتي. هذا الرجل يريد مني بوضوح أن أعمل جاسوساً. وكنت بدوري سأتحدث معه بصراحة، لم أكن خائفاً. لم أكن مثلما كانوا يظنون بي. أنا رجل مختلف عن الرجال الذين حولي. بسيط، لكني جسور. أحسست بهذا في داخلي عندما كنت أنظر إلى الروسي الذي يجلس أمامي. أنظر إلى عينيه الثعلبيتين. فهمت هذا أول مرة هنا. كنت سأنطلق وأصيح وأنا أضرب المائدة بقبضة يدي، وأنا أقول: "لا" وألف مرة لا! لمصلحة من تريدون دفعي إلى النار؟ أنا لست منكم أنا.. أنتمي لأمتي أنا.

كان البكباشي ينظر إلى وجهي وكأنه يقرأ ما يدور بخلدي. كان الروسي يقول أي:

- أي اسم تختاره؟ وكيفما كان: إيفانوف، بتروف، فيدوروف، اختر سيادتك اسماً لنفسك أولاً..

أدور في المقعد أجيبُ جواباً، لكني لم أكن جباناً ولا أبكم. قبل كل شيء، استطعت أن أسيطر على الحدة التي في نفسي. سألني البكباشي قائلاً:

- هل عثرت على اسم، أيها الملازم؟

أقول من المكان الذي أجلس فيه:

- لا. إن اسمي صادق طوران، أنا رجل أفتخر باسمي.

يبدو أن الإجابة لم تكن مأمولة ولا متوقعة . نظر البكباشي إلى اليوزباشي. نظر الروسي إلى الألماني ثم نظر اليوزباشي إلى البكباشي، ثم نظر كلاهما فجأة نحوي وبدأ البكباشي الروسي الكلام.

- حسناً جداً، إذن ماذا تريد أن تعمل وكيف ستعيش؟

- كما عشت حتى الآن.

- يعني أتعود إلى البلشفين وتحارب ضد ألمانيا؟

- أنا لم آت هنا من بين البلاشفة وإنما من معسكر الأسرى في أومان، المعسكر رقم (٢) وأريد العودة إلى هذا المعتقل مرة أخرى.

ساد الغرفة سكون عميق. ليس هناك أي تغيير على وجه البكباشي حتى الآن، لكنه يبدو أنه يمكن أن يكون مخيفاً بنفس القدر الذي يمكن أن يكون رقيقاً. أما أنا، فلم أكن أهتم، لم يكن الذي يسيطر عليَّ هو عقلي، وإنما إحساسي. وكنت سأقول كل ما أريد قوله.

- أرسلوني، أرجوكم، إلى المعتقل، مرة أخرى.

- انحنى البكباشي على أذن اليوزباشي وهو يقول شيئًا، ثم التفت إليَّ، وقال:

- اسمع يا ملازم، لا يمكن لأحد هنا أن يذهب إلى حيث يريد. وليس لأحد أن يعمل ما يرغب في عمله، لا تنس هذا، إن أصل ما أريد قوله لك، لشيء آخر، أنا لست ألمانياً. كما أنني لا أعمل لمنفعة ألمانيا فقط. كل الذين رأيتهم هنا، مثلي.. ونحن أيضًا لنا وطننا ولسنا سيئين، كما تظن بنا. إن حكومة ألمانيا ستعطيك مقابل أعمال بسيطة تقوم بها، مالاً كثيراً. واعلم أننا نرسلك إلى البلشفين، سنعيدك بعد شهر أو شهرين إلى هنا. مرة أخرى في ذلك الوقت، ستعيش بهذه النقود كما ترغب، وفي أي مكان من ألمانيا تحبه.

قلت مقاطعاً كلام البكباشي الروسي:

- إذا استخدمت الحكومة الألمانية هذا المال، في مكان آخر، فسيكون أكثر نفعاً.

نهض البكباشي فجأةً واقفًا على قدميه، وقال وهو يضرب المنضدة بيده، صائحاً:

- بلشفي، بلشفي أحمر! إننا نعلم كيف نتحدث مع أمثالك.

كنت أعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. لكني كنت أتوقع هذا من الألماني أكثر مما أتوقعه من الروسي. فأجبت من حيث أجلس وبنفس الصوت:

- لست بلشفياً، إني أشمئز من البلاشفة، لكني لست مجبراً على العمل في سبيل منافعكم.

ضحك ضحكة خبيثة وقال:

- لا! أنت مجبر بالفعل، مجبر لإنقاذ حياتك. هل تعرف أن هذه الحياة تكلف كثيراً.

- ومن قال أني أريد إنقاذ حياتي.

- بالطبع، إن قيمة الساق الخامسة في جسم كلب، تعادل قيمة الروح في إنسان يعيش في الأمن والسلامة.

وفجأة ارتفع صوته وقال:

- لكن إذا وقعت الروح في خطر، فإن المسألة تختلف كلية.

سألته وأنا أقف في مواجهته كالحجر:

- ماذا تريد أن تقول؟

لوى طرف شفتيه بضحكة قبيحة، وومضت لمعة من عينيه الخضراوين وعاد يتحدث بصوت هادئ:

- ألم تفهم بعد أيها الملازم؟ إني أثق وأؤمن بقول: "بقدر ما تدخل الغابة بقدر ما تجد من حطب".. تعال ولنتحدث قليلاً. لنتحدث بتفصيل أكثر. أنا واثق أننا سنصبح صديقين. أنا لست خائناً ولست إنساناً سيئاً كما تظن.

أخرج من جيبه علبة سجائر. وقال:

- ليدخن كل منا سيجارته من هذه العلبة، هل تعرف اسم هذه السجائر؟ أقول لك أنا: اسمها: قاي بك. منذ متى ولم تدخن القاي بك يا ملازم؟

وكان هذا أيضاً سؤالاً. فقلت له باختصار:

- لم أدخنها قط.

- يعني ألم تدخنها قبل الحرب، في روسيا، أو بتعبير الحمر، روسيا السوفييتية؟

- لا.

- لماذا؟

- لأن ميزانيتي لا تسمح بذلك.

ضحك وقال:

- بعد ذلك يا ملازم ستدخن السيجارة التي تحبها وستشرب الشراب الذي ترغبه ومن يدري أيضاً، ربما ستلهو أيضاً مع المرأة التي يرغبها قلبك.

- كل هذا سيكلف ألمانيا كثيراً.

- أنت ترفض حياة هانئة.

- نعم.

- تريد العودة إلى المعتقل والقمل والعذاب والاضطراب.

- نعم.

- عصا الشرطة وخمسون جراماً من الخبز المليء بالتبن والحصى والزلط. لن تستطيع التحمل يا ملازم. لن تستطيع التحمل.

- هذه مسألة خاصة بي. أريد أن ترسلوني مرة أخرى إلى المعسكر.

- اطلب ما تريد. لكننا سنطلب حقنا منك.

صمت. وقال بعد قليل:

- ليس في هذا إجبار أيها الملازم. ربما نعيدك كما ترغب إلى المعتقل.. إلى المعسكر.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- عليك أولاً أن تدفع الدين الذي عليك.

لم أنبس بأي صوت عقب هذا، فكرت أنه يسخر بي. نهض البكباشي بهدوء من على مقعده، ونظر بضع ثوان إلى السقف، ثم ركّز عينيه على عينيّ. وقال:

- لم تسألني أي دين هذا؟

فهززت كتفي.

قال:

- أذكرك إذا أردت.

- ليس عيباً تذكير المدان بدينه.

- أخاف أن تكون نسيت. استمع: عندما كنت في السقيفة رقم (٥) كنت تعرف عقوبة الأسير الذي يهرب من المعتقل. أو الذي يريد الهرب. أليس كذلك؟ أنت هربت وقبضوا عليك. ولكن لم يأخذك أحد إلى حافة الحفرة ولم يسدد أحد الرصاص إلى رأسك. كل ما هنالك أنك نمت في السجن ثلاثة أيام فقط. ما أتفه هذه العقوبة. ثم أيضاً وأنت في السقيفة رقم (٥) وبينما كان عزرائيل يمسك رقبتك. أنقذك أحد أصدقائنا. أخذك إلى جواره وقدم لك الطعام والشراب وأعطاك عملاً. هل تذكرت ذلك الطبيب؟!

كان الروسي يقول هذا وأشعر كأنه يثقب داخلي بمثقاب. كنت أسمعه لكن من ناحية أخرى كنت أرى الطبيب الذي كان في السقيفة رقم (٥) بعيني المغلقتين.

- هذا الكلام هزك قليلاً على ما يبدو. لم تكن تتوقعه. أليس كذلك؟

لم أجب جواباً. قال:

- آه. هذا شيء بسيط، أتحدث به إليك كما يتحدث الصديق إلى صديقه. أعلم أنك رجل طيب. ولو لم تكن كذلك لما أخرجك الجاويش شولتس من المعتقل. ولم يكن اليوزباشي بوخ، ليرسلك إلى هنا. هذه أمور هينة.

كادت مرارتي تنفجر خوفاً من أن يتحدث عن الآذري.

- هل هناك شيء أكبر من هذا؟

وبلمعة خبيثة في عينيه قال:

- أكبر من هذا وأهم هو: الحرب. سينتهي الألمان من هذه الحرب خلال شهرين أو ثلاثة، لكن هذا يمكن أن يحدث فقط بمساعدة منا نحن الروس.

سكت، ومرة أخرى، لف الغرفة صمت عميق. كنت أنتظر لعل الألماني يتكلم كنت أريد أن يتكلم. كنت أنظر إلى وجهه وكأنني آمل منه العون.

استأنف البكباشي كلامه قائلاً:

- ولهذا، فإنك في هذا المكان.

صحت به قائلاً:

- لست أنا بالرجل الذي تبحث عنه، أيها البكباشي!.

لم أستطع أن أفهم كيف خرجت من فمي هذه الكلمات. لذلك دهشت. لكن البكباشي لم يتأثر بكلامي هذا. واستمر بصوته الطبيعي وكأنه يتحدث إلى صديق من أصدقائه وقال:

- لا تجب هكذا كالأطفال أيها الملازم! إني أتحدث إليك حديثاً جاداً. إذا قلنا أن الحرب ستستمر، فلن تستمر أكثر من شهرين، لكن لابد من عوننا في هذا. هل فهمت؟!. مساعدتنا واجبة. اليوم، إيفان فقط هو الذي يحارب ضد المدافع والطائرات

والدبابات الألمانية. إيفان هو مفتاح كل الجبهة، بل ربما إن الحرب كلها هي إيفان. أفصل إيفان وأبعده عن ضابطه وكوميسيراته، فسترى أن مئات الآلاف سيسلمون إلى الألمان فوراً. والكرجي أبو شنب يدفع بملايين الروس إلى ميادين الحرب ويتصور أن الألمان لا يستطيعون قتلهم جميعاً. الجندي الروسي جسور. وهذا معلوم والروس يحاربون في سبيل الوطن. ولكن هل حقيقة أنهم يحاربون من أجل الوطن؟ إيفان المسكين ليس أحمق. وليس لديه أيضاً أيمان باطلة. يجب أن ندخل بين شعبنا. علينا شرح الحقيقة لأتباع إيفان المسكين. فإذا شرحنا الأمر للجنود، وإذا بعد هؤلاء الجنود عن الكوميسيرات، فإن روسيا في ذلك الوقت..

- حسناً جداً! يا سيدي البكباشي، ولكن ما دخلي أنا بكل هذا؟

- ما دخلك؟ مسألة بسيطة للغاية. رتبتك اليوم ملازم، أليس كذلك؟ أنت في بلادنا روسيا بكباشي، ربما أيضاً جنرال.

- شكراً، فأنا لست روسياً.

- وما الضرر في هذا؟ انظر كيف يعاني الأوزبك وهم في أسر الروس. ستبدأ حياة جديدة للأقليات مثلكم في بلادنا روسيا..

- إني لا أستطيع مشاركتك في أحاسيسك هذه سيدي، بعد هذا، كلانا: يعني أنتم ونحن، كل منا سيريق الدماء في سبيل وطنه. ما عاد كلامكم ولا لونكم يدفعاننا إلى تصديقكم يا سيدي البكباشي.

كنت أنا قائل هذا الكلام. لكني لم أكن وحدي. بل كانت أرواح الموتى أيضاً تجري على لساني في صوتي. امتقع وجه البكباشي. نظر إلى الألماني ودون أن يتكلم. وبماذا كان سيجيب؟ قلت ما كنت أريد قوله، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. لماذا سمح الألماني أن أتكلم بحريتي كل هذا الوقت؟ هل لأنه فكّر في عقوبة ينزلها بي

بحيث توقفني عند حدي؟ انحنى الألماني على المائدة ليتحدث مع البكباشي الروسي وسريعاً خرج الروسي من الغرفة ووجهه ما زال ممتقعاً. وبقيت بمفردي مع الألماني. كان هذا اليوزباشي يتفحص الأوراق فوق المنضدة بهدوء، وكأنه يكرر في داخله ما سيقوله. وكان حاجباه مقطبين، وأخيراً، نظر إلى وجهي وهو يرفع وجهه من على الورق، سألني قائلاً:

- لماذا تكره الروس؟

أيمكن للألمان أن يفهموا أحاسيسي الوطنية؟ أيمكن أن يفكر هؤلاء في أمتي؟

قلت له ببساطة:

- ولم أحبهم؟

لم يجب. وكأن محادثتنا قد انتهت. لم يعد إلا طرق طريق آخر كان لابد من طرقه وقد فعل. تكلم وهو يقف على الكلمات، تكلم رويداً رويداً، كأنه يزن بدقة، في الميزان، كل كلمة تخرج من فمه. قال:

- ألمانيا تنتهج سياسة خاصة تجاه روسيا. إننا ننظر إلى الروس نظرة معينة وننظر إليكم نظرة مختلفة.

صمت برهة. إن هذا الذي تكلم به إنما هو مقدمة لما سيقوله على ما يبدو. كنت أستمع بدقة.

- إن الحكومة الألمانية، ترغب في أن تنفصلوا عن روسيا، ويكون لكم وطنكم المستقل. لَمَسَتْ هذه الكلمات التي فاه بها اليوزباشي نقطة حساسة في نفسي. لم أتمالك نفسي فسألته قائلاً:

- وكيف؟

- تفكر حكومتي - كخطوة أولى في هذه الطريق - في تكوين جيش من التركستانيين المعتقلين في معسكرات الأسرى.

ثم ساد الصمت مرة أخرى. ثم سألني:

- ما قولك في هذا؟

- لا يملك الإجابة عن هذا - إلا أمتي - سيدي اليوزباشي. لابد أن تجيب أمتي كلها عن هذا.

قال بصوت حاد قليلاً:

- أنا لا أوجه هذا السؤال إلى كل شعبك. أنا أوجهه إليك أنت فقط. أجب عن هذا.

- أنا شجرة في كل الغابة. إذا انحنت الأشجار أمام الرياح، انحنيت أنا في نفس الاتجاه.

- كل التتار في القرم اشتركوا في الجيش الألماني ويحاربون ضد الروس. إن الأمة التتارية أمة فدائية حقاً. لقد قدموا الضحايا بالآلاف في سيفاستبول. افترض أنك اليوم في القرم وشعبك يحارب في سبيل استقلاله، فماذا يكون موقفك أنت؟

- أحارب كما يحارب شعبي ضد أعدائنا.

- إن الأمة التي تستطيع حمل السلاح، هي الأمة التي تعيش مستعدة للدفاع عن وطنها أيها الملازم.

مد يده وشدّ يدي، ثم قال وهو يغوص في مقعده:

- لن أرسلك بين الروس. عد إلى المعسكر والمعتقل. ولكن باسم جديد وبشرط ألاّ تحدث أحداً عما رأيته هنا. وسيبقى ما رأيته هنا سراً حتى آخر حياتك. والذي لا يعرف كتمان هذا السر يجب أن يعرف أن ألمانيا حكمت عليه بالإعدام.

قال ما قاله، تناول قلمه، وانحنى على المنضدة وسألني:

- اسمك الجديد؟

- كمال، صادق كمال.

كتب اليوزباشي أشياء كثيرة وطويلة على الأوراق التي أمامه؟ هل ما كتبه يعتبر أول سطر في رواية حياتي الجديدة؟!

خرجت من الغرفة وأحسست في نفسي بعد هذه المحادثة بأنني مسكين جداً. وفي اليوم التالي وقبل أن أعود إلى الأسر، قابلت البكباشي في الحديقة توقف وهو يمر من جانبي، وقال:

- رفضتنا. سترتدي بعد ذلك بدلة العدو وتحارب.

ولم أستطع فهم ما أراد قوله، إلا بعد أسبوعين.

خرجنا من مدرسة الجاسوسية في منتصف الليل، وبعد ثلاث ساعات نزلنا من سيارة نقل، لنركب القطار. كل ما كنت أطلبه هو ألاّ أظهر أمام الجاويش شولتس واليوزباشي بوخ.

وصلنا إلى "فينتسا" قرب المساء. كنت سعيداً لأننا غير ذاهبين إلى أومان. وقفنا بجانب الأبواب ذات الأسياخ الحديدية. سلمني الألماني الذي بجواري، إلى الحارس الذي يقوم بالمناوبة أمام الباب. كان الجندي المناوب هذا، ينظر إليّ بين الفينة والفينة، نظرات شديدة، لكنه لم يكن يتكلم، عاد الألماني الذي أحضرني من هناك. عاد بعد نصف ساعة. فتح الحارس المناوب الأبواب. دخلنا المعسكر. وكما هو

حادث في معسكرات أومان وكيروفجراد: أغلب الأسرى في الميدان خلعوا ملابسهم وأصبحوا عراة تماماً أمام الحفر. كانوا مشغولين بقتل القمل الموجود في قمصانهم. اجتزنا الميدان. ما زال الألماني يسير معي. دخلنا معاً إلى سقيفة نظيفة. سقيفة شرطة. أشار نحو سرير. قال لي ألا أبتعد عن السقيفة وإنه سيلقاني هنا صباح الغد. قال هذا ثم ذهب وتركني في حيرة. كلماته أشعرتني بالأمل كما أشعرتني بالاضطراب فكرت طويلاً عما سيحدث غداً. ولماذا سألتقي بالألماني مرة أخرى.

نمت تلك الليلة مع الشرطة الأوكرانيين في السقيفة. جاء الألماني في الصباح التالي مبكراً، وأخذني إلى المطبخ. قدم لي طعاماً. ثم خرجنا من المعسكر واتجهنا إلى محطة القطار.

دخلنا "فلاديمير فولينك" ليلاً، سرنا إلى المعسكر سيراً على الأقدام. حدثني الألماني الذي معي قائلاً: إننا سنبيت هنا، ليلة واحدة فقط، وغداً سنواصل الحركة إلى مكان آخر. وعندما سألته إلى أين، اكتفى بهز كتفيه. نمت في هذه الليلة في سقيفة الشرطة. وفي الصباح الباكر تركنا فلاديمير فولينك، وقضينا يومنا كله في القطار.

كان الجو على وشك الاكفهرار عندما دخلنا معسكر أوستروف. الأنوار الكاشفة في أبراج الحراسة خارج المعسكر، تمشط أسقف السقائف كأنها أيدٍ طويلة مرعبة. ولم يكن هناك صوت غير صوت هطول الأمطار المستمر بلا توقف. هناك عدة عربات بدون جياد، وعدة براميل فارغة خلف السقيفات الخشبية وهذا ذكّرني بنهاية يوم السوق في آق مسجد. دخلنا إحدى السقيفات. نظر الألماني الشاب المسلح إلى وجهي، وصافحني يداً بيد، بمودة صديق، وخرج من السقيفة.

كانت السقيفة ضعيفة وطويلة. وهناك ثلاثة أسرى أو خمسة يلعبون الدومينو، على منضدة موجودة في نهاية السقيفة. على أشعة ضعيفة صادرة من شمعة الأسرة على اليمين وعلى الشمال، فارغة. تقدمت نحو الضوء، كان أربعة من

القيرغيز يجلسون. يقول واحد منهم للرجل الواقف على قدميه، دون أن يرفع رأسه عن اللعب:

- ألا أشرت لهذا الرجل، إلى سرير، يا آق صقال!

سألته:

- ألا يوجد بينكم أحد من التتار، يا عزيزي؟

قال القيرغيزي الذي يقف على قدميه:

- لا أحد من التتار هنا.

وقال الرجل الآخر دون أن يرفع رأسه أيضاً من على اللعبة:

- كل الموجودين هنا تركستانيون يا أخي. لا يوجد تتاري ولا قيرغيزي. فالكل تركستاني من الآن فصاعداً. ألم يقل هذا طوقاي بك الذي جاء يوم أمس من برلين؟ أين كنت؟ قال لنا، وما أجمل ما قال: "كلنا تركستانيون" ، "إخوة في الدم" إنه رجل محبوب. وسترى أنه ذات يوم سيحرر الشعب من البؤس، ولن يترك في أرض تركستان أي أثر لقدم كافر روسي.

ابتعدت أنا وآق صقال عن اللاعبين، قال آق صقال وهو يجلس على سرير من الأسرة:

- الأسِرّة كثيرة يا أخ، نم على أيّها.

كررت سؤالي قائلاً:

- هل كل من في السقيفة، تركستاني؟

- المعسكر، معسكر تركستاني، كان عددنا قبل ثلاثة أشهر، يزيد على الستين ألف رجل. أما الآن فبقينا ثلاثمائة.

- ماذا حدث للآخرين؟

- أصبحوا جنوداً.

- جنوداً؟

- نعم جنود. هل أنت جديد؟

- نعم جديد. جاؤوا بي من أوكرانيا. الوضع هنا؟

- لا بأس به.

- الآخرون: أي جند أصبحوا.

- جند تركستان. أظننت جنداً روساً؟ بالطبع جند تركستانيون يرتدون ملابس عسكرية ألمانية، لكنهم تركستانيون. منذ شهر جاء رجال من برلين. كان بينهم من يعرف الألمانية ويتكلمها بطلاقة. جمعونا في الميدان، وخطبوا فينا خطباً نارية. دعونا إلى السلاح للحرب في سبيل حرية تركستان. ونحن بدورنا. أقسمنا على تطهير بلادنا من الكفار ومنذ ذلك اليوم والمعسكر بدأ يقل يعني يقل عدد من فيه. ونحن، سنسافر اليوم أو غداً لنفس المهمة.

وحتى الصباح، كنت أفكر في حياتي الجديدة، الأماكن التي سأذهب إليها والأشخاص الذين سأراهم. أحسست في نفسي بالمعنى المقدس العظيم لاستقلال تركستان، فسّرت كلمات آق صقال، كنت أريد أن أجده وأتحدث معه عن استقلال تركستان. إلا أنني في صباح اليوم التالي وجدت أن لم يبق في نفسي مكان للسياسة، عندما رأيت أمام باب المطبخ رجالاً مساكين نحيفي الأجسام، ينتظرون وفي أياديهم علب صفيح قديمة صغيرة. إن الأيام التي عاشوها جعلت الحياة حملاً ثقيلاً لا يقدرون عليه. كانوا يسيرون بين السقيفات وكأنهم خرجوا من القبور يبحثون عن آثار حياتهم التي فقدوها في الدنيا. هل يمكن أداء عمل عزيز لشعبنا

بواسطة هؤلاء الناس؟ أقول: لا يمكن. ولكن كم كنت ضيق الأفق لم أكن أثق بالغير لأني كنت لا أثق بنفسي. لأني حتى الآن لم أر غير ظلم الحياة ومجموعات من المساكين سحقتهم الحياة، ومضغتهم بين زوايا السقائف وفي الطريق وفي الوديان. جاء يوم ولم أصدق أبداً أن نفس هؤلاء الناس سينهضون ذات يوم لينثروا النار على الأماكن التي مروا بها، ورقدوا فيها يئنون. لم أصدق البتة أن هؤلاء يستحقون الحياة، كما تستحقهم الحياة اليوم، ولا أنهم سيهزون الأرض وأجواء الفضاء بأناشيدهم:

إلى الأمام.. إلى الأمام

يا جنود تركستان

نموت في سبيلك

يا أرض تركستان

هل استمر هذا حتى الآن. لا أعرف. لكننا سنفعل هذا.

سنحققه، سنلقي بالحياة تحت أقدامنا، ندوس عليها ونسحقها، نحن سنعرف كيف نحتقر الحياة! سنموت. ولكن ما الضرر؟ فمن يأتي بعدنا سيفعل نفس الشيء، وسيسير في نفس الطريق سيخلد اسمنا. ولو توقفت الدنيا فسنحيا نحن. كم كنت قصير النظر؟

سأغير عقلي بعد الآن، أبدأ مع هؤلاء الناس حياة جديدة، حياة تحيي أرواحنا إلى الأبد. سأنسى آلام الحياة التي عشتها حتى الآن. سأعيش من أجل تركستان وفي سبيل استقلال تركستان. سأحارب. وسأموت. وستلمع في هذه الغاية المقدسة - من الآن - في آفاق حياتي كالنجمة. متعب أنا، لكني حتى آخر نفس في حياتي وحتى آخر نقطة دم في جسدي.

- كيف؟ ومع من؟

- مع هؤلاء.

- أمع هؤلاء الأوزبك الذين يقفون على أبواب مطبخ المعسكر يمدون أذرعهم الشبيهة بالعصي؟ هؤلاء الجهلاء وأنصاف المقعدين الذين يبكون طلباً للخبز؟!

- نعم. مع هؤلاء.

- بالبذلة العسكرية الألمانية؟

- من أجل تركستان.

- ما هي تركستان؟

وطننا الجميل الذي يئن تحت أقدام أعدائنا.

- هل تسمي الأوزبك والقيرغيز والقازان والتركمان: تركستانيين؟

- فلتوقظ أكاذيب أعدائنا الفظيعة الوحدة في قلوبنا بدلاً عن الشك.

- من الآن، لكم ما لكم، ونحن سنقدم دماءنا في سبيل تركستان.

- ستخنق روسيا المستقل - أياً كان لونها - كل أفكارنا في الاستقلال.

- ولأننا ندرك هذا، فسنتحرك واضعين كل شيء نصب أعيننا.

- استقلال تركستان! هل فكرتم في معناه ونتائجه؟

لم نفكر. إننا أحسسنا بهذا في قلوبنا، ونشعر به.

- إن الظن بأن بضع الآف من القيرغيز وثمانية آلاف أو عشرة من الأوزبك، يمكن الحصول بهم على الاستقلال، أليس هذا خيال الشباب السذج مثلك؟!

- ربما.

- هل يمكن لخيالكم هذا أن يحقق الاستقلال أمام جيش روسيا الذي يدهش العالم اليوم؟

- اسكت! فليكن هذا خيالاً! ليكن ما يكون. ما الضرر منه؟ أليس من أجل تركستان؟

خرجنا من استروفا بعد أسبوع. ومنذ ذلك اليوم بدأت التعبئة في سبيل الاستقلال الذي سيطر على تفكيرنا ومن يدري فربما أيضاً الاستقلال الذي تخيلناه. مثلما قال لي ذلك الصوت الذي كان يحدثني.

يتقدم الألمان المسلحون من على يميننا وعن شمالنا. يصيحون أحياناً. لكنا كنا نتقدم دون أن نسمع شيئاً، سعداء، تحوطنا الآمال.

كان يسير بجانبي: آق صقال، الذي تعرفت عليه أول ليلة قضيتها في أوستروفا. عرفت اسمه بعد ذلك، اسمه خوشنود. وكان طويل القامة، عريض المنكبين، كبير العظام، قوياً، شديداً، أثق أنني لو نسيت كل شخص في الدنيا، فإني لن أنساه أبداً. كان أصدقاؤه يطلقون عليه - أي "خوشنود" - لقب آق صقال، بمعنى صاحب اللحية البيضاء، لأنه كان أكبرنا سناً، كان في الخمسين من عمره. لكنه كان يفتخر بعمره إلى درجة ملحوظة. عندما كنا نسأله عن عمره، كان يقول ضاحكاً:

- أحمل في قفاي بلطتين.

يعني أنه كان يريد أن يُعلي سنه من خمسين إلى خمس وسبعين.

لا أدري لماذا أحسست أن خوشنود قد أصبح في هذا الوقت القصير، قريباً إلى نفسي، كنا دائماً معاً ولأني كنت أعرف الألمانية، ولهجتي التركية القرمية تشبه اللغة التركية في تركيا، ولارتباط أتراك القرم إلى آخر درجة باستقلالهم، كنت أشرح

بفرحة وبفخر تاريخ القرم وماضيه العظيم وكان خوشنود ينظر إليّ نظراته إلى مثقف وإلى شخص من النخبة الممتازة بسبب استخدامي تشبيهات براقة.

كان يتحدث عن نفسه قليلاً، علمت بعد ذلك أنه سمرقندي، خرج من بلاده قبل خمس عشرة سنة، أو على الأصح أخرج من بلاده. لا يتحدث عن عمره وأين قضاه، لكنه كان يقول إنه عاش منذ خمسة عشر عاماً في سبيل هذا اليوم.

كان ينتظر في المعسكر بنفاذ صبر، يوم التحرك إلى الجبهة، كان يجلس بعد التدريب في أيام الجمع، تحت ظل شجرة صنوبر، وفي يده مسبحته، يدعو كثيراً وطويلاً. كان في نفسه ألم دفين وعميق. ولم يتحدث لي قط عن ألمه هذا. افترق بعضنا عن بعض شتاء ١٩٤٤. من يدري أين هو الآن؟

عندما كنا ندخل ليجيونوفا، كنت في نهاية الطابور. ليجيونوفا قصبة تقع على بعد عشرين كيلومتراً من وارسو. وفيها خرج جمع من الناس أمام محطة القطار، وفي الدكاكين والمنازل والأبواب.. كان الناس ينظرون إلينا نظرة عداء، كنا نتقدم في شارع إسفلتي فخم يتجه إلى الشمال، مفترقةً معبَّد بالأحجار، وبعد قليل ظهر أمامنا جنود يتجهون نحونا. كل بندقية من بنادقهم يعلوها سلاحها الأبيض، يحملون البنادق على الأكتاف، كانوا وحدة منتظمة مكونة من جنود منتصبي القامة، سليمي البنية سمر اللون. وبينما يمرون من جانبنا إذا بهم ينطلقون وينشدون في نفس واحد نشيداً يقول:

وطني الحبيب

بالروح نفديك

أثارني كثيراً هذا الإحساس بالوطن، أثارني حتى لم تعد عيناي تريان شيئاً. وأصبحت وكأني اختلطت وامتزجت بهذه الأصوات. وبعد قليل أحسست بيد خوشنود على كتفي وكان يقول:

- انظر يا صادق بك! انظر أخيراً. لنا جنود. جنود تركستان. لا أدري كيف أشكر الله على منحه لنا نحن أسرى الأمس، شرف رفع أعلامنا.

مرت من جانبنا وحدات أخرى. كنا وكأننا ولدنا من جديد. كنا نهز أيدينا نحو الجنود. أما هم فكانوا وكأنهم لا يروننا. وجوههم متشددة، يتقدمون دوماً دون أن ينظروا إلى ما حولهم. صاح واحد بجواري بحماسية وانفعال قائلاً:

- يا جنود تركستان يا جنود الاستقلال.

فقال قيرغيزي ذو رأس كبير:

- أي استقلال هذا الذي تقول به؟ إن عقلي في بطني. أشبعني، وسترين أيتها الرؤوس الصفراء.

- ما هذا الخلط: هل أنت كافر؟ أليس عيباً هذا الذي تقوله؟

أجابه القيرغيزي:

- ولم العيب؟ هل يطعمنا الألمان مجاناً؟ بالتأكيد لهم منفعة.

كانت السماء عالية وزرقاء. أصوات التدريب العسكري وأصوات السلاح. والأوامر الصارمة من خلف السياج الحديدية الممتدة من جانبي الطريق. ومازال الجنود يخرجون من الأبواب الموجودة على الجانب الأيمن. الجنود الذين ولدوا من الدم والنكبة. الجنود الذي ولدوا بين أحضان الموت. إني أقسمت على الحرب معكم في سبيل وطننا. عشت مع بطولاتكم ومع سيئات أعمالكم. لكني مؤمن اليوم إيماناً صادقاً أن كل ما قمتم به كان في سبيل وطننا.

دخلنا ميداناً واسعاً. دخلناه من الأبواب الحديدية اليمنى. كان في طرف الميدان مبنى من الطوب اللبن. وكانت وحدة عسكرية ألمانية بجانب المبنى تنظر

إلينا يبدو أنهم كانوا ينتظروننا. توقفنا عندما اقتربنا من الألمان. صاح واحد من بينهم قائلاً:

- اخلعوا الملابس التي ترتدونها، واتركوها على الأرض.

- وهل نخلع ساتر عوراتنا أيضاً؟

- نعم، وساتر عوراتكم أيضاً. لا نريد قمل روسيا أن يوجد في جيش تركستان هيا تحركوا كجنود.

تركنا على الأرض ملابسنا القديمة المقملة، ودخلنا الحمامات. وبعد الاغتسال وزعوا علينا الزي العسكري الألماني. يبدو أننا كنا مضحكين كثيراً ونحن نرتدي هذا الزي دون أن نقيسه على أجسادنا. لكنه أيضاً لم يكن أسوأ من الزي الروسي. أليس كذلك؟.. أشعل الجنود الألمان، بعد قليل، النار وسط الميدان، أصدر الضابط الذي يعرف الروسية أمره بالوقوف بجانب الزي العسكري الروسي الذي تركناه على الأرض ولا أدري لماذا، وحدث ذلك بين ضحكات الألمان الشباب، نفذنا ما أمر به، وبدأ الضابط في كلامه:

- انتهى أسركم. ونحن نؤمن بأنكم معنا. ستطهرون بلادكم من أعدائكم. إننا نثق بأنكم ستحمون شرف هذا الزي الألماني الذي ترتدونه والذي أودعناه أمانة لديكم ستحمونه كالألمان تماماً.

كان الضابط يتحدث وسط سكون عميق. أتذكَّر أيامي القديمة وأنا أنظر إلى بذلتي العسكرية القديمة وهي تحت أقدامي. ترى هل يمكنني أن أطرح ماضيً من نفسي مثلما خلعت هذا الزي وطرحته أرضاً؟.. في تلك اللحظة مر أمام ناظري كل من: كرانسوي وسليمان، ومصطفى، وعثمان، وطريق كيروفجراد - أومان، والآذري، نعم!! انتهيت من قسم في كتاب حياتي وبدأت قسماً جديداً فيه.

انتهى الضابط من كلامه. نظر أولاً إلى النار المتقدة في وسط الميدان، ثم نظر إلينا، وأخيراً نظر إلى ساعته وقال:

- والآن: سنجري! كل واحد منكم يأخذ الزي البلشفي في يده، ولنر من منكم سيلقي هذا الزي في النار. أولاً، هل أنتم مستعدون؟

ألقينا بملابسنا الموجودة تحت أقدامنا، إلى النار. وكان الألمان ينفجرون من القهقهة. كان لابد أن تسعدني هذه الحادثة. لكن الذي حدث أنها أصبحت وكأنها مست جرحاً في نفسي.هل لأن جريشة وسليمان تراءى لي أمام عيني؟ هل لأن الألماني الذي أعطى إشارة بدء السباق ذكرني باليوزباشي بوخ وإصداره للأوامر أمام مبنى القيادة في أومان؟... لا أدري.

(٩)

روما، في ١٩٤٦/٨/١

روما، في هذه الأيام حارة. حارة مثل جهنم، واليوم خانق وطويل. والشمس في السماء المبيضة، تبدو وكأنها تريد أن تذهب بحدتها الأرض والحجر. أخرج من

غرفتي لأذهب إلى الطبيب أريد أن أصدق أن حرارة الجو هذه الأيام، هي السبب في تعبي. الليل يضايق كثيراً. لكني أستسلم رويداً رويداً للأرواح الطلسمية لهذه الليالي. لا أستطيع أن أشرح ما يدور بذهني، حتى الطبيب. قال الطبيب إن هذا شيء مصيره الانتهاء. ربما..

عندما كنت أنزل من على أدراج السلم أمس، رأيت اثنين من الشرطة العسكرية الأمريكية، ارتعشت من خوفي، وكأني طفل صغير. جريت نحو غرفتي واختبأت بها. بل وأغلقت الباب عليَّ بالقفل. وأخذت مكاني أمام النافذة. إذا أراد أحد دخول غرفتي عنوة فإني كنت سألقي بنفسي من النافذة. إني أعرف سبب هذا الخوف. لم تستمر ارتعاشتي طويلاً، بل إني ضحكت. إني أخاف كلما رأيت واحداً يرتدي بذلة رسمية. وكأن الحكومة الأمريكية قد أمرت كل جندي في الشرطة العسكرية الأمريكية، بأن يقبض على صادق طوران، لأنه أدى الخدمة العسكرية في الجيش الألماني، حتى يسلمه للروس! ومع كل ذلك أخاف. ولا أستطيع النظر إلى وجوه الناس خوفاً.

رأيت الليلة الماضية - فيما يرى النائم - أني تجولت في الظلام حتى الصباح في مقبرة، والمقبرة جديدة، والقبور جديدة، والمقبرة قاحلة لا خضرة فيها، والقبور بلا شواهد. ويأخذ شيشكوف من جانب كل قبر، زياً عسكرياً، ويمده إليَّ، ثم، ولا أدري كيف حصل هذا، اختفى فجأة من أمام عيني. أخذ قلبي يضرب بشدة، وأخذت في البحث عن شيشكوف جرياً من قبر إلى قبر. ولم أجده. ثم، إذا بي وكأني أرى ضوءاً بعيداً فجريت إلى هناك. أخذ الضوء يتحول إلى شجرة، شجرة جافة بلا أوراق، وشيشكوف يقف تحت الشجرة وقد وضع ذراعيه على صدره. يقف صامتاً بلا حركة. كان ينظر إلى ساقي عيسى عليه السلام وهو مصلوب على الشجرة. وينزف دم أحمر من عيني سيدنا عيسى المفتوحتين الكبيرتين المضطربتين، ثم ينزل هذا الدم ويسيل على رأس شيشكوف الحليق.

كان الطبيب يقول: إن الأحلام مهمة جداً، يقول لي تذكر ما تراه في حلمك. واحكه لي، فربما نفهم شيئًا عن السر في خوفك. ولكن هل أقص عليه حلمي؟ ماذا لو كان هو نفسه رجلاً من الروس! لا. إنه طيب القلب، رجل نظيف. إنه يستمع إلى أحلامي وحكايات حياتي منذ وقت طويل، لماذا لا يستطيع أن يجد حلاً لتعب ذهني ولارتعاش جسمي؟ يقول لي الطبيب لابد أن تثق بي. فأنا طبيبك.

يقول إنك تعيش اليوم داخل خوفك. يقول: ولكن لا تبال! لا تقلق فكل شيء يمر مثل الحكاية، مثل الحلم، ثم يُنسى. يقول لي الطبيب: أقبل على الحياة كما هي. وأنا بدوري أريد أن أقبل على الحياة كما هي. لم أنس بعد، الحياة التي عشتها حتى الآن. أتذكر جيداً كل شيء. وأرى كل الطرق التي مررت بها. بل إني أحب الحياة! أنا تتاري. وطني القرم. هناك وُلدت وهناك كبرت. وأصبحت عسكرياً. حاربت ضد ألمانيا وفي أحد الأيام وقعت أسيراً. أسرت مدة عام. والحياة صعبة في الأسر. والحياة فيه كانت عذاباً. ومع ذلك تحملت وصبرت ولم أرفض الحياة! ثم أطلق الألمان الذين كنا نحاربهم، سراحي، وتحالفنا معهم وارتدينا البذلة العسكرية الألمانية. أقسمنا قبل كل شيء، أن نحارب لحساب الألمان ضد الروس. أكان هذا صحيحاً؟ لا أدري. لقد فعلت ما أملاه علي قلبي. ربما لأني رأيت الحياة وقتها كما هي. ولكنْ للحياة طرق أخرى. هكذا يقولون ولكن أنَّى لي أن أعرف هذا؟

سرت في طريق الحياة التي اختارها لي تاريخي. وهذا الطريق هو الذي أتى بي إلى هنا. والآن أنا هنا. وهنا النهاية. نعم، هنا النهاية. داخلتني الطمأنينة إلى هذا بعد لأي. ليس أمامي طريق آخر. مستقبلي في ظلام، ظلام سجن. لا أستطيع الانتظار هنا. ماذا يجب أن أعمل؟ لم أعد أستطيع العيش هنا بعد. لابد من ذهابي من هنا. ولكن كيف؟ وإلى أين؟.. وحتى الآن فالأفكار الطيبة في ذهني، والآمال في نفسي. عشت بالأمل، وسرت بالأمل. وتحطمت آمالي، الأمل بعد الأمل. كيف

سأعيش بعد ذلك. لا أستطيع أن أقتل نفسي. آه ليت قبري يكون في تلك الأرض، وفي سفوح تلك الجبال.

كنت أفكر في هذا، مساء الأمس، وطال الوقت، أقول إنني سأرجع ولا أستطيع تنفيذ أحلامي. سأقابل غداً أيضاً الطبيب، حتى أرى ماذا سيقول لي؟ يقول إن مخاوفي ستزول، ربما تزول. ولكن ماذا لو استمرت؟

خرجتُ أمس من عيادة الطبيب، وأحس بورم خانق في حلقي، وفي داخلي عذاب عميق. تحدث الطبيب طويلاً. وذكر أثناء الكلام اسم مرض نطقه باللاتينية ورغم أنها أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة الصعبة، إلاّ أني ارتعشت فجأة. كنت سأبحث في القاموس عن معناها ماذا لو كانت شيئاً خبيثاً، قال الطبيب إن هذا الأمر لبسيط، لا تقلق. أما أنا، فكنت أفكر بطريقة أخرى. يعني أن هذا مرض له اسم وعنوان. أمسكني الطبيب من كتفي عندما كنت أهم بالخروج من الغرفة. قال لي:

- يجب أن تتعود تدريجياً على الحياة بلا طبيب. عدت إلى غرفتي في الفندق بالورم الموجود في حلقي. كنت أردد وأنا في السرير، وإلى وقت متأخر من الليل، اسم ذلك المرض، وهو اسم صعب، أردده في ذهني، لم أكن أستطيع النوم. وفي لحظة جاءت أمي المسكينة. أرادت أن تضع يدها على رأسي. وفي نفس تلك اللحظة امتلأ ما بين أهدابي بالدموع.

يبدو أن النوم غالبني. وعندما استيقظت في منتصف الليل، كنت كمن لا يعرف أين يوجد. وفي صمت عميق أخذت أكرر لنفسي كلمة "أنا في روما" وكنت في ذلك متابعاً لصوت حركة ساعة الحائط الموجودة في الممر الأسفل ولكن ما لي ولروما! ذهني دائماً في الطريق التي مررت بها. هذه الطريق على ما يبدو هي صاحبة شخصيتي بل وصاحبة عقلي، مع كل كوارث هذه الطرق الدامية، مررت أمس بأزمة، بعدها فكرت ساعات وساعات في وطني الأخضر. فمن خلف جبل آيي داعي

كانت الشمس تشرق. ومن سواحل البحر الأسود كانت الحدائق الشديدة الخضرة تعلو وتعلو حتى تصل إلى قدميَّ. التلال ومآذن مساجد القرية، كانت تظهر بين الضباب، ووطني الجميل كأنه ينبسط أمام ناظري. أغمض عيني بشدة حتى لا أفقد رؤية هذا المنظر الجميل. هل بعث الله في قلوبنا مرة أخرى نشوة الإعجاب بجمال هذه الأرض؟ أصبحت هذه الأرض كل وجودي ستخلد هذه الأرض.. وبدونها..

يقول الطبيب لي أن "لابد أن ترى الحياة كما هي!" وهل حياة كل الناس على نفس الشاكلة؟ لو كنت طبيباً لكنت أقول "لا تنتظر شيئاً من الحياة، أغلق عينيك وارضَ بنصيبك". نعم كنت أقول "أحن هامتك لقَدَرِك. قَدَرِ أمة مهانة، أنت تحت سياط الظالمين. أمة مسحوقة، أمة تنزف دماً.. إنه الحظ التعس".

إنه القدر. قدر النساء اللاتي نُفي أزواجهن، ونشبت حراب الأعداء ببطون أولادهن. قدر الكهول الشيوخ الذي قُبض عليهم من لحاهم البيضاء، وجروهم منها. قَدر شبابنا الذين سالت دماؤهم مثل سبيل الماء، من أجل منفعة أعدائنا. هؤلاء الأعداء الذين شتمونا في الجبهة وبصقوا على وجوهنا.

رأيت هذه الليلة شيشكوف مرة أخرى في الحلم. ومرة أخرى أيضاً يأخذني إلى المقابر وهو يشير إلى الملابس العسكرية للجنود الموتى. يقول: "أنت، أنت! يا صادق طوران لبست زي الأعداء وحاربت ضد روسيا". تصببت عرقاً بارداً، ترى إلى أي حال سيصير حالي؟! يقول: زي الأعداء.. من هو عدوي؟ أليس عدوي هو أنت يا شيشكوف؟ أخذتَ مني بلادي بالكذب والخداع. والذين جاؤوا قبلك وعدونا وقالوا اقْبَلوا حمايتنا لكم وسنحمي أراضيكم وأموالكم ودينكم وما تملكون فسلمنا لكم. سلمت هذه الأمة أرضها وهي أغلى ما تحب، وتركنا أسلحتنا. آه... ومنذ اليوم الذي دخلتم فيه بلادنا وأرضنا تنزف دماً. هدمتم مآذننا حولتم قنوات الماء، وعيون الماء في بلادنا، وتماثيلنا وقصورنا الرخامية إلى حظائر وإسطبلات. وعندما

كان مؤذنونا يصعدون إلى المآذن لرفع الأذان، كان جنودكم السكارى يتخذون من قلوب هؤلاء المؤذنين، هدفاً يتدربون على إصابته وهم يلهون.

يا شيشكوف! يا شيشكوف! تقول: "ارتديتم زي الأعداء وحملتم السلاح ضد روسيا" . وعدونا الأصلي هو أنتم، أليس كذلك؟ ألستم أنتم الذين ملأتم عربات سكة الحديد المخصصة لشحن الحيوانات ملأتموها بجداتنا اللاتي يبلغن التسعين من أعمارهن وبكبار السن من رجالنا الذين أرادوا قضاء آخر أيام حياتهم في الصلاة والدعاء والتسبيح؟ وحملتم كل هؤلاء إلى سيبيريا في سفر استغرق عدة أسابيع بين قذارة الغائط والبول.. ثم تقول زي الأعداء!

كان ذلك في صيف عام ١٩٣٢، الدماء تسيل في قرى ساحل القرم. قام جنودكم السكارى باعتراض آبائنا الذين يفلحون بساتينهم وحدائقهم وبعض حقولهم. ثم أخذوا يضربونهم ببنادقهم ويسوقونهم إلى يالطا. ولن أنسى، وكنت صبياً في ذلك الوقت، في الثالثة عشرة من عمري، عبرت الجبال خلسة مع أبي، وذهبنا إلى يالطا. كنت أنظر من بعيد، فأرى شعباً أبعدوه عن أرضه. هذا المنظر يقشعر منه بدن كل من يراه. حتى لو كان متوحشاً أو زنجياً من أواسط أفريقيا. لقد مزّق هؤلاء الروس، ملابس نسائنا وفتياتنا الشريفات اللاتي أصبحن يخجلن من النظر إلى وجوه أمهاتهن وآبائهن ورجالهن.

عندما كانوا يسوقون امرأة كبيرة ليركبوها السفينة، اختل عقلها، وأرادت أن تلقي بطفلها على سواحل وطنها الحبيب.

ما في داخلي، ليست الطرق التي مررت منها، ولا الزي العسكري الألماني بل كان الصياح المر الذي أطلقته النساء والأطفال. يا ربي! لماذا لم تقم الدنيا وتقعد؟ لماذا لم يحدث زلزال يهز الدنيا عندما أبعدوا شعبي عن أرضه؟ ولماذا لم تبتلع البحار ذلك الوطن وشعبه معاً؟ لماذا كان التتار بهذا القدر من طيبة القلب والسماحة والعفو. ألا نملك حق الحرب ضد أعدائنا وحقنا في الموت في سبيل الأرض؟!

١٩٤٦/٨/٧

في روما شاب من آق مسجد اسمه جنكيز. وقد علمت بذلك بالأمس. جاء إلى إيطاليا من معسكر اللاجئين في تيرول، قبل شهر. أريد رؤيته كان يتقصى أخبار محمد. أريد أن أخبره بأن محمداً ترك روما. أخشى على نفسي من المرض ولكن لابد أن أجده.

١٩٤٦/٨/١٠

علمت بالأمس بأن جنكيز، غادر روما وسافر إلى تورنتو. عنوانه يوحي أنه في معسكر جنود بولندا. شيء عجيب... ربما يكون مرتدياً ملابس عسكرية إنكليزية. أصابني الضيق كثيراً لأني لم أجده. فقد كنت أحب التحدث إليه. لكن ذهابه.. مع كل هذا.. أيقظ في نفسي أحاسيس الحرية الكامنة فيها.

سيعود إلى روما مرة أخرى بعد حوالي شهرين. ربما تزول مخاوفي، إلى حين عودته، فأصبح آمناً من الخوف.

أنا الآن مستريح. أحس بأنني سعيد. الجو في الخارج ندي. خرجت في الصباح لشراء سجائر. أرى الناس في الشوارع كأنهم مثلي. وكأني مثلهم. ولكن يا لفظاعة ذلك الضيق الذي مر بي في هذا الأسبوع الأخير. ماذا هناك حتى يتضايق الإنسان هكذا؟! بعد أن اشتريت السجائر رأيت رجلاً ضريراً مسكيناً، في يده عصا، ويضع على عينيه نظارة سوداء، كان يريد أن يعود إلى حجرته في الفندق، جريت سريعاً إليه، وأمسكته من ذراعه. عاونته في عبوره إلى الرصيف الآخر من الشارع. أحسست بالسرور؛ وكأني قمت بأجمل حركة في حياتي. إني جلست في مجموعة هذه الحدائق العامة عدة مرات من قبل، ورغم هذا فإني أشعر بأنني أرى جمال المكان لأول مرة. كنت أحب أن يكون أحد بجانبي. مخلوق حي، كلب، أو قطة على الأقل.

أتطلع إلى الأمام. كنت أحاول أن أرى آفاق الحياة. وأصبحت الآن كأني أراها. معنى هذا أن الحياة ليست مظلمة إلى هذا الحد!

أفكر قائلاً لابد أن أجد جنكيز. وبينما كنت أقوم من المكان الذي كنت أجلس فيه تذكرت ماريا، وكنا معاً ذات يوم في سفح جبل تيرول. وكان جسمها بارداً. مسكينة ماريا. كانت تقول:

- صادق! لا تتركني! سأذهب معك إلى أي مكان. فحياتك حياتي.

مسكينة ماريا! لكني لم أشعر بالأسى من تذكرها؛ بالقدر الذي ظننت. وعند عودتي إلى الفندق، قررت استئناف كتابة مذكراتي مساءً. ويبدو أنني - ومرة أخرى - أهرب من الحياة. لا. لا أهرب. فالمذكرات حياة. المذكرات حياتي ..

شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com

للمزيد من الكتب المتميزة والحصرية :

/http://www.rewity.com/vb